جاكلين هاربمان

مكتبة

أنا التي لم أعرف الرجال

نقلها إلى العربية:
ثروت عبدالساتر

رواية

دار جلسة للنشر والتوزيع

أنا التي لم أعرف الرجال

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

MOI QUI N'AI PAS CONNU LES HOMMES

Jacqueline HARPMAN

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونًا من الناشر
(©Editions Stock, 1995)
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين دار جلسة للتوزيع والنشر

Arabic Copyright ©2024 by Jalsa Publishing House

ردمك: 978-614-8064-00-5

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

البريد الالكتروني: jalsa@jalsapublishinghouse.com

Jalsa Publishing
https://www.instagram.com/jalsapublishinghouse/

جاكلين هاربمان

أنا التي لم أعرف الرجال

نقلتها إلى العربية:

ثروت عبد الساتر

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار جلسة للنشر والتوزيع

نادرًا ما أخرج من المنزل في هذه الأيام، فأنا أمضي معظم وقتي جالسة في مقعد مريح، أبحث عن الأنس في عوالم الكتب. بدأت مؤخّرًا أهتم بالمقدّمات التي يكتبها المؤلّفون عارضين فيها دوافعهم للكتابة، وهذا ما يدهشني؛ فلعلّه كان شائعًا في العوالم الماضية أن يرغب النّاس في نقل المعرفة التي اكتسبوها، وكأنهم كانوا دومًا بحاجة إلى التأكيد على أنهم لم يكتبوا من منطلق الغرور، بل تلبية لطلب الآخرين. وعلى أنهم فكّروا مليًّا قبل القبول بتلك المهمة. إنّ هذا الأمر يبدو لي مستغربًا، فهو يدلّ على أنّ النّاس لم يكونوا حريصين على التعلّم، بل كان يتعيّن على المؤلّف أن يبرّر رغبته في نقل معرفته أو أن يوضح الدوافع إلى نشر ترجمة جديدة لبروست، على سبيل المثال، مؤكّدًا أنّ الجهود السابقة، وإن كانت جديرة بالثناء، إلّا أنها تفتقر إلى عناصر معيّنة.

لماذا يُلجأ إلى الترجمة في الوقت الذي يبدو لي فيه أن بمقدور الجميع تعلّم اللّغات والاطّلاع على النّصوص من مصادرها الأصلية بسهولة؟ هذا السؤال وأمثاله وضعني أمام حقيقة جهلي العميق؛ إذ بدا جليًّا أنني أعرف عن هذه الأمور أقلّ ممّا كنت أعتقد. في العادة يعبّر المؤلّفون عن امتنانهم لمن علّموهم وفتحوا لهم أبواب المعرفة، ولأنني لا أعرف ما الذي يتحدّثون عنه، شعرتُ بالعجز عن تفهّم تلك المشاعر وامتلاكها. فقد صَعُب عليّ التفاعل مع تلك الكلمات من دون أن أعرف مَنْ هم هؤلاء الأشخاص الذين يَدين لهم المؤلّفون بالفضل.

بالأمس، وبشكل مفاجئ، داهمتني دموعي حين فكّرت في أنثيا، واجتاحتني موجة عارمة من الحزن. تخيّلتها جالسة على حافّة فراشها، وقد أرخت ساقيها إلى جانب واحد، وهي تصنع من شعرها خيطًا ينقطع باستمرار. أذكر أنها كانت تتوقّف بين الفينة والأخرى وتحدّق إليّ

مندهشة. فبعد أن أدركتْ عمق جهلي، حاولت أن تعلّمني ما تعرفه، واعتذرت عن قِلّته، وهذا ما جعلني أشعر بألم عميق في قلبي، فبكيت بحرقة.

الألم الذي عانيت منه في تلك اللّحظة، يشبه الألم الفظيع الذي يسبّبه السرطان الذي ينهش أحشائي الآن. صرخت باسمها: «أنثيا! أنثيا!»، أنا التي فقدتُ قدرتي على الكلام لأنه لم يعد هناك مَن يسمعني. لم أستوعب رحيلها، ولم أستوعب أنني سمحت للموت أن يخطفها مني. شعرت بالنّدم وبتأنيب الضمير لأنني لم أتمسّك بها كما ينبغي، وتذكّرتُ أنّ البرودة التي اتّسمتُ بها طوال حياتي هي التي حالت دون احتضانها بحرارة، وأدركت أنّ قلبي الذي كان خاليًا من المشاعر، لم يتحْ لي تحديد مدى يأسي، حتّى جاء ذلك الحزن العميق ليجعلني أعيد النّظر بحقيقة مشاعري.

لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا العجز، أنا التي عاهدت نفسي على عدم الانهيار؛ فقد راقبتُ نساء يرتجفن ويصرخن من شدّة ما تعرضن له من مآسٍ، لكنني لم أكن يومًا جزءًا من هذه المآسي. كنت أساعدهنَّ بصمت، على الرغم من أنّ المأساة كانت حاضرًا يعمُّنا جميعًا. لكن، في تلك اللحظة، وعندما بكيت، أدركت - للمرّة الأولى - أنني مختلفة ولستُ كالأخريات، وعليّ أن أعترف بسرعة، ومن دون أي تردّد، بأنني أنا الأخرى أحببتُ، وبأنني شعرت بالمعاناة، وبأنني إنسانة.

شعرت بأنّ هذا الألم لن يخبو أبدًا، ولن يُرخي قبضته عنّي، وبأنّه سيحول دون تكريس نفسي لأيّ شيء آخر، وكأنني استسلمت أمامه بكل سهولة. ربمّا كان هذا ما يُسمّى ندمًا. فأنا صرتُ عاجزة عن النّهوض أو التفكير أو حتّى طبخ طعامي، فبعد أن تفاقم شعوري بالذبول البطيء،

أمدّتني فكرة استسلامي لليأس بمتعة مَرضيّة، وحين كان الألم الجسديّ الحادّ يعاودني كان يصرف انتباهي عن الألم النّفسي، فأجد نفسي أترجح بين هذين النّوعين من الألم، فأنحني وأضحك وسطهما، أنا التي لم يسبق لها أن ضحكت.

بحسب ما أذكر، كثيرًا ما ضحكت النّساء اللواتي كنّ يحطن بي، ولكنني نادرًا ما شاركتهنّ الضحك. في تلك اللحظة، أدركت أنني لم أفكّر يومًا في الماضي، فأنا دائمًا أعيش في الحاضر. وهذا ما جعلني أنسى، مع مرور الوقت، قصّتي. في بداية لحظة الإدراك تلك رفعت كتفيّ، وواسيت نفسي بالقول إنّ الأمر لا يُعتبر خسارة كبيرة؛ إذ لم يحدث لي ما يستحقّ البكاء، ولكن سرعان ما صدمتني هذه الفكرة. فبعد كلّ ما حصل، وبما أنه ثبت لي أنني إنسانة، فإنّ قصتي تُعتبر مُهمة بقدر أهمية قصة الملك لير أو هاملت الذي تكبّد شكسبير عناء سرد تفاصيلها.

في خطوة مفاجئة، قرّرت، ومن دون تفكير عميق، أن أعبّر عن المعاناة بأسلوبي الخاص. فعلى مدى السّنوات، تعلّمت القراءة بطلاقة، لكنّ تعلّم الكتابة كان تحدّيًا أكبر لم أسمح للإحباط بأن يحول بيني وبينه. صحيح أنه لم يكن لديّ متّسع من الوقت، لكنني كنت أملك على الأقل أقلام رصاص وأوراقًا. بعد أن توقّفتُ عن القيام بالرحلات الاستكشافية، لم يعد لديّ ما أفعله، فقرّرت البدء فورًا. توجّهت إلى الثلاجة، وأخرجت اللحم المجمّد وتركته يذوب لأطبخه لاحقًا، بحيث يكون طعامي شبه جاهز حين أشعر بالجوع، ثمّ جلست إلى الطاولة الكبيرة وبدأت الكتابة.

وأنا أخطّ هذه الكلمات، أشعر بأنّ قصتي تقترب من نهايتها. لقد نظّمت أموري، وأنجزت المهمة الأخيرة التي وضعتها لنفسي. لم يستغرقني الأمر سوى شهر واحد، وربمّا كان هذا الشهر أكثر فترات حياتي بهجة

وسعادة. لا أستطيع أن أفسّر سبب ذلك بدقّة، لكن في نهاية المطاف، ما كنت أصفه هو حياتي الغريبة، التي لم تجلب لي كثيرًا من السعادة، ومع ذلك، خلقتْ تلك اللحظات من الكتابة والشعور بالإنجاز، في داخلي، شعورًا جديدًا بالحرية.

لقد أعادت لي الكتابة شيئًا من نفسي، وكانت إنجازًا يربطني بالحياة التي كنت أعيشها، حتّى وإن كانت تلك الحياة مليئة بالتعقيدات والتحدّيات. إنّ لحظات الإبداع هذه منحتني معنى جديدًا، وجعلتني أدرك أنني قادرة على التغيير وإعادة تحقيق ما كنتُ أعتبره مستحيلًا. ففي الوقت الذي كانت فيه الذكريات تؤلمني، كانت الكلمة المكتوبة شمسًا تُشرق على ظلام أعماقي، وتحمل في طياتها الأمل، وتفتح لي آفاقًا جديدة لم أتخيّلها من قبل.

هل الجهد الذي نبذله للتذكّر يبعث فينا الرضا، فيمنحنا شعورًا عارمًا بالامتنان؟ وهل الذكريات التي نتذكّرها أقل أهمية من عملية التذكّر في حدّ ذاتها؟ يبقى هذان السؤالان بلا إجابة محدّدة، وهذا ما يعزّز شعوري بأنني لست إلّا مجموعة من الذكريات. كلّما استرجعت ما عشته في الملجأ، تأكّدت من أنّ هذه هي طبيعة الذكريات كما يشرحها الآخرون. في المناسبات النّادرة، عندما كانت النّساء يسمحن لي بالتعرّف إلى ماضيهن، كانت قصصهنّ تزخر بالأحداث والأشخاص والتفاصيل اليومية، بينما كانت ذكرياتي تنحصر بالمكان نفسه، ومع الأشخاص أنفسهم، حيث أؤدّي المهام نفسها: الأكل، والتبرّز، والنّوم.

مرّت الأيام، ولم يختلف أيّ منها عن سابقه. بدا لي وكأنّ الزمن ثابت لا يتحرّك، حتّى بدأ إدراكي يتشكّل وبدأت أفكّر. قبل ذلك، كانت حياتي عبارة عن عملية تكرار لأحداث متشابهة. على الرغم من إدراكي أنني قد

بلغتُ، وأنّ الزمن يمضي، لكنّ ذكرياتي لم تظهر إلّا حين بدأ الغضب يعتمل في داخلي.

من الواضح أنني لا أعرف كم أبلغ من العمر، ولكن يبدو لي أنّ الأخريات قد أدركن سنّ البلوغ منذ وقت طويل، ولكنني لم أشعر أنني وصلت إلى مرحلة البلوغ الحقيقيّة. يبدو أنّ نموّي قد توقّف في مرحلة معيّنة؛ فقد بدأ الشعر يظهر تحت إبطيّ وفوق عانتي، ونهد صدري قليلًا، لكنّ كلّ شيء توقّف عند هذا الحدّ، ولم أختبر الطمث. غبطتني النّساء لأنني لن أعاني من نزيف الطمث وما يرافقه من احتياطات يجب عليّ اتخاذها حتّى لا ألطّخ الفراش، وقلن إنه لا ينبغي أن أقلق بشأن المهامّ الشهرية المملّة، المتمثّلة بغسل الفُوَط التي عليهنّ حشرها والضغط عليها بعضلات أفخاذهنّ، لأنه لم يكن لديهن ما يثبّتها في مكانها، كما قلن إنني لن أعاني من التقلّصات المؤلمة التي يعاني منها كثير من الفتيات المراهقات. لكنني لم أثق بكلامهنّ؛ فقد كنّ جميعًا يمررن بالدورة الشهرية، وكنت أتساءل لماذا يُظهرن لي أنني متميّزة على الرغم من شعوري بأنني أفتقد شيئًا أساسيًّا يمررن به جميعًا، وهذا ما جعلني أشعر بأنّهن يخدعْنني.

في ذلك الوقت، لم يبدُ لي الأمر مهمًّا، ولم يتبادر إلى ذهني أن أسأل عن الغرض من الدورة الشهرية. ربمّا لأنني كنت هادئة بطبيعتي، وربما لأنّ الإجابة التي تلقّيتها عن أسئلتي النّادرة لم تكن مشجّعة على الإطلاق، فكثيرًا ما كنتُ أرى مشاعر الغضب تنعكس على وجوههنّ حين أطرح عليهن أيّ سؤال، فيقلن: «ما الذي ستستفيدين منه إذا أخبرناكِ؟»، فأدركتُ أنّ أسئلتي تزعجهنّ.

لم ألحّ في طلب الجواب، ولم تشرح لي أنثيا عن الدورة الشهرية إلّا

بعد فترة طويلة. وذلك بعد أن شرحت لي أنّ النّساء هنا لم يصبن قدرًا كبيرًا من التعليم، وأنّ معظمهنّ كنّ عاملات في المصانع، أو طابعات على الآلات الكاتبة، أو بائعات في المتاجر - لم يعنِ لي أيّ من هذه المهن شيئًا- وأنّهن لا يعرفن أكثر مني. وعلى الرغم من محاولات تبريرها ترسّخت قناعتي مع مرور الأيّام بأنهنّ لم يبذلن جهدًا لتعليمي شيئًا.

حين أكّدت لي أنثيا استنتاجي، وحاولت أن تبرّر دوافعهنّ، أثار الأمر حفيظتي، وفي اللّحظة التي أردت فيها الكتابة عن الأمر، شعرت بالغضب بسبب ازدرائهنّ لي، واعتقادهنّ أنني عاجزة عن فهم الإجابات عن الأسئلة القليلة التي طرحتُها. عندها قررت أنني لن أوليهنّ -بعد الآن - أيّ اهتمام.

إنّ هذه التجارب، وعلى الرغم من الآلام التي رافقتها، هي التي صنعتني وصاغت هويتي. كانت تلك اللحظات من الانكسار والنّزاع الداخليّ التي عشتُها مؤشرًا إلى حالة من الفقدان والفراغ الرّوحي، فالأجوبة التي كنت أبحث عنها لم تأتِ بسهولة، ولكنني كنت في رحلة اكتشاف جديدة، وإن كانت مؤلمة، فالبحث كان جزءًا مهمًّا من تشكيل ذاتي.

كان التجهّم رفيقي الدائم، ولكنني كنت عاجزة عن تحديد ماهيّته، إذ لم أكن أعرف الكلمات التي تُعبّر عن حالتي المزاجية. لقد انغمست النّساء في مجموعة من الأنشطة اليومية التي لم تدعني أيّ واحدة منهنّ للمشاركة فيها؛ لذا كنت أكتفي بالجلوس ومراقبة ما يجري حولي. وإذا ما أردت الآن أن أتذكّر أنشطتهنّ، فيمكنني وصفها بأنّها لا تستحق الذكر، كنّ يدردشن بشأن أمور بسيطة، ويحضّرن الطعام مرتين في اليوم. في خضم هذا الفراغ النّاتج عن الاستبعاد، ركّزت اهتمامي ووجّهته نحو الحرّاس الذين كانوا يتحركون دائمًا، ذهابًا وإيابًا، أمام القفص في مجموعات من

ثلاثة، وكنا نتجاهل حقيقة أنّهم يراقبوننا، ولكنّ فضولي تجاههم كان يتزايد باستمرار.

بدأ هذا الفضول يُعبّر عن نفسه بشكل خاص عندما لاحظت حارسًا بدا مختلفًا عن الآخرين؛ كان أطول من رفاقه وأنحف، ومع مرور الوقت أدركت أنه أصغرهم سنًا، وهذا ما أثار دهشتي. كان فيه ما يلفت انتباهي ويشدّني إليه. ربمّا كان الأمر يتعلّق ببراءة ظاهريّة تعكس مرحلة من عمري لم أختبرها، فقد بدا وكأنه لا يتقبّل ما يحيط به، تمامًا كما كان حالي.

تزايدت مشاعري المتضاربة تجاه هذا الحارس؛ فعلى الرّغم من أنّه كان جزءًا من النّظام الذي يحبسنا، لكنه كان في الوقت نفسه طيفًا من الواقع الخارجي الذي يتجاوز حدود قفصنا. في بعض الأحيان كان ينظر إلينا نظراتٍ تعكس عدم تطبيقه الأوامر بحذافيرها؛ نظراتٍ يعتريها شيء من الفضول أو حتّى التعاطف. كما أنّ حركاته كانت تبث نوعًا من الحياة فيّ. هذه التصرفات، ومع أنها لم تبدُ متعمّدةً، إلّا أنّها حرّضت في داخلي فكرة محتملة عن إمكانية التواصل، تلك الفكرة التي كنت أجهل وجودها منذ أمد بعيد. في تلك الفترة، لم أفهم طبيعة تلك المشاعر؛ فكيف أستطيع التواصل مع شخص هو في النّهاية جزء من النّظام الذي يحتجزني؟ لكنّ الفجوة بيننا، ومع اتّساعها، لم تحُل بيني وبين رغبتي في التواصل. يبدو أنه لا يزال هناك شيء بشريّ في داخلي، يحثني على السعي وراء الفهم والقبول.

هذا الشاب الذي يمثل كلّ ما هو مختلف عنّي كان بوابتي إلى الفضول، تلك البوابة التي لم أعتقد أنني سأطأها يومًا. في كلّ مرّة كنت ألاحظه، كان يوقظ في داخلي شعورًا بالانتماء إليه، وإن من خلال الحاجز الذي يفصل بيننا. وهذا ما مضى بي إلى مساحات جديدة من الأفكار والتساؤلات.

في لحظاتهنّ الأكثر بهجة، تحدثت النّساء عن الرجال والحبّ، وكانت ضحكاتهنّ تتعالى حين أسألهنّ عن سبب ضحكهنّ. فكّرت في كلّ ما أعرفه عن الرومانسية؛ القبلات الحميمة، والأحضان الدافئة، والنّظرات المغوية، والمداعبة المتبادلة، وهذا ما أربكني. ثمّ ذكرنَ العلاقة التي ترفع المرء إلى سابع سماء، وكأنها تجربة تتجاوز حدود الواقع. لكنني لم أرَ سابقًا أيّ سماء، ولم تكن لديّ فكرة عن مفهوم السماء الأولى أو الأخريات التي تفصلها عن السابعة، ولكنني لم أُعر الأمر كثيرًا من التفكير. كان حديث النّساء مشحونًا بالحنين، وغالبًا ما كنّ يشتكين من قسوة الرجال في العلاقة وعدم اهتمامهم بالنّساء، فبعد أن تحمل إحداهنّ من رجل، كان يتركها قائلًا: «أنّى لي أن أعرف إن كان هذا الحمل مني؟». وكان هذا يعكس انعدام الاحترام وغياب المشاعر. شعرت أنّ هذه العلاقات كانت تشير إلى شيء أعمق؛ شعور بالفقد، وانعدام الأمل.

تساءلت عن معنى تلك العلاقات ومدى تأثيرها، وكيف يمكن لتلك التجارب أن تكون مصدرًا للفرح والضحك، في حين أنّها كانت ترتبط بألم الإهمال؟ لم أستطع أن أجد لها إسقاطات على حياتي الخاصة، لأنني عشت بعيدة عن تلك المشاعر المعقّدة. لاحظت، وأنا أستمع إليهنّ، أنّ العواطف تتسرّب من بين كلماتهنّ مع أنها تصف تجاربهنّ المؤلمة. أدركت أنّ الحبّ بالنّسبة إليهنّ لم يكن مجرّد شعور؛ بل كان مركّبًا معقّدًا يتضمن الألم والأمل في آن، وهذا ما حملني على التساؤل إن كانت المرأة تستطيع أن تجد في الحبّ قمة السعادة وهي محاطة بكل هذا التّشتّت.

هذا السرد عن الحبّ والعلاقات كان نافذة إلى عالم كنت بحاجة إلى فهمه، وعلى الرغم من عجزي عن التفاعل مع تلك المشاعر تفاعلًا كاملًا، فقد بدأت أرى في ذلك الأفق ألوانًا جديدة من التجربة الإنسانية، حيث يتداخل الضحك مع الخيبة، والفرح مع المعاناة، فبدا لي الأمر وكأنه رحلة

يبدأها الإنسان في البحث عن ذاته، حتّى وهو في غمرة التجارب الصعبة.

في بعض الأحيان، كنت أسمع النّساء يقلن إنّ غياب الرجال من حياتهنّ ليس خسارة كبيرة، وفي أحيان أخرى، كان هذا الغياب يحملهنّ على البكاء. بالنّسبة إليّ، بدت العذرية قدري؛ شيئًا لا مفرّ منه. في أحد الأيام، استجمعت شجاعتي وسألت دوروثي عن العلاقة الحميمة، فهي المرأة التي تشعرني بأقلّ قدر من الرهبة بين المرأتين الأكبر سنًّا.

أجابتني بلهجة مفعمة بالتعاطف: «يا لكِ من مسكينة!». وبعد أن تنهّدت مرات عدّة، أعطتني الجواب المعتاد: «ما الفائدة التي ستجنينها من الإجابة، طالما أنك لن تعرفي رجالًا أبدًا؟».

أجبتها غاضبة، بعد أن شعرت برغبة ملحّة في معرفة الجواب: «لكنني أريد أن أعرف». ولم أفهم السبب الكامن وراء رغبة أيّ شخص في معرفة ما يبدو عديم الجدوى. لا سيّما وأنه من المؤكّد أنني سأموت من دون أن يمسسني أحد. هذا الواقع جعلني أتساءل عن قيمة معرفة أيّ معلومة تتعلّق بتجربة لن أختبرها بنفسي.

لماذا يصمّمن جميعًا على الصمت؟ حاولت أن أواسي نفسي بفكرة أنّ الأمر ليس سرًّا على أيّ حال، لأنهنّ جميعًا يتحدّثن عنه. هل كنّ صامتات لأنهنّ أردنَ أن يضفينَ هالة على هذا الأمر؟ ربمّا كانت رغبتهنّ في الحفاظ على سرّهنّ أمام الفتاة الوحيدة، التي لا تعرف عن الأمر شيئًا، تأكيدًا على رغبتهنّ في الاحتفاظ بجوهر المعرفة. هل يردنَ أن يبقينني جاهلة حتّى لا يظهرن عجزهنّ؟ ومع أنهنّ في بعض الأحيان برّرن صمتهنّ بالحياء، لكنني لم ألاحظ أي اعتبار لهذا الحياء عندما كنّ يتحدّثن معًا.

كنّ يتهامسنَ ويقهقهنَ بطريقة مبتذلة. أعرف أنه لن تتاح لي فرصة اختبار العلاقة، وأعرف أيضًا أنه لن تتاح لهنّ الفرصة لإقامة علاقة أخرى.

ربمّا جعلتني هذه الحقيقة وإياهنّ متساويات في الحرمان. لذا، حاولن مواساة أنفسهنّ بحرماني من الشيء الوحيد الذي يستطعنَ حرماني منه.

في أمسيات كثيرة، وقبل أن أنام، كنتُ أفكّر في الحارس الشاب مستندة إلى قليل من المعرفة التي استقيتها مما سمعت وتخيّلت. كنت أتخيّل أنّه في حياة أخرى، سيأتي ليجلس إلى جانبي، ويُطلعني على اسمه، ويطلب مني أن أشاركه رقصة. بدوري كنت سأطلعه على اسمي، لأنه سيكون لي اسم، بخلاف وضعي الحالي، وكنّا سنتبادل أطراف الحديث. بعد ذلك إذا شعر أحدنا بانجذاب تجاه الآخر، كنا سنسير معًا ويده تحتضن يدي.

ربمّا في ظروف مختلفة ما كنتُ سأنجذب إليه، ولكنّه الوحيد من بين سجّانينا الذي لم يكن مُسنًّا، وهذا جعلني أفكّر في الجاذبية المبهمة لجمال شبابه؛ إنّها رغبة فطرية لم أختبرها من قبل. حاولت أن أتخيّل المحادثة التي كنّا سنجريها في ماضٍ لم أعرفه، فأسأله: «هل سيكون الطقس جيدًا غدًا؟ هل رأيت قطط الجيران؟ سمعت أنّ عمتك ستذهب في إجازة...». لكنّ تلك الأفكار كانت مجرّد أوهام لأنّه لم يسبق لي أن رأيتُ قططًا، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عن الطقس الجميل، وهذا ما وضع حدًّا لتخيّلاتي. ثمّ فكّرت في قبلة، وتخيّلت فم الحارس بقدر ما استطعت. إنه واسع جدًا، وشفتاه رفيعتان ومحدّدتان جيّدًا؛ لم أُعجب أبدًا بالشفاه الممتلئة التي كانت لدى بعض النّساء. تخيّلت شفتيّ تقتربان من شفتيه لكنني لم أشعر بأيّ شيء مميّز، وظننت أنّه ربمّا كان عليّ أن أعرف مزيدًا عن القُبل حتّى أعيش عمق التّجربة.

ذات مساء، وبدل أن أغفو مللًا بسبب محاولاتي البائسة في تخيّل قبلة لن تحدث أبدًا، تذكّرت فجأة أنّ النّساء كنّ يتحدّثن عن الاستجوابات،

وعبّرن عن اندهاشهنّ من عدم حصول أيّ استجوابات مؤخّرًا. فارتقيت بتخيّلاتي وفق ما سمعته: رحت أتخيّل دخول الحرّاس لاقتياد إحدى النّساء إلى الاستجواب، فأسمع تردّد صرخاتها المرعبة في أُذنيّ. في بعض الأحيان، سمعتُ أنهم كانوا يلقون بالمرأة المستجوبة بيننا في الصباح، وهي تئنّ من الجروح والحروق التي تغطّي جسدها، ولكنّ النّساء كنّ ينجين دائمًا.

خطر لي أنّه إذا كان هناك استجوابات، فسأغادر هذا الملجأ الذي عشت فيه طويلًا ولم أقصد مكانًا آخر. فتخيّلت الحارس الشاب يقودني عبر ممرات مجهولة، ثمّ يحدث أمر غير متوقّع.

ابتدع عقلي بسرعة سيناريو لما يمكن أن يحدث: يدفعني الحارس الشاب إلى الأمام بما يوحي أنه يؤدّي عمله بإخلاص، لكن، بمجرد أن ننعطف عند الزاوية ونغيب عن الأنظار، يتوقّف، ويلتفت صوبي، ويقول مبتسمًا: «لا تخافي». عندها يحتضنني، فأشعر وكأنّ نورًا انبعث من داخلي، وأجد صعوبة في التنفّس، لكن بعد فترة قصيرة يعود تنفّسي إلى طبيعته.

بعد فترة تغيّرت اهتماماتي، ولم أعد أحاول إقناع النّساء بإخباري عن أسرارهنّ، فقد صار لديّ أسراري الخاصّة. كان عليّ أن أحدّث نفسي بقصص ازدادت طولًا وتعقيدًا مع الوقت. لكنّ المستغرب أنّ أيّ قصّة كنت أبتدعها لم تكن تشعرني بالإثارة مرّتين على التوالي، على الرغم من أنّني تمنّيت أن تستمرّ لحظات الإثارة لساعات. أردت أن يرافقني الشعور بالإثارة طوال الوقت، ليلًا ونهارًا، كما هي حال مساحات من العشب في سهول تهبّ عليها نسمات لطيفة فتداعبها لأيام متتالية، وهذا مشهد لم أرَه فعليًّا إلّا بعد وقت طويل.

كرّست كلّ وقتي سعيًا وراء تلك الإثارة. كان عليّ أن أبتكر ظروفًا استثنائية نجد فيها نفسينا وحيدين، أو على الأقل منعزليْن عن الآخرين، وجهًا لوجه. وبعد كثير من الجهد، تخيّلت تلك المفاجأة عندما يحتضنني بين ذراعيه. ثمّ تطوّرت خيالاتي، فكان عليّ أن أضع عليها قيودًا معيّنة، لأنني لا أستطع أن أتخيّل القصّة نفسها مرتين، فالمفاجأة هي العنصر الحاسم. وذلك ما أدركته بعد محاولاتي المتكرّرة لإعادة إحياء تلك اللحظة الرائعة، لأنني لم أشعر بالإثارة نفسها.

هذا الجهد المتواصل في تخيّل هذه اللحظات، كان الطريق الذي سلكته لبلوغ جزء من إنسانيتي التي شعرت أنها ضاعت في زحام العزلة. وحين كنت أطارد تلك اللحظات، أدركت كم كانت الحاجة إلى التواصل وإلى العاطفة أساسية في تكويني، وكيف أنّ تلك الأحلام كانت، إلى حدّ كبير، وسيلة لتجاوز الواقع الذي أعيشه.

في كلّ مرة وجدتُ نفسي أسير في تلك المسارات الذهنية، كنت أتخيّل الحارس الشاب رمزًا للأمل والإثارة. وكان وجوده في تلك اللحظات يمنحني شعورًا بالقدرة على الفرح، على الرغم من كلّ ما أفتقده. كانت تلك الخيالات حافزًا لي للاستمرار في البحث عن معنى الوجود، حتّى في أعماق تجربتي المريرة.

كان هذا تحدّيًا صعبًا للغاية، لأنني كنت في الوقت نفسه مؤلّفة القصة، والراوية، والمستمعة التي تنتظر المفاجأة الصادمة وغير المتوقّعة.

عندما أعود بالذاكرة إلى الماضي، يدهشني كيف استطعت التغلّب على عقبات كثيرة! أتخيّل السرعة التي عمل وفقها خيالي ليمنعني من معرفة ما سيحدث، حتّى أتفاجأ بكلّ ما هو غير متوقّع! كما حصل في المرة الأولى التي تخيّلت فيها الاستجواب، فأنا لم أكن قد اخترعت قصصًا من قبل،

حتّى إنني لم أدرِ أنّ مثل هذا الأمر يمكن أن يحصل، فانجرفت تمامًا مع تلك الفكرة، مندهشة مما دبّ فيّ من نشاط جديد، وغير مسبوق.

لم يطُل الأمر حتّى بدأت أَبرع في هذا الفنّ، وحتّى صرت خبيرة في فنّ السّرد؛ كنت أعرف إن كان السرد يسير بشكل سيّئ أو سيبلغ طريقًا مسدودًا، فأسرع بالعودة إلى البداية لتغيير مسار الأحداث، فانتهى بي المطاف أخلق شخصيات تظهر بانتظام، ترافقني من قصّة إلى أخرى، وهذا ما منحني شعورًا بالغًا بالبهجة. لكن بعد أن صرت قادرة على القراءة، أدركت كم كانت شخصيّاتي سطحيّة ومحدودة الأفق.

بشكل أكثر تواترًا، بدأت أجد نفسي مضطرة إلى ابتكار قصص أكثر تعقيدًا. واعتقدت حينها أنّني كنتُ في أعماقي أشعر بالحاجة الماسّة إلى الشعور بالتشويق والمفاجأة الذي تثيره القصص التي أخترعها. في بعض الأحيان، كان يفترض بالتشويق أن يستمرّ لساعات، حتّى أتمكّن من إبهار المستمعة التي تسكن في داخلي، وأجعلها تشعر بأمان زائف، بحيث تنبهر وتستسلم. ثمّ تأتي اللحظة السحرية، عندما ينظر إليّ الشاب، ويضع يده على كتفي، فتجتاحني الإثارة وتغمُر جسدي بالكامل، حينها أتمكّن من الخلود إلى النّوم.

عندما أنهي القصة، كنت أُخيّب أمل المستمعة التي تسكن داخلي، لأنها تفضّل القصة على الإثارة، وهذا ما يسبّب لي الإحباط، لاسيما عندما ترفع من سقف توقّعاتها، وتطلب مني الإطالة في الأحداث لتستمتع بالقصة. أحيانًا، كنت أدخل في جدال معها في أثناء سرد القصة، فأقول: «لقد تعبت، سأتابع في الغد»، لكنّها لا تسمح لي بخداعها.

لاحظت النّساء أنّني تغيّرت، بعد أن راقبنني قليلًا، ولاحظنَ أنني أجلس دائمًا، وأسند ذقني إلى ركبتي، وأريح رأسي على ذراعيّ المتقاطعتين.

اعتقدتُ أنهنّ لاحظن شرودي الدّائم، وغفلتي عما يدور حولي، وأنني لم أعد أوليهنّ اهتمامًا. لذا، صُدمت عندما اقتربت مني آنا بيل لتسألني: «ماذا تفعلين؟».

فأجبتُها بسرعة: «أفكّر».

يبدو أنّ إجابتي أربكتْها، فظلّت في مكانها لبعض الوقت تنتظر توضيحًا مني، لكنني لم أضف شيئًا، فعادت إلى الأخريات لتخبرهنّ بما قلته. وحينها احتدمت النّقاشات أمامي، قبل أن تعود آنا بيل إليّ مرة أخرى.

«ما الذي تفكّرين فيه؟».

أجبتها وأنا أشعر بغضب عارم: «عندما طلبتُ منكِ أن تخبريني عن العلاقة، رفضتِ، والآن تتوقّعين مني أن أخبركِ بما يدور في رأسي. حسنًا، احتفظي بأسراركِ إن كان هذا يسعدكِ، لكن لا تتوقّعي مني أن أطلعكِ على أسراري».

خرجت هذه الكلمات من داخلي وتدفّقت كالحمم البركانيّة. خرجت من فمي لتُفصح عن غضب أثارته قلّة الاهتمام بشأني، فشعرت لبرهة بقوّة المشاعر المتباينة التي تحتدم في داخلي، وغمرتني رغبة في الاحتفاظ بأفكاري لنفسي، وكأنني بذلك أنأى بنفسي عن تلك العزلة الاجتماعيّة التي فرضتْ نفسها علينا، وأبحث عن هوية خاصة بي بين تلك الذكريات والأحلام.

عبسَتْ وعادت أدراجها. هذه المرّة، تناقشت النّساء لفترة أطول، وبدا لي المشهد جديدًا: لم يسبق لي أن رأيتهنّ يتناقشن بهذه الجدّيّة، فقد كنّ دائمًا يضحكن بعد عشر دقائق من أيّ محادثة أو نقاش؛ يبدو أنني أقلقتهنّ.

في تلك اللحظة، وقفت دوروثي، وهي المرأة الأكبر سنًّا والأكثر تقديرًا بين النّساء، وتوجّهت نحوي ثمّ جلست قبالتي وحدّقت إليّ، فانزعجت كثيرًا، لأنها قاطعتني في لحظة حاسمة من القصة التي كنت أسردها على المستمعة التي في داخلي. كنت على وشك أن أوضع في زنزانة انفراديّة، كما أخبرني الحارس الليليّ، الذي يُفترض أن يكون الحارس الشاب. كيف لي أن أتابع السّرد وهذه العجوز تحدّق إليّ بصمت؟!

بينما كنت أنظر إلى دوروثي، حاولت أن أحافظ على المشهد الذي أتخيّله، وشجّعت نفسي على التفكير في أنني إذا لم أشعر بالإثارة قريبًا، فسأضطر للعثور على حدث يربط القصّة بما أمرّ به الآن. لكن ما هو هذا الحدث؟ ماذا يمكن أن أتخيّل؟ ما الذي يمكن أن يعيدنا إلى العالم الحقيقيّ الذي نعيش فيه، نحن النّساء اللواتي مضت سنوات على حبسنا في هذا المكان، حيث فقدنا الإحساس بالزمن؟

أخيرًا، قالت دوروثي: «هكذا إذًا، لديك سرّ!».

لم أجد نفسي ملزمة بالإجابة لأنها لم تصغ كلماتها في سؤال. كنت أعرف أنها تحاول من خلال صمتها ونظراتها الثاقبة أن تُربكني. كنت سأخاف وأرتبك لو كنت كما في السّابق، فضولية ومطيعة، قبل أن أكتشف عالمي الداخليّ الذي أجد فيه الآن المتعة والإثارة. كنت سأفكّر في ما اقترفتُ لأستحقّ هذه النّظرات، وربما كنتُ سأخشى العقاب. لكن بعد ما حصل، صرت أشعر بأنني بعيدة عن متناولهنّ؛ فالعقوبات لا تتعدّى الإقصاء والاستبعاد من محادثاتهنّ التافهة التي تيقّنت أنّها تدور حول أمور غير مهمّة، ولم أردْ أن أعرف أكثر من ذلك لأتابع قصتي السرية بسلام.

عبستْ عندما لم تتلقَّ جوابًا.

«لقد طرحتُ عليك سؤالًا، ومن الأدب والكياسة أن تجيبي».

أجبتها: «ليس لديّ ما أقوله. لقد قلت لها إنّ لديّ أسرارًا. حسنًا، ما الذي تريدينه بعد؟».

«أريد أن أعرف هذه الأسرار».

ضحكتُ بشدة، وهذا ما أدهشني كما أدهشها. تعوّدت احترام طلبات النّساء الأكبر سنًّا اللواتي يمتلكن السلطة، لكنّ هذا الأمر تغيّر الآن. فأنا لم أعد أرى أساسًا لسلطتهنّ. فجأة، تبيّن لي أنهنّ ضعيفات. فنحن جميعًا محتجزات لسبب نجهله، في المكان نفسه، بعهدة حرّاس لا يتحدّثون إلينا، إما لأنّ الأوامر تمنعهم، وإما لأنّهم يحتقروننا، كما أنهم لا يتحدّثون بعضهم إلى بعض. لم يدخل الحرّاس القفص، وكانوا دائمًا في مجموعات مكوّنة من ثلاثة أشخاص، ولم نكن نرى ستة منهم في الوقت نفسه إلا حين تبديل الورديّة.

تعوّدنا أن تُفتح بوابة واحدة عند تقديم الطعام، حيث يدفع أحد الحرّاس عربة بين الجدار والقفص، ويفتح حارس آخر فتحة صغيرة لتمرير الطعام. لم يُجب الحرّاس يومًا عن أسئلتنا، لذا، توقّفنا منذ زمن عن طرح أيّ سؤال عليهم. لم يردّ الحرّاس على أسئلة أيّ امرأة، حتّى على أسئلة العجائز اللّواتي توهّمن بأنهنّ يتمتّعن بالسلطة، نتيجة اتّفاق ضمنيّ بيننا خلق تسلسلًا هرميًّا لا أساس له، لأنّ سلطتهنّ المفترضة لم تمنحهنّ الامتيازات اللازمة. في الواقع، كانت النّساء متساويات تمامًا بغضّ النّظر عن أعمارهنّ.

جلستُ بهدوء لدقائق، أسجّل تلك الحقائق المألوفة التي أصبحت فجأة اكتشافات مذهلة، ونظرتُ مباشرة إلى عيني دوروثي. وقلت: «أنتِ

لا تريدين سماع أسراري، بل تريدينني أن أمتثل لرغباتك».

لاحظتُ التأثير الذي أحدثته كلماتي فيها. في البداية، حين ظنّت أنني سأجيب، بدت راضية، لأنها اعتقدت أنها جعلتني أُطيعها. وعندما استمعت إلى ما قلته واستوعبتْه، على الرغم من أنني لستُ واثقة من فهمها له، بدت مرتبكة الذهن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ما الذي تقصدينه بقولك هذا؟».

«فكّري في ما قلته، تعرفي ما قصدته».

«أنتِ لم تقولي شيئًا».

«قلت إنني لن أخبرك بأسراري، وأنتِ أصررتِ على معرفتها، وهذا ليس أمرًا جديدًا. أنتِ تعتقدين أنه بمجرد أن تُبدِي رغبتك في معرفة أسراري، يتعيّن عليّ أن أخبرك بها».

عمليًا هذا ما كانتْ تظنه.

أجابت بإصرار: «هذا ما يُفترض أن تسير الأمور وفقه».

«لماذا؟».

بدتْ مضطربة، ولاحظتُ أنّ سؤالي فاجأها. لقد صدمها طرح استفسار عن سبب وجوب إخبارها؛ فهي توجد في عالم يُفرَض فيه عُرف غريب: عندما تطرح امرأة أكبر سنًا سؤالًا على امرأة أصغر سنًا، يفترض بالأخيرة أن تجيب. لم تخرق أيّ واحدة هذا العرف، لكنني أنا التي نشأت في هذا الملجأ المُحصّن، لم يكن لديّ سبب للخضوع له.

بعد لحظات، سألتني دوروثي: «ما الذي تقصدينه بقولك لماذا؟».

«قصدتُ لماذا تعتقدين أنه من البديهي أن أُجيب».

بدت نظرتها متردّدة. حاولت التفكير في ما قلت، لكنها لم تكن

متعوّدة على ذلك. وعندما تحوّل تردّدها ارتباكًا، نطقت بأول فكرة خطرت في بالها: «أنتِ وقحة».

شعرتْ بالارتياح بعد أن وجدتْ تفسيرًا لِما لم تفهمه من كلماتي، وظنّتْ أنّ ما قالته سيعيد الأمور إلى سابق عهدها؛ إلى التقاليد والأعراف المألوفة. فرددتُ بقولي: «أنتِ الوقحة». ثمّ أضفتُ بعد أن شعرت بشحنة إضافيّة من الثقة: «لماذا نجري هذا الحوار السخيف؟ ما الذي يجعلك تظنين أنك ذات سلطة؟ فأنت مثلنا تنتظرين كلّ يوم حصّتك من الطعام الذي يُقدّمه الحرّاس، فمن أين لك السلطة لمعاقبتي، خاصّة وأنّ سلطتهم تفترض عدم وجود أيّ سلطة أخرى؟ إن لم يكن لديك سلطة لضربي أو حرماني من الطعام، فلماذا يفترض بي الخضوع لسلطتك؟».

هذه المرّة، بدا جليًّا أنها لم تستوعب كلمة واحدة ممّا قلت، وأظنها فضّلت أن تكون صمّاء على سماع ما أقوله. تمتمتْ، وتحرّكت في مكانها، قبل أن تشير إلى امرأتين أصغر سنًا لتساعداها على الوقوف، مع أنها لم تكن بحاجة إلى مساعدة. بعد أن عادت إلى مكانها المعتاد، نظرت إليها النّساء الأخريات دون أن يجرؤنَ على طرح أيّ سؤال. ثمّ أغمضت عينيها بما يوحي أنها تُفكّر، ليتبيّن بعدها أنها غطّت في النّوم.

قالت إحدى المرأتين اللّتين ساعدتاها: «إنّ مثل هذه المواجهة ترهق مَنْ هنّ في مثل سنها». وعادت النّساء إلى ثرثرتهنّ المعتادة، وعدتُ بدوري إلى قصتي.

عدت بخيالي إلى زنزانة الحبس الانفراديّ. لم يكن قد أصابني شيء من الأذى، لأنّ الحرّاس حرصوا على تجنّب العنف عندما كانوا يتعاملون معنا. وأنا أتأمّل الوضعيّة المهينة التي أجلس فيها متقوقعة حول نفسي في الزاوية، تساءلت: هل هذه الصورة تليق بفتاة واجهت المرأة الأكبر

سنًا والأكثر سلطة في القفص، وأخبرتها أنها حمقاء؟

إنّ عجز دوروثي عن الردّ، أسرى بالقشعريرة في جسدي. ربمّا كانت هذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بالإثارة الفكريّة. من حيث أنا، داخل الزنزانة الانفراديّة المتخيّلة، توجّب عليّ أن أقف وأبتسم متحدّية كلّ نساء القفص.

بعد ذلك الموقف، تعذّر عليّ التركيز على القصة، فقد أثارتني تلك المواجهة الصغيرة، وأردت الاستمتاع باللحظة، لكنّ هذه الإثارة كانت مختلفة عن الإثارة العاطفيّة المعهودة، لأنّ الحارس الشاب لم يكن جزءًا منها. لذا، حاولت أن أضبط نفسي، لأعود إلى عالمي الخاصّ.

لو أنّ نساء القفص كنّ يتمتّعن بأدنى قدرٍ من الحكمة والبصيرة، لكُنَّ تركنَ الأمر عند هذا الحدّ، وتظاهرنَ بأنّ شيئًا لم يحدث، وتجنّبنَ معركة غير متكافئة. خصوصًا، بعد أن أدركت أنني قوية مثلهنّ، وأنّ بوسع أيّ شخص أن يكتم الأسرار إذا لم يتعرّض للتعذيب، وهذا ما يجعل من السّرّ كنزًا ثمينًا. إنّ رفضهنّ مشاركتي ما يعرفنَه عن الحبّ كان بالنّسبة إليهنّ متعة لا تُضاهى، أمّا الآن، فصرت أحتقر تفاهتهنّ، وصرت أحدّث نفسي بأنني كنت أستطيع نيل مبتغاي بسهولة من أيّ شخص أصادفه. وأنني، بمطالبة النّساء بالإجابة عن تساؤلاتي، كنت أمنحهنّ امتيازًا لم يكن لهنّ يومًا، ولم يكشف سوى عن جهلي.

منذ ذلك اليوم، صرت محل فضولهنّ، وصرنَ هنّ من يشعرنَ بالإقصاء والازدراء. لقد عثرتُ على العزاء والمواساة من خلال الإثارة الفكريّة، أما هنّ فبقينَ ساخطات وعاجزات، يسترجعنَ تذمرهنّ كلّ يوم. صرنَ يراقبنني، ولكن لا يمكن وصف ما يقمنَ به بالمراقبة الحقيقيّة، فنحن أربعون أنثى نعيش في تلك الغرفة الكبيرة تحت الأرض، حيث لا يمكن

لأحد أن يختبئ. كانت المسافة بين أبعد نقطتين لا تتجاوز الأمتار الخمسة، تتخلّلها أعمدة تسند السقف المقنطر. وكانت القضبان تفصل منطقة معيشتنا عن الجدران، تاركة ممرًا واسعًا حولها ليسير الحرّاس فيه ذهابًا وإيابًا.

كنّا جميعًا مُراقبات، وكنّا متعوّدات على تلبية نداء الطبيعة بعضنا أمام بعض. في البداية -أو هكذا قيل لي، إذ لا أذكر ذلك بنفسي- أبدت النّساء امتعاضًا، ففكّرن في تشكيل جدار بشريّ يحجب المرأة التي تقضي حاجتها، لكنّ الحرّاس منعوا ذلك، لأنه لا يحقّ لأيّ امرأة بأن تكون بمنأى عن المراقبة. أما أنا، فلم أجد حرجًا في تلبية نداء الطبيعة من خلال الجلوس على المرحاض ومتابعة الحديث معهنّ، وذلك في المرات النّادرة التي شاركت فيها بالحديث.

أما النّساء الأكبر سنًا، فكنّ يشتمن ويشتكين من انحطاطهنّ إلى مستوى الحيوانات، معلّلات بأنّ الشيء الوحيد الذي يميّزنا عن الحيوانات هو أننا لا نُلبي نداء الطبيعة في العَلن. بناءً على ما قلنَه، كوّنت قناعة بأنّ معايير وصف أحد الكائنات بأنّه إنسان، بسيطة جدًا. لم أتحدّث عن هذه القناعة مع نساء القفص، لأنني كنت أعتبرهنّ غبيات، ولأنني في تلك الفترة لم أكن قادرة على التعبير عن قناعتي بالوضوح الذي أعبّر فيه الآن.

الآن، وأنا أسترجع الأمر، يتبيّن لي مقدار الغطرسة التي كانت تسكنني. كنت أشعر بالفخر والابتهاج لأنني وجدت شيئًا استثنائيًا يصرف انتباهي. في ذلك الوقت، ظننت أنّ حشدًا من النّاس يطاردني ويراقبني، لكننا في الحقيقة لم نكن سوى مجموعة من السّجينات المتساويات في القهر. ربمّا يُعزى الأمر إلى أنني، ولصغر سني، وبسبب القيود المفروضة

علينا، احتجت مثل الأخريات إلى خلق وهْم يساعدني على التعايش مع بؤسي، ولكن ما تقدم يبقى افتراضًا لا أستطيع الجزم بشأنه.

الآن، بعد أن صرت عاجزة عن المضي في رحلات المشي والاستكشاف، أجد نفسي كثيرة التفكير، لكن لم يعد هناك من أتحدّث إليه، فصارت أفكاري تعيد نفسها، ولهذا أرتأيت أنه من المثير أن أكتبها، وبذلك أتعرّف عليها عندما تعيد نفسها، فلا أدوّنها.

عندما استيقظت دوروثي، ووجدت في نفسها الطاقة لإخبار الأخريات عن الحديث الذي دار بيننا، لم تخبرهنّ أنني وصفتها بالحمقاء، وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته للحفاظِ على ماء وجهها، فإنّها لم تستطع إخفاء حقيقة أنني لم أخبرها بسرّي.

«سرّ! هل لديها الحقّ في الاحتفاظ بسرّ؟».

أدركت أنثيا على الفور، وهي الأكثر ذكاء بين النّساء، أنّ مضمون السّرّ ليس مهمًا، بقدر القدرة على الادّعاء بوجود سرّ يمكن كتمانه، والثقة بهذه القدرة. لكنّ الفكرة كانت معقّدة وتفوق قدرة أدمغة السجينات على فهمها، فتجاهلنَ يائسات ما ألمحت إليه أنثيا، وطالبن بمعرفة ما أكتم.

«يجب إجبارها على البوح بسرّها».

«كيف سنجبرها على ذلك؟».

توجّهت كارول، وهي الأكثر غباءً وغضبًا، وجلست أمامي وطلبت مني أن أبوح بالسّرّ بطريقة تنمّ عن تهديد غير مباشر قائلةً: «وإلّا».

سألتها ضاحكة: «وإلّا ماذا سيحدث؟».

تحرّكت كارول وبدا جليًّا أنها تفكّر في صفعي. ويبدو أنّ حركتها هذه لفتت انتباه الحرّاس، الذين لم يكفّوا عن التحديق إلينا، ففهموا ما يجري. زادت الأصوات النّاتجة عن ضربهم الأرض بالسياط التي يحملونها

من توتر الجوّ المتوتّر أصلًا. كنا واثقات من أنّهم لن يجلدونا بالسياط، وبأنّ الصوت كان ناجمًا عن التلويح بالسوط في الممر، أو عن جلد الأرض به. وعلى الرّغم من تيقّننا من ذلك، إلّا أنّ صوت السياط كان يبعث الرهبة والخوف في نفوسنا، وهذا ما جعل كارول ترتعش.

لم تذكر أي من النّساء أنها ضُربتْ، لكن أنثيا أخبرتني أنّ عددًا من النّساء تعرّضنَ للضرب. ربمّا حدث ذلك في الأيام الأولى التي تلت أسرنا. وقتها لم تكن القواعد واضحة، فلجأ الحرّاس إلى الضرب لبثّ الخوف في نفوسنا. لم تجرؤ أيّ واحدة من الأسيرات على عصيان السّوط، لا سيّما بعد أن وصف بعضهنّ النّدبات الدامية التي خلّفتها السياط على جلودهنّ العارية، والألم الذي استمرّ لأيام، كما أن جلود نساء كثيرات لا تزال تحمل ندوبًا بيضًا طويلة.

انسحبت كارول مرتعشة، وهذا ما فعلته أنا بدوري، راسمةً ابتسامة ساخرة على شفتي. تنازعتني رغبتان: الأولى هي السخرية منها بصمت ودفع الحرّاس ليكونوا حلفائي، والثانية هي البوح بمقدار غبائها وعجزها، وبالتالي استعداء الحرّاس. لكن أنثيا تدخّلت في الوقت المناسب، ودنت من كارول التي كانت ترتعش من الغضب والخوف، وأشارت إليها أن تبتعد.

خاطبتْها بصوت منخفض: «هيّا، لا فائدة من كلّ هذا».

اهتزّ جسد كارول، وظننتُ أنها ستلقي بنفسها بين ذراعي أنثيا، لكننا كنّا نعرف جيدًا أنه يُحظّر علينا أن نتلامس، فاكتفت بأن خفضت رأسها.

«هيّا». كرّرت أنثيا.

توجّهتا إلى الجهة المقابلة من القفص. وعدتُ إلى وضعي؛ أسندت رأسي إلى ركبتي، سعيدة لأنني تُركت أخيرًا بسلام. لكنني لم أستطع

الانغماس مجدّدًا في قصتي. فقد وتّرني ما حصل، وحال توتّري دون استعادة تركيزي، فتوجّهتُ إلى النّساء اللواتي يقشّرن الخضار وعرضت عليهنّ المساعدة، لكنني كنت خرقاء ولا أجيد التقشير، وهذا ما أثار غضبهنّ. فقالت إحداهنّ: «اذهبي، والعبي بعيدًا».

«مع من تريدينني أن ألعب؟!».

عندما احتُجزنا كنت طفلة، واعتقدت النّساء أنّني وُضعت بينهنّ عن طريق الخطأ، ولم ينتبه أحد إلى ذلك بسبب الفوضى. لكن بمجرد أن أُغلقت الأقفاص، تبيّن أنها لن تُفتح مجدّدًا. في بعض الأحيان، كانت النّساء يذكرنَ أنّ الحرّاس لن يستطيعوا الإفراج عنّا، حتّى وإن رغبوا في ذلك، لأنّ المفاتيح ضاعت، فظننتهنّ يقلنَ ذلك على سبيل الدعابة، والآن لم يعد هناك جدوى من التحقّق من ذلك الأمر.

بدت أليس، وهي المرأة التي طلبت مني الابتعاد واللعب بعيدًا، محرجة، فنظرت إليَّ بحزن. ربمّا أشفقت عليَّ، خصوصًا أنها كانت معترضة على إصرار النّساء على إجباري على البوح بسرّي.

عكست هذه اللحظة ما حصل في داخلي: لم يكن ذلك كسرًا للعُرف فحسب، بل أيضًا بداية لفهم جديد لعالمي المتقلّب. كنت قادرة على ملاحظة الضعف في مواقف الأخريات، وتيقّنت من أنني لم أعد بحاجة للإذعان للسلطة التي سحقتنا جميعًا.

شيئًا فشيئًا، بدأتُ أدرك أنّ كلّ واحدة منا تحمل في داخلها قصّة يجب أن تُروى، وأننا نستطيع مواجهة هواجسنا بجرأة، حتّى وإن كنّا أسيرات. لم يعد الصمت خيارًا فحسب؛ بل أصبح تعبيرًا عن القوة التي يمكن أن نتحلى بها كلّما واجهنا تحدّيات.

«أنتِ محقّة أيتها المسكينة، فأنتِ وحيدة تمامًا». بدتْ متعاطفة،

وهذا ما أشعرني بقليل من الهدوء. في معظم الأحيان لم تعاملني النّساء بلطف، ربمّا لأنهنّ كنّ يشعرنَ بالغيرة لأنّني على قيد الحياة في الوقت الذي لا يعرفن فيه شيئًا عن مصير بناتهنّ. ربمّا يفسّر سلوكُهنّ الكارثة المروّعة التي حلّت بنا، لذا لم تهتمّ أي واحدة منهنّ بي، ولم تتكبّد حتّى عناء مواساتي. وأغلب الظّنّ أنّ ذلك لم يكن ممكنًا. لم تكن والدتي معنا، ولم نعرف ما الذي حدث للأخريات، وهذا ما جعلنا نفترض أنّ مَن لسنَ في القفص هنّ ميتات.

استرجعتُ ذكرياتي عن تلك الفترة، وما علق في مخيّلتي وقتها أنني رأيتهنّ يتمايلن وينحنّ ويبكين خوفًا ويرتجفن رعبًا. لم تنظر أيّ واحدة منهنّ إليّ، وكنت أكرههنّ لأنهنّ لم يتصرّفن معي بإنصاف، ثمّ أدركت لاحقًا أنّ الكره والغضب كانا سلاحي الوحيد في مواجهة الرعب.

ابتعدتُ عن أليس، وجلستُ مرة أخرى جلستي السّابقة، لكنني هذه المرّة أيضًا لم أستطع استعادة تسلسل أفكاري. شعرت بالملل، وشرعت أراقبهنّ لأنّه لم يكن هناك ما يصرف انتباهي. في ذلك اليوم، قدّم لنا الحرّاس الكراث ولحم الضأن المفروم خشنًا. في أثناء تنظيف الخضار، تجادلت النّساء بخصوص الطريقة التي سيطبخن وفقها. لم أكن أعير الطعام الذي آكله كثيرًا من الاهتمام، إلّا عندما أبقى جائعة بعد أن يفرغ صحني، وهو أمر نادر، لأنّ شهيتي كانت ضعيفة.

يُخيّل إلى من يستمع لجدالاتهن أنهن يستطعن الاختيار بين وصفات عدّة وتشكيلة واسعة ومتنّوعة من التتبيلات. لكن في الواقع لم يزودنا الحرّاس سوى بثلاثة قدور وماء. لذا، كان سلق الطعام هو طريقة الطبخ الوحيدة المتاحة. وكنا نقسّم ما نطبخه لنتناوله على وجبتين، فنتناول الخضار على الغداء، ونتناول المرق النّاتج عن السلق بصفته حساء على

العشاء. ونادرًا ما كان الحرّاس يقدّمون لنا كيلوغرامات من البطاطا أو المعكرونة. من خلال ما تقدم نفهم أنه لم يكن هناك مجال للابتكار في ظل محدودية الخيارات.

ربمّا لم يكن الهدف من هذه الجدالات الطبخ بحدّ ذاته، بقدر ما كان الهدف منها إيجاد مساحة للتواصل وتبادل الأفكار. وأذكر أنني سمعتهن مئات المرّات - ولكنني لم أعر الأمر أهمية - وهن يقلن إنّ طعم المرق يختلف بحسب ما يوضع أوّلًا؛ الخضار أو اللحم. وأنه إذا طُبخت المكونات كلّ على حدة فإن مذاقها سيختلف، وأن استعمال قليل من الماء أثناء السلق سيجعل المرق أدسم وألذّ.

إنها المرّة الأولى التي أولي فيها اهتمامًا لأحاديثهن عن الطبخ، فأدهشتني قلة المواضيع التي يتحدثن بشأنها، كما أدهشني تكرارهن للمواضيع نفسها بطرق مختلفة ليحافظن على شغفهنّ بالمحادثة، ولا يعترفن بأنهنّ استنفدن المواضيع الجديدة منذ فترة طويلة.

بطريقة ما، أدركت أنّ البشر بحاجة إلى التّحدّث والتّواصل، وإلّا سيفقدون إنسانيتهم، وهذا ما تبيّن لي في السّنوات القليلة الماضية. بدأت أشعر شيئًا فشيئًا بالشّفقة على هؤلاء النّساء اللّواتي صممن على مواصلة الحياة، متظاهرات بأنهنّ نشيطات وبأنهنّ يتّخذنَ قرارات في سجنهنّ الأبدِي، الذي كنّ ينتظرن فيه الموت بسلام ليتحرّرنَ، خصوصًا أنه يستحيل عليهن الانتحار أو أن تقتل إحداهن الأخرى، لأنه يحظّر عليهن التلامس، وبالتالي كان يستحيل عليهن حتّى أن يبعدن جثة أيّ امرأة إن ماتت.

وجدت نفسي فجأة مضطرة للتفكير في وضعنا، فحتّى تلك اللحظة، لم أكن قد فكّرت فيه، لأنني ظننت أنه الوضع الطبيعيّ. فلا أحد يفكّر في ما يظن أنه طبيعي. فمن الطبيعي أن نشعر بالنّعاس ليلًا، ومن الطبيعي

أن نشعر بالجوع حين نستيقظ، وبالتالي لا داعي للتفكير في مثل هذه الأمور.

كنت أعرف، كما تعرف الأخريات، أن الانتحار ممنوع علينا. فقد سمعت أنه في بداية فترة الأسر سعى عدد من النّساء اليائسات إلى الانتحار مستخدمات حبلًا أو سكينًا، ظنًّا منهنّ أن الحرّاس لا يراقبونهن على الدوام، لكن تبيّن لهنّ أن ظنونهنّ لم تكن في محلها، حين سمعنَ أصوات السياط.

كان الحرّاس ممتازين في التصويب، وهذا ما أتاح لهم الوصول إلى أهدافهم من بعيد، فقطعوا، بواسطة السياط التي يحملونها، الأحزمة التي خطّطت النّساء لاستخدامها كحبال، وسحبوا السكاكين المدبّبة من الأيدي التي تحملها. فبدا جليًا، أنهم مكلفون بالحفاظ علينا أحياء، وهذا ما حمل النّساء على التفكير في الغاية من ذلك، وقادهنّ إلى الاعتقاد بأن هناك مؤامرات تُحاك في الخفاء، فتخيّلنَ سيناريوهات كثيرة، لكنّ أيًّا منها لم يحصل.

كنّا نتلقّى الطعام بكميات تقينا الجوع، وهذا ما أفقد السّمينات منا أوزانهنّ، لكنني في الوقت نفسه لا أستطيع القول إننا عانينا من نقص في الطعام. أما الطبخ فكان يحصل في قدور ضخمة، وكان يفترض بنا أن نعيد السكاكين، غير الحادة، التي نستخدمها في تقشير الخضار بعد استعمالها.

في بعض الأحيان، كان الحرّاس يجلبون لنا قطعًا من القماش لنصنع منها ملابس بطرق بدائية، ولأنه لم يكن لدينا مقصات كنّا نلجأ إلى تمزيق القماش بحذر. قبل قليل، ذكرت أنه لم يحصل أي شيء مما تخيّلته النّساء، لكن ما ذكرته ليس دقيقًا تمامًا، لأن الحماسة كان تدبّ فينا مع وصول الأقمشة، وهذا يمكن وصفه بتغيير كبير في سياق

حياتنا الرتيبة. لكنّ الأقمشة لم تكن تصل بكميات وفيرة وفي أوقات منتظمة، فكانت ملابسنا تبلى. لذا، حاولت النّساء الاستفادة منها ومن الخيوط المتوافرة بأفضل طريقة ممكنة. وأنا أذكر الآن، إن أسعفتني الذاكرة، أننا في أحيان كثيرة، لم نستعمل كل الأقمشة، لأننا عانينا من نقص في الخيوط، إلى أن حلّ يوم، اقترحت فيه دوروثي أن نستخدم الشعر بدلًا من الخيوط، وذلك عندما تذكّرتْ أنّ الشعر كان يُستخدم قديمًا في التطريز. كانت آنا ولورا تملكان أطول الشعور بين النّساء. في البدء لم تكن نتائج الخياطة بواسطة الشعر مُبشرة، لأن الشعر لم يكن متينًا بما يكفي وكان ينقطع بسهولة، إلى أن اقترحت إحدى النّساء جدل شعرات عدّة معًا، فتحسّنت النّتيجة قليلًا، لكنّ القطب لم تصمد طويلًا، فلم نعتبر الأمر مشكلة، لأن الشعر كان متوافرًا على الدوام، وكنّا نعيد خياطة القطب التي تتفكّك.

لقد اشتكت النّساء على الدوام، بأن الحرّاس لم يزوّدوهنّ بفوط صحية أو مناديل ورقية. ولا أذكر أنني استخدمت أيًّا منهما، فقد كنتُ أستعمل الماء الذي لا ينقطع عن القفص، وأتدبّر أمري بشكل جيد. خصوصًا، وأنني لم أختبر الدورة الشهرية والطمث الذي يرافقها، وبالتالي لم أكن مضطرة مثل الأخريات لجمع قطع القماش واستخدامها بدلًا من الفوط الصحيّة ثمّ غسلها بالماء، لأن الحرّاس لم يزودونا سوى بقليل من الصابون الأسود السائل الذي آثرنا تخصيصه للاستحمام.

من النّاحية الصحية، كان يُفترض بغياب النّشاط البدني أن يوهن أجسادنا ويضعفها، لكننا لم نستكن إلى الخمول، بل كنا نقوم يوميًا بتمارين رياضية مع أنها تقلق راحتنا وتشعرنا بالملل، لكنّ قوة إرادتنا ومعرفتنا بأهميتها لصحة أجسادنا ساعدتنا على تحمّلها. ولا أذكر أن المرض أصاب النّساء إلا في ما ندر، وفي هذه الحالات كان الحرّاس

يزوّدون المرأة المريضة بميزان لقياس الحرارة، وبأدوية خافضة للحرارة إن كانت تعاني من الحمّى.

لا شك في أنّ هناك جهةً أو شخصًا يتحمّل تكاليف تأمين الطعام والكهرباء والتدفئة، ولكن لم نكن نعرف سبب أسرنا واحتجازنا.

وأنا أفكّر في سبب احتجازنا، تبيّن لي أن النّساء وقبل احتجازهنّ كنّ منهمكات بتفاصيل الحياة من زواج وانجاب وعمل وحبّ، وأن هذه التفاصيل كانت تعني لهنّ الكثير. لذا، تبيّن لي فجأة أنّ الأسرار التي كنت أبحث عن معرفتها، والتي تخلّيت عن فكرة مشاركتها، كانت تافهة مقارنة بما يعرفه الحرّاس عن سبب احتجازنا هنا، وسبب الإبقاء على حياتنا.

في النّهاية، استجمعت شجاعتي، وتوجّهت نحو أنثيا، وهي المرأة التي أظهرت أقلّ قدر من العدائية تجاهي، فابتسمت لي وسألتني: «هل جئتِ لتبوحي لي بسرّك؟».

عبستُ عندما سمعت سؤالها، وقلت غاضبة: «أنتِ أذكى من أن تطرحي عليّ مثل هذا السؤال. انظري إلى الأخريات، وسيتّضح لك أنهنّ يتظاهرن بامتلاك السيطرة على حياتهنّ، وأنهنّ يتّخذنَ قرارات مهمة عندما يتجادلن في طريقة طبخ الخضار التي تُحضر لنا، ولكن السؤال الجوهري هو: ما الذي نفعله هنا؟».

بدت أنثيا حذرة، وسألتني: «ما الذي ترمين إليه بسؤالك هذا؟».

«فكّرن في الأمر، أنتنّ تخدعنَ أنفسكنّ، ويظنّنّ أنكنّ تعرفنَ الكثير، وتسعين لإقناع أنفسكنّ بتفوّقكنّ عندما تقارن أنفسكنّ بي، أنا التي لا أعرف شيئًا. لكنّ هناك أمرًا أهمّ يجمع بين كلّ المحتجزات، وهو أننا نجهل السبب الكامن وراء احتجازنا، والغرض من الحراسة المشدّدة التي

نخضع لها. أنتنّ تخشينَ التفكير في الأمر».

«أنتِ دائمًا تتحدّثين عنا كمجموعة».

«حسنًا، لنتحدّث عنكِ. أخبريني بما تفكرين فيه، هذا إن كنتِ تفكرين في أيّ شيء».

في قفص الاحتجاز كان الاعتداء الجسديّ ممنوعًا، أما النّقاش الهادئ فكان مسموحًا به.

«برأيك هل هناك جدوى من الحديث إن لم يكن سيؤدي إلى شيء؟».

«ها أنتِ تعودين لارتكاب الخطأ نفسه! الحديث هو أداة تُعبّر عن وجودنا. إنهنّ يعرفن ذلك. لذا، لا يكففن في التحدث عن أمور تافهة».

«لكن هل سيفيدنا الحديث في معرفة سبب احتجازنا هنا؟ أنتِ لا تعرفين أكثر مما أعرف».

«هذا صحيح، لكن على الأقل من خلال الحديث، سأتعرّف على أفكارك وسأشاركك أفكاري، وربما يؤدّي ذلك إلى ظهور أفكار جديدة، وبهذا نستعيد إنسانيتنا ونتخطّى فكرة كوننا مجرّد آلات».

أبعدت أنثيا قطعة القماش التي كانت تخيطها بالشعر المجدول، ووضعت يديها على ركبتيها، وسألتني باهتمام: «هل تفكّرين في مصيرنا عندما تجلسين وحدك وتغمضين عينيْك؟».

«أنا أفعل ما يحلو لي، فلا تلجئي إلى اللّف والدوران لتجعليني أُخبرك عن سرّي. فأنا لست بهذا القدر من الغباء الذي يتيح لك خداعي بسهولة».

ضحكتْ وقالتْ: «لو لم تكوني محتجزة هنا، كنتِ ستستطيعين استغلال ذكائكِ، وسيكون مستقبلكِ باهرًا».

«لم يعد لدينا مستقبل، كلّ ما يمكننا فعله هو التخفيف عن أنفسنا من خلال الكلام».

«أنت تسخرين من الحديث بشأن الخضار، ومع ذلك فإنّ ما تقترحينه يعتبر عديم الجدوى بالقدر نفسه».

ضحكتُ. كان من الممتع التحدّث إلى شخص ذكيّ مثلي.

«إن الموضوع الذي أقترح الحديث بشأنه أكثر أهمية. هل تعرفين لماذا نحن محتجزات هنا؟».

«لا».

«هل تعرفين أين هنّ الأخريات؟».

«إن كان هناك سبب لاحتجازنا، فنحن لا نعرفه. ولأننا لا نزال على قيد الحياة، فيجدر بنا أن نفكّر في أنّ هناك أخريات، في مكان ما، على قيد الحياة، وهذا أمر جيد. لكننا لا نملك دليلًا، وليس لدينا أدنى فكرة عن الجهة التي تحتجزنا. في البداية، احتجزوا كلّ البالغات، ويبدو أنّكِ احتُجزتِ عن طريق الخطأ. لا أستطيع تحديد مرحلة البداية بشكل دقيق، لأنّها فترة تسودها الضبابية في أذهان الجميع، لكن بعد تلك الفترة، وبعد أن فكّرنا لوقت طويل، صار الوضع أكثر وضوحًا. كانوا يستطيعون قتلك، ولكنهم لم يفعلوا، وكانوا يستطيعون نقلك إلى قفص آخر، إن كان هناك أقفاص أخرى. لكنّهم افترضوا أنّك عندما تنتقلين، ستخبرين الأخريات من أين جئت وماذا رأيت، ونحن واثقات من أنهم لا يريدون أن يعرف مَن في الأقفاص الأخرى أيّ شيء عنّا. في النّهاية،

استنتجنا أنهم أبقوك هنا، لأن كلّ ما سيفعلونه سيطرح مزيدًا من الأسئلة، والإجابة عن تلك الأسئلة تستدعي التفكير، والتفكير يقود إلى المعرفة. لكنّ عدم إقدامهم على أمر ما سيقودنا إلى الأمر الوحيد الذي أرادونا أن نعرفه، وهو أنه يجب ألّا نعرف شيئًا».

لم يسبق لأيّ واحدة من النّساء أن تحدّثت إليّ مطوّلًا مثل أنثيا. شعرت أنها نقلت إليّ كلّ ما تعرفه، وأحسست بدوار خفيف، لكنّ الأمر كان ممتعًا نوعًا ما، وذكّرني بالإثارة العاطفيّة، فوعدت نفسي بأنني سأرى إن كنت أستطيع أن أضيفه إلى إحدى قصصي.

«هل يمكنكِ أن تخبريني بأي شيء آخر؟».

«لا شيء».

تنهدتْ وعاودت الخياطة، ثمّ قالت: «لن نعرف الحقيقة، وسنموت واحدة تلو الأخرى».

في تلك اللحظة، وجدت نفسي أمام حقيقة مؤلمة. كأنّ الكلمات التي خرجت من فمها رشّت الملح في جروح مخفية في نفوسنا، لأنّها عبّرت عن البؤس والعجز اللّذين تعيشهما كلّ قاطنات القفص، وبذلك تلاشى كلّ أمل في داخلنا، وبرز سؤال الوجود أمام معادلة مفرّغة من الأجوبة. حين نظرتُ إلى دوروثي والنّساء الأخريات، رأيت في عيونهنّ انعكاسًا لهذا الشعور.

بعد قليل، أردفت أنثيا: «لن نعرف الحقيقة، وسنموت واحدة تلو الأخرى مع تقدّمنا في العمر. ستموت دوروثي أولًا، فهي تبدو وكأنها تجاوزت السبعين، وقلبها عليل. أما أنا فلا أظنّ أنّني بلغت الأربعين. نحن لا نستطيع معرفة الوقت من دون فصول، ولكن إذا فكّرنا وفق المنطق، فيفترض بكِ أن تكوني آخر من تموت».

حدّقت إليّ لفترة طويلة من دون أن تقول كلمة واحدة، وبما أنني عملت مؤخّرًا على تنشيط خيالي، خمّنت ما الذي تُفكّر فيه: في يوم من الأيام، سأكون بمفردي في هذه الغرفة الرمادية الكبيرة. في الصّباح، سيسلّمني حارس طعامي، الذي سأطبخه على الموقد الكهربائيّ، وأتناول الطعام، وأنام، وأموت بمفردي من دون أن أفهم الحقيقة التي جعلتهم يحتجزوننا. كنتُ خائفة جدًا.

«ألا يمكننا القيام بشيء؟».

«لقد فكّرنا جميعنا في وضع حدّ لحياتنا، لكنّ الحرّاس يتدخّلون بسرعة؛ حتّى الانتحار ممنوع هنا. ذات مرة حاولت إحدانا، وما عدتُ أذكر من كانت، أن تشنق نفسها من خلال صناعة حبل بواسطة قطعة قماش، لكن ما إن بدأت بربطه بالقضبان حتّى وصل إليها الحرّاس ومنعوها. كذلك حاولت ماري أن تتوقف عن تناول الطعام حتّى تموت جوعًا فتدخل الحرّاس بسياطهم وأجبروها على تناول الطعام وبالتالي عجزت عن وضع حدّ لحياتها. حتّى السكاكين التي يزوّدوننا بها لا تصلح لشيء، سوى لتقشير الجزر، وهم لا يسمحون لنا بشحذها. منذ فترة طويلة، أقنعتْ أليس، وهي الأكثر يأسًا، إحدى النّساء بخنقها في الليل بعد أن تخفت الأنوار، ظنًا منها أنّ الحرّاس لا يراقبوننا بدقة، وأنّ سكوننا يخدعهم ويجعلهم يهملون المراقبة، لكن تبيّن أننا كنّا مخطئات، فقد أدركوا ما يحصل بأسرع مما توقعنا، وضربوا بسياطهم».

«ولكنهم لا يستخدمون السياط لجلدِنا؟».

«في السابق، كانوا يجلدوننا، ولم تكن الجروح النّاتجة عن الجلد تتعافى بسرعة، لكنهم توقفوا فجأة عن القيام بذلك، ولا نعرف لتوقفهم

هذا سببًا. لكنني أؤكد لكِ أنّ التمرّد لا يؤدّي إلى نتيجة. لذلك، لا يسعنا سوى انتظار الموت بهدوء».

عاودت الخياطة، وكانت تخيط الأجزاء الأقلّ تضررًا من فستانها لتصنع شيئًا ما. والآن، حين أُمعن التفكير في الأمر، يتبيّن لي أن فساتيننا كانت أطول من اللازم، فالحرارة في الملجأ مرتفعة، وبالتالي كنا نستطيع العيش من دونها، ولا أظن أنهم زودونا بها لنستر أنفسنا ولا نشعر بالخجل خصوصًا أنهم وضعوا مرحاضين في وسط القفص لتستعملهما أربعون امرأة، وبالتالي كان هناك امرأة دائمًا تجلس على المرحاض، وتلبي نداء الطبيعة على الملأ. تساءلت: إن لم يكن الهدف من الملابس ستر أجسامنا حتى لا نشعر بالخجل، فما الهدف منها؟

وأنا أراقب أنثيا فكّرت في أنني سأبقى إلى الآخر، فمن الأفضل أن أتعلّم الخياطة، ولكنني عدلت عن الفكرة؛ فإذا تركت لي النّساء اللواتي يمتنَ ملابسهنّ، فستكفيني تلك الملابس المستعملة حتّى أموت أنا الأخرى.

أشعرتني هذه الفكرة بالحزن، لأنّني لطالما كرهت رفيقاتي في القفص لعدم اهتمامهنّ بي، وقادني كرهي لهنّ إلى عدم التفكير فيهنّ. ففي الوقت الذي وصلنا فيه إلى هنا، سيطر عليهنّ الخوف والحزن، ولم يهتممنَ بأمري. كنت طفلة خائفة محاطة بنساء باكيات، ولكنهنّ عندما يمتنَ سيتخلّينَ عني مرة أخرى. جاش الغضب في داخلي، لأنهنّ فكّرنَ فيّ لفترة طويلة، وكنّ يبعدنني دائمًا عن مناقشاتهنّ. وكانت أنثيا أوّل من تكبّدت عناء التّحدّث إليّ، فوجدتُ حديثنا مثيرًا للاهتمام، وصمّمت على الاستماع إليها، والتغاضي عن أنها تجاهلتني لسنوات كما فعلت الأخريات.

«لماذا تتحدّثين إليّ اليوم؟».

«أنتِ من جئتِ لتتحدّثي إليّ. أنتِ دائمًا بمفردك، كأنك لا تريدين الانضمام إلينا».

كنت على وشك إخبارها أنهنّ دائمًا ما يتوقّفن عن الحديث عندما أقترب، لكنني شعرت فجأة بتعب شديد. ربمّا لأنني لم أتعوّد مثل هذه المحادثات الطويلة.

رأتني أتهيّأ للتثاؤب.

«ستخفت الأنوار قريبًا، دعينا نستعدّ للنوم، ونتابع حديثنا غدًا».

بالطبع لم أستطع النّوم، فأنا أريد متابعة القصة التي قاطعتها آنا بيل عند النّقطة التي كنت فيها في الزنزانة أنتظر ظهور الحارس الشاب، لكنني لم أستطع التركيز. في العادة، عندما أخبر نفسي قصة، لا أكترث لما يجري حولي، أما في تلك الأمسية، فقد عكّرت همسات النّساء، وحركاتهنّ أثناء ترتيب الفُرُش، والصمت التدريجي بعد ذلك، صفو أفكاري. ففكّرت في السّنوات التي مضت، وفي حزن النّساء على الأزواج الذين فقدوهنّ، وعلى أولادهنّ الذين لن يرينهم مرة أخرى. كلّ ما تقدّم جعلني أفكّر في والدتي. لا بدّ من أنه كانت لي والدة، صحيح أنني لا أتذكرها، ولكنني متأكدة من أنه كان هناك امرأة في حياتي كنتُ أناديها أمي، ولكنّ هذه الأم ليست في هذا القفص. هل ماتت؟ استرجعت قليلًا مما سمعته عن المأساة علّني أجد الإجابة، ولكنّ كلّ ما سمعته يتلخّص في كلمات لا تجيب عن شيء: صرخات، فوضى، ليل، ورعب متفاقم.

ظنّت النّساء أنه أُغمي عليهنّ أكثر من مرة، وقلنَ إنّ كلّ شيء حدث بسرعة كبيرة. وبعد أن فكّرت في ما قلنه، خلصت إلى أنّه لا يُفسّر شيئًا.

هناك أربعون امرأة في هذا القفص لا يجمع بينهنّ أيّ شيء، لكن في السابق كان لكلّ واحدة منهنّ عائلة، وآباء، وإخوة، وأخوات، وأصدقاء:

لم يجمع بين هؤلاء الغريبات إلّا عمل في غاية الدقة؛ وهذا ما أكّدته لي أنثيا: «فكّري كم كان شاقًّا على السجّانين التأكّد من أنّ المسجونات لا يعرفنَ بعضهنّ بعضًا، فقد اختارونا من مناطق مختلفة، وربما من دول مختلفة، وحرصوا على أن لا تجمع الصدفة بين صديقتين أو ابنتي عمّ».

«لماذا؟ ما غايتهم من ذلك؟».

«كدنا نجنّ ونحن نفكّر مرارًا في إجابة عن هذا السؤال. كنتِ صغيرة جدًا، وعاجزة عن الفهم، وكنتِ تتقوقعين على الأرض، ولم تردّي عندما كنا نتحدّث إليك».

«لا أذكر ذلك».

«لم نتوقّع نجاتك، لم يكن مسموح لنا أن نتلامس، لم تستطع أيّ واحدة منّا حملك واحتضانك لمحاولة مواساتك، أو حتّى إجبارك على تناول الطعام. اعتقدنا أنك ستموتين، ولكنّك كنت تتحركين ببطء شديد وتقتربين من الطعام في أوقات الوجبات وتتناولين بضع لقمات. وحين صرتِ أكبر وقادرة على فهم الكلام، حرصنا على عدم التحدث عن ذكرياتنا القليلة عما حصل أمامك، حتّى لا ينعكس ذلك سلبًا عليكِ. وهكذا، يومًا بعد يوم، ما عدنا نتحدث عنها، لأننا أدركنا أن لا جدوى من طرح المواضيع نفسها والأسئلة نفسها بالطريقة نفسها طيلة سنوات».

«لذلك تحوّلتن للحديث عن الطبخ والخضار. ألم تنتظرنَ شيئًا؟».

قالت بحدّة: «كنّا ننتظر الموت. لم يكن في وسعنا الانتحار، لذا، لم يكن أمامنا سوى الانتظار».

لم يسبق لي أن فكّرت في هذا الأمر بمثل هذا الوضوح. في قصصي، كانت الأحداث تتوالى. أما في حياتي، فلم يكن يحدث شيء. أدركت أن أنثيا محقّة، وأنّ أسرار الحب لا تعنيني. ربمّا تظاهرنَ أنهنّ يعرفنَ أكثر مني عنه،

إلا أنهنّ لا يعرفن أكثر عن جوهر الوجود. فلطالما كنت أشكّ في أنّ الرجال يخضعون للحبّ مثل النّساء، ولأنني لن أعرف رجالًا أبدًا، فما أهمية هذا الاختلاف؟ مع أنني، ولفترات طويلة، حاولت أن أقنع نفسي أنه، وفي مكان ما خارج هذا القفص، كانت الإناث، وخصوصًا الفتيات، سيكرّسنَ حياتهنّ منتظرات ليلة زفافهنّ، هذه الفكرة أشعرتني بمرارة.

انقضى اليوم بسرعة، وأرجعت ذلك إلى أنني أكثرت من التفكير. عندما خفتت الأنوار، توجّب علينا أن نفرش أربعين فراشًا لننام عليها، ولأن المساحة كانت صغيرة، كنا نضع فُرُشنا متلاصقة. وكلّ صباح، كنا نرصّها بعضها فوق بعض بحيث تتيح لنا مجالًا للتحرّك في القفص والجلوس عليها. تمدّدت وحاولت أن ألتقط طرف خيط قصتي، لكنني لم أستطع، لأن فراغًا كبيرًا سكن ذهني بقدر الحزن الذي سكن صدري.

قالت جارتي فرنسيس، وهي إحدى أصغر النّساء سنًا، وواحدة من اللواتي لم يسخرن مني مطلقًا: «أغمضي عينيك، ولا تدعيهم يرون أنك مستيقظة».

«لماذا؟».

«ألا تعرفين؟ من يسأل سؤالك يظنّك وصلتِ للتو من كوكب آخر. لن يسمحوا لنا بالبقاء مستيقظات. وإذا رأوا عينيك مفتوحتين، فسيستدعونك ويجبرونك على تناول حبّة دواء».

«سيستدعونني؟ لكنهم لا يتحدثون إلينا!».

«صحيح، سيستدعونك بواسطة السوط».

فهمت ما تعنيه، فأنا لا أذكر أن امرأة عصت الأوامر إلا في ما ندر، وفي تلك المرات النّادرة كان السوط هو وسيلة الإخضاع. لم تكن الرحمة تعرف طريقها إلى قلوب الحرّاس، وكانوا يحسنون استخدام سياطهم بدقة

متناهية، فهم يجيدون التلويح بها لأكثر من عشرين مرة على مقربة من أذن إحدى النّساء وهذا التلويح يكون كافيًا في العادة لثنيها عما تنوي القيام به. وإن لم يكن كافيًا كانت تتدخل إحدى نساء القفص وتحملها على الاستسلام.

عندما حاولت أليس، التي أُجبرت على تناول الطعام، شنق نفسها عن طريق لفّ فستانها ليصبح شبيهًا بالحبل، رضخت بعد أن استسلمت كلوديا للسوط، وهرعت لفكّ العقدة، ووضعت حدًّا للتهديد بالموت، الذي كنا نُهدَّد به ولم نحصل عليه.

حين أغمضت عيني سألتني فرنسيس: «ما الذي يحول بينك وبين النّوم؟».

«كيف يمكنك النّوم؟».

لم تجب، وشعرتُ بالعَبرات تخنقها.

«هل يُسمح لنا بالبكاء من دون أن نُجبر على تناول حبوب الدواء؟».

«لا، من الأفضل أن تتحكّمي في نفسك».

وقتها أقدمت على أمر لا أحبذه، فقد رغبت أن تحتضنني وتطوقني بذراعيها، فألقيت بنفسي بين ذراعيها من دون تفكير.

همستْ مرتعبة: «توقفي!».

كانت حاجتي إلى الاحتضان كبيرة، وكأنني أتمسّك بآخر خيط من الإنسانيّة حاولتُ الحفاظ عليه وسط هذا الكابوس المتواصل، فاختلطت مشاعر الرغبة في القرب بالخوف من الرفض، وخفتُ أن أتحسّر على كلّ ما أفتقده، وسط المأساة التي نحن فيها. شعرت بالإحراج، لكنّ أذني كانت تتوق إلى سماع همسات لحن الهدوء التي أهدتني إيّاها، والصمت الذي يعكس حالة الشفقة المتبادلة.

تحرّك السوط فوق رأسي، فتراجعتُ مرعوبة. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يلوِّح بها بالسوط نحوي، وما زلت أرتجف حتّى يومي هذا حين أسترجع هذه الذكرى، فانكمشت لاهثة وكأنني كنت أركض، وأركض؟!

لكن لم يسبق لي أن ركضت.

كنتُ أعرف أنّه لا يُسمح لنا بالتلامس، وتقبّلت الأمر باعتباره من المُسلّمات. وبعد المشاعر التي غمرتني اليوم، فكّرت في عبارات كانت جزءًا من مفرداتي، مثل أن تحتضن راحة يدٍ يدًا أخرى، وأن يمشي شخصان وذراع أحدهما تُطوّق كتف الآخر. أدركت أن هذه العبارات تصف حركات لم يسبق لي أن أدّيتها، فشعرت بتشوش المفاهيم في داخلي. وفي مقابل كلّ الحركات التي لم أؤدّها وكل المشاعر التي لم أكن قد اختبرتها، كنت أعرف جيدًا الجدران الرمادية المتقشّرة، والقضبان التي يفصل بينها خمسة عشر سنتيمترًا، والحرّاس الذين يمشون ذهابًا وإيابًا بانتظام حول الملجأ.

سألتُ: «ما هو المسموح لنا القيام به؟».

رفعت فرنسيس كتفيها: «نحن لا نعرف إلّا ما نحن ممنوعات منه».

نظرتْ بعيدًا، وكان في ذلك إشارة إلى أنّ المحادثة قد انتهت.

كانت أنثيا أوّل امرأة تتحدث إليّ لفترة طويلة، وبات سؤال: «هل ستتكرّر هذه المحادثة؟». يدور في ذهني ويلحّ عليّ.

ركّزت على إبقاء عينيّ مغمضتين، علّ ذلك يساعدني في أن أغفو، وللمرة الأولى، أدركتُ أنني أعيش في قلب اليأس؛ ذلك اليأس الذي ظننت أنني عزلت نفسي عنه بدافع المرارة، فإذا بي أدرك فجأة أن عزلتي عنه كانت بدافع الحذر. ودفعني الخوف من الدخول في دوامة هذا اليأس إلى الانكماش على نفسي. لقد عاشت نساء القفص من دون أن يعرفن معنى وجودهنّ، وسواء أكان ذلك خطأهنّ أم لا، فقد جنت عليهنّ الظروف،

وفقدن عقولهنّ لأنه لم يكن في حياتهّن أيّ شيء ذي معنى.

لم أعرف كم عمري، ولأنني لم أختبر الدورة الشهريّة أو ينهد صدري، اعتقد عدد من النّساء أنني لم أبلغ الثالثة عشرة أو أنني بالكاد بلغت الرابعة عشرة. لكن أنثيا، التي كانت أكثر ذكاءً من الأخريات، قدّرت أنني في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة.

«لا نعرف كم من الوقت مضى علينا هنا، لكن، إذا أخذنا طولكِ بعين الاعتبار، فيمكن التّأكيد على أنكِ لم تعودي طفلة، كما أنّ الحيض توقّف لدى كثيرات منّا منذ وقت طويل. وكما تقول النّساء، ليس لتوقف الحيض علاقة بالعمر؛ فما يذبل أجسادنا ليس العمر بل اليأس».

«حسنًا، هذا يعني أنّ الرجال كانوا مهمّين جدًا في حياتكنّ؟».

أومأت برأسها: «وجود الرجل في حياة المرأة يعني الحياة يا صغيرتي. فمن دون الرجال، لا أولاد ولا مستقبل. ومن دون مستقبل وأولاد سنكون الحلقة الأخيرة التي تقطع الترابط بين الماضي والمستقبل».

«هذا يعني أنّ الحياة كانت عبارة عن بهجة كبيرة؟».

«لن تعرفي معنى أن يكون لك مستقبل، إلّا عندما تحرمين منه مثلنا. انظري إلى الطريقة التي نعيش وفقها: فنحن يجب أن نتصرّف وكأنّ الصباح قد حلّ حين ينيرون المصابيح، ويقدمون لنا الطعام. كما يجب أن نتصرف وكأن المساء قد حلّ حين يطفئون المصابيح. نحن لسنا متأكّدات حتّى من أنهم يجعلوننا نعيش وفق جدول زمني يتكوّن من أربع وعشرين ساعة. لا نستطيع معرفة الوقت، وبتصرفاتهم هذه جعلونا عاجزات تمامًا».

كانت تنظر إلى الأمام وتتكلم بحزم، فشعرت برغبة في البكاء، لكنني تقوقعت على نفسي بدلًا من ذلك.

«ما الأمر؟».

فجأة، انقلب الحزم في صوتها لطفًا أشعرني بالقشعريرة، وكأنّ لمسة ناعمة اجتاحت جسدي، فخفتُ من المتعة التي شعرت بها، وتقوقعت على نفسي أكثر.

أجبتها: «ما عدت أريد التحدث عن الأمر، فقد كنتُ أكثر سعادة حين لم أكن أعرف شيئًا، وحين كنت أكرهكن لأنكن تخفين عني الأسرار، والآن عرفت أنني لا أهتم بأسراركن ولا أجد فيها ما يفيدني».

«ما الفكرة التي كانت لديكِ عن أسرارنا؟».

لم أعد أشعر بالإذلال بسبب جهلي، لأنني أدركت أنّ ما عرفته كان مؤلمًا، وأنني عاجزة عن تحمّله.

«كيف تمارسن الحب؟ ومع من؟ وماذا يحدث؟ وأمور من هذا القبيل. كنتُ أسمعهن وهنّ يروين، بعضهنّ لبعض قصصًا من الماضي، ويدلين بتلميحات ويضحكن، ويصمتن عندما أقترب. ظننت أنه أمر مهم، لكن تبيّن لي أنّ لا شيء فيه مهمّ».

قالت بنبرة رقيقة وحزينة: «أيتها الصغيرة المسكينة». وهذا ما أبكاني.

لطالما اعتبرتُ البكاء علامةً على الضعف، لكنني في تلك اللحظة اعتبرته قارب نجاة، ركبته لأعبر بحر مخاوفي وأُعبّر عن الآلام التي تجيش في صدري. لكنني استغربت لأن البكاء لم يكن ممنوعًا، فالحرّاس لا يلوّحون بسياطهم نحونا حين نبكي إن كان بكاؤنا هادئًا، ربمّا لأنهم يرونه ضعفًا ولم يروه قارب نجاة كما صرت أراه.

كان الهرج والمرج يرافقان وصول الطعام. حين نتناول أولى الوجبات بعد استيقاظنا كنَّا نُقدّر أننا في الصباح، وحين نشعر بالجوع مرة أخرى

كنّا نعتقد أن المساء حلّ، أما حين تخفت الأنوار بعد ذلك فكنّا نجبر أنفسنا على الاعتقاد بأن الليل قد حلّ. ذات مرة، قالت إحدى النّساء إنّ النّاس قبل الكارثة كانوا يتناولون الطعام ثلاث مرات في اليوم: في الصباح، وعند الظهر، وفي المساء. لكننا هنا في القفص لا نشعر بالجوع سوى مرتين خلال فترة استيقاظنا، ولم نكن متأكّدات إن كنا نعيش وفق التوقيت نفسه الذي كنّا نتبعه قبل الأسر والاحتجاز. لقد جرى الحديث بشأن هذا الأمر أكثر من مرة، لكن النّقاشات دارت في حلقة مفرغة، ولم تؤدِّ إلى أي نتائج ملموسة، بل قادت إلى أسئلة مثل: هل كنّا بحاجة إلى طعام أقلّ لأننا لا نعمل؟ هل إن أجسادنا لا تحتاج عمليًا إلّا إلى وجبتين في اليوم؟ أم إن أجسادنا نسيت العادات القديمة فصرنا قادرات على النّوم كلّ ثماني أو عشر ساعات؟ لكن، هل كنا نعرف حقًّا كم ننام؟ فربمّا جعل الحرّاس ساعات يقظتنا ثماني وساعات نومنا أربعًا. خصوصًا وأنهم يبدّلون ورديّاتهم في فترات لا تتوافق مع روتين حياتنا؛ أحيانًا في منتصف النّهار، وأحيانًا في الليل، وفي أحيان كثيرة مرتين في النّهار.

من خلال مراقبتي الحرّاس، ومقارنة المعلومات المتواضعة التي جمعتها، توقّعت أن تنتهي وردية الحارس الشاب، أزرق العينين في وقت محدد، ولكنني رأيته فجأة يسير ذهابًا وإيابًا أمام القفص، وتذكّرتُ أنني لم أفكّر فيه أو أخبر نفسي أيّ قصص عنه منذ أيام. لا يزال يبدو لي في غاية الوسامة، ولا تزال ملامحه تعكس شيئًا من الحنان وقدرًا من التعاطف، على عكس القسوة التي اتسمت بها سائر الحرّاس.

تأملت تعابير وجهه. وتساءلت إن كان يعرف أننا نتحدّث عنه؟ هل يشعر بقلوبنا التي تخفق في حضوره، حتّى لو من خلف القضبان؟ وتساءلت إن كان يعرف أننا نتألم لأنّ حياتنا سُلبت منا. إنّ تلك اللحظات التي أتأمّله فيها تجعلني أشعر بشيء من الغموض الذي يكتنف شخصيته.

في خضمّ تلك الأفكار، شعرت بأنني يجب أن أستغل، أنا والنّساء في القفص، أيّ تفصيل يظهر، وأيّ بارقة أمل في حياتنا. ففي الوقت الذي اختبر فيه القفص صلابة أرواحنا، وتجاربنا كنساء، وكذلك أفكارنا. صار هذا الشاب وعلى الرّغم من كونه حارسًا لنا، نقطة ارتكاز لقلبي وأفكاري. في ذلك العالم المغلق، أدركت أنه حتّى في أقسى الظروف، تبقى هناك لحظات تُشعل الرغبة والأمل.

أحضرت صحن طعامي وجلست بجانب أنثيا، وسألتُها: «أظنّ أنّ كلمتيْ وسيم وجميل كانتا مستخدمتين في الحقبة السابقة للأسر؟».

حدّقت إليّ للحظة قبل أن تشيح بنظرها.

قالت: «قبل الأسر كنتُ جميلة، أما الآن فلا أعرف. أحتاج إلى مرآة لأتأكّد، ولكن يفترض أن يكون الشيب قد غزا شعري بعد هذه الفترة الطويلة التي مضت علينا هنا. وإن كنت أذكر جيدًا، فأنا كنت في الثامنة والعشرين وقت دخولنا هذا القفص، ولكن الشيب لا يشير دائمًا إلى التقدم في العمر، ففي عائلتي تشيب النّساء باكرًا».

كانت تتحدث همسًا، وكأنها تخاطب نفسها، ولكنني كنت واثقة من أنها تتحدث إليّ.

«لم أكن جميلة فحسب، بل كنتُ أنيقة أيضًا ومواكبة للموضة، ففي فصول الصيف، كنتُ أرتدي فساتين ذات كشاكش. لكن بعد الأسر كنتُ أول من ارتدت فستانًا خيّطته بنفسي، وأظنه كان أنيقًا، لكن للأسف لم يعد يظهر منه ما يُظهر أناقته، فقد بليت خيوطه، ومن كثرة ما رُقع ما عدت أذكر الشكل الذي كان عليه».

«هل كان للجمال علاقة بالرجال؟».

كنت شبه متأكدة من الإجابة، لكنني سمعت النّساء أحيانًا يقُلْن شيئًا آخر.

«نعم، لكن هناك نساء لا يوافقنني الرأي ويدعين أن الجمال هو أمر شخصي، وأنهن كنّ يتجمّلنَ ويتزيّن لأنفسهنّ، لكنني لا أفهم وجهة نظرهنّ، فالمرء سيحب نفسه سواء أكان جميلًا أم لا. فبرأيك ألن أحب نفسي إن كنت عرجاء أو مشوّهة. بالطبع، كنتُ سأحبها. لكن لن يحبني الآخرون، وخصوصًا الرجال، ما لم أكن جميلة».

«هل أنا جميلة؟».

ابتسمت، وأخفت ابتسامتها ألمًا.

أجابت: «نعم، ربما أنت واحدة من أجمل الفتيات، فملامحك لا تظهر عبوسًا ولا تشي بالغضب. وإن لم تكوني في هذا القفص، وأتيح للشبان رؤيتك كنتِ ستحظين باهتمامهم وستأسر ابتسامتك قلوبهم».

قلت بسرعة: «أحيانًا أحظى باهتمام الحارس الشاب».

التفكير في هذا الحارس لم يبارح ذهني، وربمّا هذا ما أحدث تحولًا قلب حياتي، وجعلني أسأل نفسي: هل أنا أفكّر فيه لأنني أشعر بالوحدة، أو لأن وهمًا خادعًا سيطر عليّ؟

تأملتُ أنثيا وهي تجلس قبالتي، فقد أوحتْ ملامحها بالحزن، وأخبرت تجاعيد وجهها قصصًا لم تُروَ من قبل. ثمّ عادت بي الذاكرة إلى تلك اللحظات التي رأيته فيها، وهو يجول أمام القفص.

سألتني أنثيا: «هل تفكّرين فيه كثيرًا؟».

«إنه... مختلف». كنت أحاول ترتيب أفكاري، وتمنّيت الإفصاح عن مشاعري الحقيقيّة، لكنني خشيت أن تُفهم بطريقة خاطئة. كيف يمكنني أن أخبرها عن هذا الشعور الغامض الذي بدأ ينمو في داخلي؟

سألتني أنثيا بفضول: «ما الذي يجعلك تشعرين بأنه مختلف؟».

خرجت الكلمات من فمي على الرغم مني: «إنه يبدو أكثر إنسانيّة، هناك أمر ما يميّزه عن البقية».

قالت أنثيا وكأنها تحاول أن توضح لي الأمر: «إن عمله حارسًا لا يجرده من صفة الإنسان».

سألتُ ببراءة: «هل تعتقدين أنه يشعر بأنني أفكّر فيه؟».

«قد يشعر، لكنّ إقصاءنا عن العالم يحول دوننا ودون أيّ فرصة لفهم ما يحدث من حولنا. علينا أن نتفاعل مع محيطنا بطريقة أو بأخرى، لنستطيع استيعاب مشاعرنا».

في تلك اللحظة، خامرني شعور جديد؛ شعور بالحاجة إلى الاستمرار في الحديث، وفتح قنوات تواصل.

عندما كنتُ أخبر المستمعة التي تسكن داخلي قصصًا، كنت أجلس دائمًا بالقرب من القضبان، أمام الجهة التي يتحرّك فيها، وكان يمشي ببطء، يراقب بعناية ما يجري في القفص كما يفعل دائمًا. وكانت عيناي تتبعانه وأنا أجلس منتصبة وكذلك حين أسند رأسي إلى ركبتيّ. كان يرى كلّ شيء، ولم يكن بوسعه تجاهل حقيقة أن فتاة كانت تراقب حركاته وسكناته.

كنت أرتدي فستانًا عديم الشكل، وأجمع شعري الطويل دائمًا خلف رقبتي، وبخلاف هذين الأمرين لم أكن أعرف شيئًا عن مظهري، ولولا أنثيا لكنت حتّى الآن أجهل لون عيني. لم أعرف ماذا يعني أنني من أجمل الفتيات، ولم يخطر في بالي أنّ هناك نساء قد لا يكنّ جميلات.

كانت شعور نساء القفص في غاية النّظافة واللمعان، وبمعظمها طويلة لأنّ لا مقصّات لدينا لقصها، أما أظفارهنّ فكانت تتكسّر عندما

تطول لعدم وجود ما نقلّمها به. وكما هو الحال عادةً، كانت تمرّ بنا لحظات من الفرح نضحك فيها ونستمتع، لكن، وفي واقع الأمر، كانت ضغوط الحياة اليومية تترك أثرها فينا.

لا أعرف أيّ تعبير كان يظهر على وجهي حين كنت أنظر إلى الحارس: كنت مشغولة بالمراقبة، ومع أنه لم ينظر إليّ، إلّا أنني كنت متأكّدة من أنّه يعرف أنني أراقبه باستمرار، وأنّ مراقبتي تشعره بالحرج بطريقة ما.

«أودّ أن أجعله يُعجب بي».

سألتني أنثيا مستغربة: «لماذا؟».

«لا أعرف، ربمّا لأُسيطر عليه. إنهم يحملون سياطًا، وبواسطتها يجعلوننا ننفّذ ما يريدون، ويُحظّرون علينا كلّ شيء. أريده أن يشعر بالقلق والخوف، وبأن الأمور تخرج عن سيطرته. فهو وسائر الحرّاس منعونا من كلّ شيء تقريبًا عدا الجلوس والتحديق».

«وربما سيمنعوننا من هذين الأمرين أيضًا- فهم يمنعون ما يريدون».

«حين يمنعونني من التحديق فهذا يعني أنهم يعترفون بي، وحين يتدخلون في حياتي لأنني أقدم على أفعال ممنوعة فإن تدخلهم يستهدف الفعل، أما إذا تدخّلوا حين أقدم على أفعال مباحة فإنهم بتدخلهم يستهدفون شخصي لأنني جذبت انتباههم». مكتبة سُر مَن قرأ

كانت أنثيا الأكثر فطنة بين النّساء، ولأنني فكّرت في شيء لم تُفكّر فيه، فهذا يعني أنني بمستوى ذكائها. في اللحظة التي توصلت فيها إلى هذا الاستنتاج اجتاحتني مشاعر الفخر، فابتسمتُ وقلتُ لها: «إنهم يقدّمون الطعام لأربعين امرأة، ويؤمّنون لنا الدّفء ويعطوننا قماشًا لصنع الملابس. إنهم يعاملوننا وكأنّنا أنثى واحدة ولا يميزون بين واحدة وأخرى حتّى أنهم لا يعرفون أسماءنا. لكنني أرفض الطريقة التي ينظرون

فيها إلينا، فأنا لست جزءًا من القطيع، ولست بقرة بين أبقار أخرى. لذا، سأحدّق إلى هذا الحارس حتّى ألفت انتباهه».

أيقظ هذا التحدي الجديد شيئًا في داخلي، فشرعت أُفكّر في طريقة مبتكرة أُعبّر فيها عن نفسي، طريقة أستغلّ بها هذه المشاعر فأحوّل زحام العزلة إلى طاقة إيجابية. منحتني الرغبة بالتغلّب على الخوف والعجز مزيدًا من القوة، وساعدتني على إعادة تجميع شتات أفكاري لأبحث عن وسائل أستطيع من خلالها الارتقاء لأتجاوز الوضع الراهن.

يبدو أن جرأتي أعجبت أنثيا، فبعد سنوات من العيش في الأسر محرومات من كلّ شيء وعاجزات حتّى عن وضع حدّ لحياتنا، نتصرف بإذعان يتجاوز إذعان الأغنام، فنلبي نداء الطبيعة أمام سائر المحتجزات وأعين الحرّاس المراقبة. ها هي ترى فيّ،كما أرى في نفسي، رغبة لا تقاوم بلفت انتباه أحد الحرّاس وإحراجه، وعرفت أنني سأنجح في مسعاي.

«لا تخبري أحدًا بما سأقدم عليه، فأنا لا أريد أن تعرف النّساء بما خطّطت له، لأنهنّ إذا عرفنَ فسيتشجّعن، ولن يستطعن ضبط أنفسهنّ وسيقمن بالأمر نفسه، وبذلك سيفقد ما أخطّط له قوّته وتأثيره».

«ألن يكون الوضع أكثر إحراجًا إذا شرعنا جميعًا بالتحديق إليهم؟».

«لن يشعروا بالإحراج على الإطلاق». منحتني هذه الفكرة ثقة مدهشة، وكنت متأكدة تمامًا من جدواها. وحتّى الآن، لا أعرف من أين استقيتها، لكن كلّ ما أعرفه هو أنها أشعرتني بمتعة كبيرة.

أضفت: «إنّ الأفعال التي يُقدم عليها الجميع لا تلفت الانتباه، لأنها تتحوّل إلى تقليد أو عادة لا يعرف أحد متى بدأت، فتُكرَّر بشكل تلقائيّ. إذا أردت أن ألفتَ انتباهه وأحرجه، فيجب أن أكون الوحيدة التي تحدّق».

نظرتُ مليًّا إلى أنثيا. لم أكن متأكّدة من أنها فهمتني، لكنني شعرت

بدافع قويّ يتملّكني، وأخبرني شيء ما في داخلي أنّه ما من شيء سيثنيني عن المضي قدمًا. وأردفت «لا أعرف إلى أين سيقودني تصرّفي هذا، لكنّ الأمر يبدو مثيرًا للغاية. فعلى الرّغم من وضعنا المزري، استطعت ابتداع أمر غير متوقع».

أومأتْ برأسها برفق: «تابعي وسأعاود التفكير في الأمر».

عدتُ إلى وضعيّتي السابقة، جلست متربعّة الساقين، ورمقت الحارس الشاب.

هل كان وسيمًا حقًا أم أنني وجدته وسيمًا لأنّه كان الذكر الوحيد الشاب؟ صحيح أنني لم أكن أعرف سوى القليل ولا أذكر ما يكفي عن العالم، لكنني أعرف علامات التقدّم في السنّ. رأيت شعور النّساء تتحوّل إلى اللون الرماديّ ثمّ الأبيض، ولاحظتُ جفاف جلودهنّ وتجعّدها وظهور البقع عليها، والصلع يزحف على رؤوس الأكبر سنًا بينهنّ، وضعف العضلات وترهّل الأجساد وانحناء الظهور. لكن هذا الحارس الشاب كان صافي البشرة، منتصب القامة، رشيق الخطوات مثلي، مع فارق بسيط بيننا، وهو أنني لم أختبر رشاقة الخطوات إلّا في المساحة الضيّقة المتاحة لي.

استغربت سبب وجود هذا الشاب في هذا الملجأ وتساءلتُ عن الغاية منه: هل انخفض عدد الرجال المسنّين فلم يعودوا كافين للحراسة في الملاجئ؟ هل ماتوا جميعًا؟ ربّما هناك كثير من الشبان ولم يجدوا لهم عملًا فأرسلوهم للحراسة في الملاجئ؟ ربمّا ليس لديهم ما يكفي من المهامّ ليكلّفوهم بها. لذا، أرسلوهم للتجوال ذهابًا وإيابًا في المسافة التي تفصل بين القضبان والجدار؟ حدّثتُ نفسي بأنه في السّابق لم يكن هذا الحارس هنا، وبدأ قلبي ينبض بسرعة، حين فكّرت في الوقت الذي مضى عليه هنا، فأنا لا أظن أنني لاحظت وجوده حين أتى. لم أحسب

الأيام، ولم أعرف متى بدأتُ باختلاق القصص لأنه لم يكن لديّ نقطة مرجعية اعتبرها نقطة انطلاق. إذا لم يمضِ على وجوده وقت طويل، فهذا يعني، إن لم أكن مخطئة، أنّ هناك شيئًا تغيّر خلف الجدران للمرّة الأولى منذ سنوات، شيئًا في ذلك العالم الخارجي الذي لا نعرف شيئًا عنه سوى أنهم يجلبون منه الطعام والقماش لنا، ويبدو أن أثر هذا التغيّر قد انعكس علينا.

كان الحرّاس دائمًا متقدّمين في السنّ لدرجة أننا لم نلحظ أنهم تقدموا في السّنّ أكثر. كنتُ فتاة صغيرة عندما وصلت، والآن أصبحت امرأة عذراء إلى الأبد، لكنني بالغة مع أن بلوغي أُجهض في مهده، وحال دون اكتمال نهود صدري، لكن هذا لا ينفي أنني كبرت وتقدّمت أنا الأخرى في السّنّ، وسجّل تقومي الجسدي مرور الوقت.

لاحظت أنّ التغيرات التي ظهرت على أجساد النّساء لم تختلف عن تلك التي ظهرت على أجساد الحرّاس المُسنّين، فقد تحوّلت شعورهنّ إلى اللون الأبيض ببطء شديد، بالكاد كان ملحوظًا. كان جسدي بمنزلة الساعة بالنّسبة إلى النّساء اللواتي راقبن نموّي وكلّما كبرتُ عرفنَ أن الوقت ينقضي وقدّرن الوقت الباقي لهنّ؛ ربمّا لهذا السبب لم يعجبن بي.

لم يكن الحارس الشاب طفلًا مثلي حين وصل، بل كان طويل القامة، كثيف الشعر، ولم يرسم الزمن خطوطًا على وجهه. وحين لاحظت أولى علامات الذبول عليه، تحسّست جلدي لأرى إن كنتُ أذبل مثله، فهو سيكون ساعة لي كما كنت ساعة للنساء، وسنكبر وفق السرعة نفسها، ومن خلال مراقبتي له سأُقدّر الوقت المتبقّي لي.

حسنًا، لقد حصل تغيير في مكان ما، وانعكس علينا، ويمكننا وصف أثره على النّحو التالي: اختفى أحد الحرّاس المسنّين، ربمّا لأنه مات، وحلّ

محلّه هذا الشاب. هل غاب عن أذهان آسرينا أنّنا سنلاحظ ذلك؟ أم أنهم خفّفوا من حذرهم الشديد وسمحوا بتمرير هذه المعلومة البسيطة لنا.

لم أُبعد عينيّ عن الحرّاس الذين كانوا يسيرون ذهابًا وإيابًا في الممر. كانوا يأتون دائمًا في مجموعات من ثلاثة، ويسيرون بصمت جنبًا إلى جنب من دون أن تلتقي أعينهم، لكنني كنتُ أشعر دائمًا بأنهم يراقبون بعضهم بعضًا عن كثب، كما يراقبوننا تمامًا. لا بدّ من أنّ مَنْ أرسلهم يخشى أن يعصوا أوامره، أو أن يتحدّثوا إلينا، فأدركت فجأة المغزى من إرسالهم في مجموعات من ثلاثة. بهذه الطريقة يستحيل عليهم أن يتواطأوا، ولا تُتاح لهم فرصة إجراء أيّ محادثات خاصة في ما بينهم، لأن هذه المحادثات قد تتسبّب في نقل المعلومات لنا، لذلك كان عليهم أن يعيشوا دور السجّانين المشتبه بهم طوال الوقت.

كان هناك رجلان وحارس ثالث شاب يمشون معًا.

خلال السنوات الأولى، حاولتِ النّساء التحدّث إلى الحرّاس، وطرح الأسئلة عليهم أو استدرار شفقتهم، لكنّ محاولاتهنّ لم تجدِ نفعًا في كسر لامبالاة الحرّاس وقسوة وجوههم، فاستسلمن في النّهاية وتصرّفن وكأنهنّ لا يرينَ الحرّاس، وأقنعن أنفسهنّ أنهم غير موجودين، وأنهم لا يختلفون عن قضبان القفص التي تعوّدوا رؤيتها في هذا المكان. في النّهاية، قررن ألّا يرقن ماء وجوههنّ مرة أخرى، ولم يعدن يشتكين للحرّاس أو يعتبرن صمتهم إهانة لهنّ، وهذا ما جعل لجلوسي ساكنة ونظرتي قوة أكبر.

توقفتُ عن سردِ القصص لنفسي؛ وقرّرت أن أختلق قصة جديدة وأنا أُحدّق إلى الحارس؛ كنتُ بحاجة إلى الصبر الذي لم يكن بحوزتي سواه. الآن، لم أعد أعرف عدد فترات الاستيقاظ التي قضيتُها وأنا أمعن النّظر إليه. بالمناسبة، بعد أن فكرّتُ كثيرًا، خطر ببالي أنه يجب علينا ألا

ننسب أفعالنا إلى فترات النّهار والليل، بل يجب أن نتحدّث عن فترات اليقظة والنّوم، وتعزّزت فكرتي هذه عندما أدركت أننا لا نعيش وفق الدورة الطبيعية ذات الأربع وعشرين ساعة، فحين تُخفت الأنوار لا يبدو التعب على أي امرأة، وسبق للنساء أن فسّرن سبب عدم تعبنا وعَزونَه إلى أننا لا نعمل. ربمّا كنّ محقّات، ولكنني لا أعرف ما هو العمل وكيف يكون. خطرت لي الفكرة وأنا أواظب على مراقبة الحارس الشاب، فلم يكن الحرّاس يأتون عندما نستيقظ، أو في أوقات الوجبات، أو عندما نخلد إلى الفراش أو عندما نتحرك، بل يأتون في فترات غير منتظمة.

كان الباب الرئيس يُفتح قليلًا، وكان الرجال الثلاثة الذين يجولون جيئة وذهابًا حول القفص يلتقون بالحرّاس القادمين. في بعض الأحيان كانوا يغادرون عندما تدخل المجموعة القادمة، وفي أحيان أخرى كان يُستبدَل حارس أو حارسان، فهل هناك أي ارتباط بين جدولهم الزمني وجدولنا؟ وكيف يمكنني أن أحسب مرور الوقت؟ لم تكن لديّ أي مؤشرات يمكنني الركون إليها سوى إيقاعات جسدي.

علّمتْني أنثيا أنّ القلب ينبض وفق إيقاع ثابتٍ، يتراوح بين سبعين إلى خمسٍ وسبعين نبضة في الدقيقة لدى الشخص السليم.

فبدأتُ العدّ.

لم أحظَ إلّا بقليل من التعليم. كنت أجمع العشرات في ذهني؛ أربعون، خمسون، ستون، سبعون، ثمانون، ولكنني أدركتُ بعد ذلك أنني لا أعرف جداول الضرب، وبالتالي لا أعرف كيف أجري القسمة. نبض قلبي، بين الوقت الذي أنيرت فيه المصابيح وبين الوقت الذي بَدّل فيه الحرّاس ورديتهم، عندما جاء الحارس الشاب، حوالى سبعة آلاف ومئتي مرة وهذا يساوي مئة دقيقة تقريبًا، ونبض في مرّة أخرى ثلاثة آلاف

ومئتين وعشرين نبضة، ونبض في مرّة ثالثة خمسة آلاف واثنتي عشرة نبضة، حين قارنت هذه الأرقام لم أجد أيّ قاسم مشترك بينها. كنتُ جيدة جدًّا عندما تعلّق الأمر بالتركيز والعدّ، لكنني لم أستطع توظيف تلك الأرقام التي أحصل عليها، والاستفادة منها.

سألتُ أنثيا: «هل تستطيعين تعليمي كيف أجري عملية قسمة؟».

«تريدين إجراء عمليات قسمة من دون ورقة وقلم؟».

وضّحَتْ لي: «نحن لسنا قاسيات القلب كما تعتقدين، فحين كنتِ صغيرة ناقشنا موضوع تعليمكِ، لكن كيف نعلّمك القراءة؟ وبأيّ وسائل؟ وإن تعلّمتِ القراءة فما الذي ستقرأينه؟ استطعنا تعليمكِ العدّ إلى حدّ ما، لكن بما يكفي لتجري حسابات ذهنية بسيطة، ولم نكن قادرات على تعليمك العمليات الحسابيّة، لأنه لم يكن بحوزتنا وسيلة تتيح لك قراءة رقم. علّمتك هيلين وإيزابيل جداول الضرب، لكنّك ربمّا نسيتها لأنكِ لم تستخدميها، عدا عن أنكِ رفضتِ تعلّمها عندما أدركتِ أنّ التعليم ليس لَعِبًا، وغضبتِ، فعجزنا عن إجبارك على التعلّم من خلال معاقبتكِ لأنّ الحرّاس يمنعوننا من معاقبة بعضنا بعضًا، ولم نستطع حملك على تعلّم أشياء اعتقدتِ أن لا معنى لها. في النّهاية لم نرَ فائدة من تعليمك ما هو حاصل ضرب ثمانية بثمانية. حسنًا، وإن حدث وعلّمناكِ، فما الفائدة التي ستجنينها من ذلك؟ أين ستستخدمين حاصل ضرب هذين الرقمين؟ وهل هناك أيّ معنى لتعليمكِ أي شيء؟».

كنتُ أعرف ما هي القراءة، لكن لم يسبق لي أن رأيتُ شيئًا مكتوبًا، وكنتُ أفهم فكرة أنّ الحروف تُجمع معًا لتشكّل كلمات، لأن النّساء كنّ يتحدّثنَ، بعضهن مع بعض، عن الشعراء والكتب.

«إذا حدثَ وخرجنا من هنا، سأكون فتاة غبية».

«إذا خَرجنا...».

حدّقت إليّ طويلًا، وشعرتُ أنّ هناك سلسلة من الصور التي أجهلها تمامًا تمرّ عبر ذهنها.

لا بدّ من أنني رأيتُ الشمس والأشجار والنّهار والليل ولكن ليس لديّ أيّ ذكرى عنها، ومع أنني أستطيع تخمين ما الذي تتخيّله نظرة أنثيا تلك، إلا أنني لا أستطيع أن أعرف تفاصيله.

قالت بعد فترة ليست قصيرة: «أخشى أن لا أملَ في حدوث ذلك أيتها المسكينة، ولكن ما أنا متأكّدة منه هو أنه إذا حدث وخرجنا، فستتاح لك الفرصة لانتقادنا بصفتنا معلّمات سيّئات للغاية، وإن كان خروجنا سببًا لتنتقدينا فسنكون سعيدات بالانتقاد».

نظرتُ إلى النّساء اللواتي حصلنَ لتوّهنّ على الخضار، وسمعتهن يتناقشن كالعادة بشأن طريقة جديدة لطبخ الملفوف والجزر، وهنّ لا يملكنَ سوى الماء والملح، فأدركتُ أنهنّ لم يكنّ حمقاوات، بل كنّ يكرّرنَ النّقاش لأنّ الفراغ يحكم حياتهنّ؛ فهنّ يستغللنَ أقلّ التفاصيل التي تدخل حياتهنّ ويحاولن تحويلها إلى أي شيء يطعم أرواحهنّ الجائعة.

«بالأمس نبض قلبي ثلاثة آلاف ومئتي مرة في الفترة الممتدة بين إنارة المصابيح ودخول الحارس الشاب، أي حين حصول عملية تبديل الورديات. أمّا اليوم فقد نبض خمسة آلاف واثنتي عشرة مرة. كيف يمكنني معرفة ما يساويه هذان الرقمان من وقت؟».

شهقت أنثيا.

«ماذا؟ هل عددتِ نبضات قلبك؟».

«ربما يساعدني عدّها في حساب الوقت».

مشى الحارس ببطء ذهابًا وإيابًا أمام القفص، وتخلَّفَ عنه الحارسان الآخران بعدّة خطوات، فلم يكن الحرّاس الثلاثة يسيرون جنبًا إلى جنب، يبتعد بعضهم عن بعض كثيرًا. لم تبارح عيناي النّظر إلى فريستي في الوقت الذي كنت أتحدّث فيه إلى أنثيا، بالمقابل لم ينظر الحارس إليّ أو حتّى يختلس نظرة.

«ما دمتِ قد عددتِ نبضات قلبك، فأقلّ ما يمكنني فعله هو حسابها.. لقد مرّ وقتٌ طويلٌ على المرة الأخيرة التي أجريت فيها عملية حسابية! ولكن هل تعرفين ما هو معدّل نبضات قلبكِ؟».

«سبق لك أن أخبرتني بالمعدّل الطبيعيّ».

«نعم هذا صحيح، لكنّ هذا المعدل يختلف بين شخص وآخر، وليس لديّ سبيل لمعرفة إن كان قلبك ينبض وفق المعدّل الطبيعيّ أم لا؟ ولا يمكنني قياس نبضكِ لأنه، كما تعرفين، يُمنع علينا أن تلمس إحدانا الأخرى».

«حسنًا لديّ فكرة، سأقول تِك في كلّ مرة ينبض فيها قلبي، وبهذه الطريقة يتاح لك مقارنة سرعة نبضات قلبي بسرعة نبضات قلبك، ومن خلال هذه الطريقة سيكون لدينا أساس ننطلق منه في عملية الحساب».

كان نبض قلبي أبطأ من نبض قلبها.

«أنتِ أصغر سنًا، ويفترض أن تكون نبضات قلبك قريبة من المعدّل الوسطيّ. لقد كان قلبي ينبض بسرعة سابقًا، كيف سنستطيع التأكد من ذلك؟».

«وبماذا يهمّ أن تكون وحدة القياس التي سنستخدمها دقيقة جدًا؟ المهم هو أن يكون لدينا وحدة لنستخدمها، دعينا نقل اثنتين وسبعين».

«كلا، ما دمنا سنستخدم رقمًا تقريبيًّا فسأستخدم رقم سبعين لأن

القسمة عليه أسهل. وحتّى مع هذا الرقم لستُ متأكدة من أنني سأنجز عمليّة القسمة بطريقة صحيحة».

صمتتْ وركّزتْ عينيها على نقطة محدّدة، وشرعت تتمتم. استمعتُ لها ولم أكفّ عن التحديق إلى الحارس.

«ثلاثة آلاف ومئتان وعشرون مقسومة على سبعين يساوي ستة وأربعين. على الأقلّ هذا ما حصلتُ عليه. أنا مندهشة من أنّ الحاصل رقم صحيح، سأقوم بالقسمة مرة ثانية».

حدّق أحد الحرّاس الأكبر سنًّا إليّ باهتمام لمدّة ثانيتين أو ثلاث.

«أجل النّتيجة صحيحة، ستة وأربعون، سأجرّب الآن الرقم خمسة آلاف واثني عشر».

كان لدى الحرّاس ما يكفي من الوقت ليكملوا جولتهم قبل أن تنتهي: «الحاصل هو واحد وسبعون فاصل ستة. لم يكن حاصل عملية القسمة هذه رقمًا صحيحًا».

«حسنًا، إنهم يبدّلون ورديّاتهم بعد ستّ وأربعين دقيقة من استيقاظنا، أو بعد اثنتين وسبعين دقيقة؟».

قالت بحماسة: «بعد ستّ وأربعين دقيقة، أو بعد ساعة وحوالى اثنتي عشرة دقيقة».

«يا له من أمر غريب! فما الرابط الذي قد يكون بين ست وأربعين دقيقة وبين ساعة واثنتي عشرة دقيقة؟».

شعرتْ بالحيرة والارتباك. ثمّ أردفت: «قبل أن نُحتجز هنا، كنا نعمل سبع ساعات أو ثماني في اليوم بحسب طبيعة العمل، وكنّا نبدأ عملنا كلّ يوم في الوقت نفسه. وكان هناك أشخاص يعملون وفق نظام الورديات لضمان استمرار العمل. لكن، لم يكن هناك اختلاف في الساعة يصل

لست وعشرين دقيقة بين اليوم والآخر، وهذا أمر مستغرب، فهل يعني شيئًا؟».

كانت تتحدّث عن أسلوب حياة لا أعرف عنه شيئًا، ولم يكن بوسعي سوى الاستماع لها.

«استمرّي في العدّ، احسبي الأوقات غدًا أيضًا».

غدًا؟ ولكن ما الذي يعنيه الغد وفق المفهوم القديم عن الوقت؟

عزّز الإنجاز البسيط الذي حققتُه من طموحي، وفكّرتُ في أنّ نبضات القلب ليست إيقاع الجسد الوحيد، وبدأت أولي جسدي اهتمامًا أكبر. كنتُ أعرف أنّ الدورة الشهريّة تحدث كلّ ثمانية وعشرين يومًا، وحزنت لأنني أفتقد لهذا الإيقاع، أو لأنني لم أختبره حتّى الآن، كما لاحظت اختلافًا في شهيّتي خلال فترات اليوم؛ ففي بعض الأحيان كنتُ أشعر بالجوع ينهشني عندما أستيقظ، وبأنّ وقتًا طويلًا يمرّ قبل أن تجهز الوجبة. لطالما افترضنا أنهم يقدّمون لنا الطعام في أوقات محدّدة، وتبيّن لي أنّ هذا الافتراض خاطئ؛ ففي بعض الأوقات كانت تفصل ثلاث ساعات بين وجبتين، وفي أوقات أخرى كان الفاصل يصل إلى خمس ساعات.

بعد أن احتسبت نبضات قلبي لعشر مرّات ثبت لي أنّ الحارس الشاب لا يأتي في أوقات منتظمة، ولن أذكر الأرقام التي حصلتُ عليها مع أنني أحفظها عن ظهر قلب لأنها كانت نقطة الانطلاق لأفكاري هذه.

وجدتْ أنثيا الأمر غريبًا جدًّا، وتساءلتْ إن كانت الأوقات التي يتبعونها عشوائية. لكنّ الحارس الشاب لم يبقَ يومًا لأكثر من ستّ ساعات تقريبًا. بالطبع وصلتُ إلى هذا الاستنتاج بعد أن احتسبت هذا الوقت وفق إيقاع نبضات قلبي. في كلّ مرّة يأتي فيها كان يبدو نضرًا ومرتاحًا وهذا ما تبيّن لي من كثرة مراقبتي له، وأنا التي صرت أعرفه أكثر مما

أعرف نفسي، ولكن في نهاية ورديته كان يظهر عليه قليل من التّعب. لا أعرف كيف استنتجت أنه متعب، مع أنّ خطواته ظلّت رشيقة، وبقي رأسه شامخًا. ربمّا استنتجت ذلك لأن وجهه يبدو شاحبًا قليلًا، أو لأن نظرته تصير أقلّ حدّة، أو حركته أبطأ.

لم تكن وردية عمل الحارس الشاب تتزامن مع وجباتنا أو مع الأوقات التي نخلد فيها إلى النّوم أو نستيقظ، وهذا ما وجدته مستغربًا.

قلتُ لأنثيا: «إنّ ما استنتجته يثبت أنّ وقتهم يختلف عن وقتنا، ولكنني عدتُ وشكّكتُ في ما استنتجته عندما سألتها: «ما دمنا نعيش وإياهم في العالم نفسه، ألا يفترض أن نعيش وفق الإيقاع نفسه؟». لكنني سرعان ما أدركت أنها لم تعِ السبب الذي جعلني أصل إلى استنتاجي هذا، فشرحت: «عندما لا يظهر أحد الحرّاس لسبع ساعات أو ثماني فهذا يعني أنه خلد إلى النّوم، ولكن هذه الفترات لا تتوافق ولا تتناسب مع فترات نومنا. لذا، لا يفترض بي أن أكفّ عن مراقبتهم لأعرف الأوقات التي يغيبون فيها وإيقاعها».

بدت أنثيا محتارة، ثمّ عبست وأومأت برأسها.

«ماذا يمكن أن يعني وجود نمطين مختلفين من الوقت؟».

«أنتِ الشخص الذي يعرف العالم الحقيقيّ. لذا، يفترض بكِ أن تُخبريني». لكنها بيّنت لي أنّ الأمر يستعصي عليها، وأنها لا تستطيع إيجاد رابط، وشعرتْ أنّ الوقت قد حان لاستشارة سائر النّساء. فقالت: «ما عدت أستطيع التفكير أكثر، يبدو لي الأمر غاية في التعقيد، وأنا لا أستطيع الإلمام بالحقائق كافّة. يجب أن نُطلع الأخريات على ما توصّلنا إليه، ونستأنس بآرائهنّ».

كان من الطبيعي ألّا أُسرّ بما أوصتْ به، ولكنني أدركتُ أنّ أنثيا

اتّخذت قرارها، فلم أجد أمامي خيارًا سوى الموافقة. أطلعتْ كلّ واحدة أو اثنتين منهنّ، من خلال محادثات قصيرة جانبية، على ما توصّلنا إليه، وذلك بعد أن مهّدت لهنّ بأنها على وشك أن تفصح عن أمر جلل، وطلبت من الأخريات ألّا يُظهرنَ على وجوههنّ أيّ تعابير تنمّ عن دهشة حتّى لا يلفتنَ انتباه الحرّاس.

كانت الفكرة بحدّ ذاتها سببًا لإحداث ضجة، وسرعان ما برعت أنثيا في تهدئتهنّ. فخلال الفترة الماضية تعلّمن كيفية التحكّم في أنفسهنّ، وبحكم رتابة الأيام لم يعد لديهنّ شيء يتحكّمن فيه أساسًا، لذلك أشعرهنّ ذلك الإعلان بشيء من الهياج والإثارة. في البدء، شكّلت فكرة وجود شيء جديد، بحدّ ذاتها، صدمة بغضّ النّظر عن ماهية هذا الشيء الجديد، ثمّ قالت النّساء: «هذا غير ممكن!». وبدا عليهنّ التردّد. ولكنّ أنثيا استطاعت في نهاية المطاف أن تُهدّئهنّ بطرائق مختلفة؛ فقالت لهنّ على سبيل المثال: «حافظن على هدوئكنّ، وواصلنَ ما كنتنّ تفعلنَه من تقشير الخضار وخياطة وتضفير الشعر، لأنّ الأمور التي تستطعنَ القيام بها بشكل آليّ تكون سرعتكنّ في إنجازها ثابتة، ولكي تفعلنَ ذلك عليكنّ أن تكنّ على معرفة بسرعتكنّ وتحركاتكنّ».

بالطبع، أشعر هذا الكلام النّساء بالفضول، ولكنهنّ لم يعبّرن عن فضولهنّ بشكل ظاهر لأنهن يعرفن أنّهن مراقبات، ويدركن أهمية الحفاظ على تعابير وجوههنّ محايدة، فلم يجدن صعوبة في اتبّاع ما أوصتهنّ به أنثيا. وذاع بينهنّ خبر مفاده أنّ هناك ما يحدث، وهو ليس بالأمر العاديّ، وأنّ على من تعرف شيئًا أن تتكتّم. وكما هو متوقّع، لم تكن جميع النّساء هادئات، فأثرن قليلًا من الضجة بسب الإثارة إلّا أنها لم تثر انتباه الحرّاس، فبدت النّساء سعيدات وهنّ يتبادلن الحديث، مع أنه، من الناحية العملية،لم يحدث أيّ تغيير.

أدركت النّساء فجأة أنهنّ نسينَ كثيرًا ممّا كنّ يعرفنَه، ولأنهنّ بمعظمهنّ لم يكنّ متعلّمات، وعشنَ حياة هادئة تقتصر على الاهتمام بمنازلهنّ وأطفالهنّ والتسوّق، فلا أظنّ أنهنّ نسينَ الكثير عمليًا. في الحقيقة، لقد عجزنَ عن التفكير لأنّ عقولهنّ كانت مُخدّرة.

لكثرة ما ركّزتُ على عمليّة العدّ، صرتُ أَعدّ بشكل تلقائيّ؛ وأنا أتحدّث، وأنا أتناول الطعام. وسرعان ما صرت أَعُدّ وأنا نائمة أيضًا، فقد كنتُ أستيقظُ وفي ذهني رقمٌ معيّنٌ مع أنّ الأمر بدا غير ممكن في البداية.

في البدء، شكّكتُ في ما أقوم به، ثمّ تيقّنت من الأمر، وذلك بعد أن شرحت لي أنثيا أنني ربمّا طوّرتُ موهبة، وشرحتْ لي أنها لم تكن موهبة استثنائية، بل موهبة كشفت عن نفسها لتلبي حاجة مستجدّة.

لقد كنتُ أَعُدّ نبضات قلبي نبضة تلو النّبضة، وسرعان ما وجدتُ نفسي أمام أرقام كبيرة تستعصي على طريقة الحساب الذهنيّ التي أتقنها، فبمعدّل نبض يبلغ اثنين وسبعين نبضة في الدقيقة شكّلت كلّ أربعة آلاف ومئتي نبضة ساعة، وبحلول نهاية اليوم أكون قد عددت أكثر من خمسين ألف نبضة. لذا، صار التعامل مع هذه الأرقام صعبًا. وهذا ما جعلني أعثر على طريقة أخرى، فصرت أعد كلّ اثنتين وسبعين نبضة وأحتفظ بها مباشرة في ذهني على أنها دقيقة، ثمّ أنتقل مباشرة لأعُدّ اثنتين وسبعين نبضة أخرى، وأحتفظ بها في ذهني على أنها دقيقة أخرى وهكذا. ولكنني خفت أن أخلط بين عدّ النّبضات وعدّ الدقائق التي أحتفظ بها ذهنيًا، لذلك استعنتُ في البداية بامرأة لتؤدّي دور الآلة الحاسبة، فكلّما أقول رقمًا تضيفه إلى رقم سابق تحفظه. لم يمرّ وقت طويل حتّى لم أعد بحاجة إلى تلك المرأة عندما تبيّن لي أنني لم أرتكب أي خطأ وأنني أتعامل مع الأرقام بدقّة.

مع مواصلة العدّ لم أعد بحاجة إلى لفظ الرقم بصوتٍ عالٍ، فقد تطوّر شيء في داخلي جعلني أتنبّه تلقائيًا كلّ سبعين نبضة، ويمكن القول إنني أضحيت ساعة بشرية.

كانت أيامنا تتراوح بين خمس عشرة ساعة وثماني عشرة، وكانت هذه الأيام تختلف بطريقة عشوائية بين الحين والآخر. ففي بعض الأيام تمرّ ستّ ساعات بين إطفاء الأنوار، وهي الإشارة إلى بداية الليل، وبين الاستيقاظ مرّة أخرى. ووفق هذه الطريقة، ثبت لنا أنّنا كنا نعيش وفق توقيت مصطنع، فبرزت لدينا حاجة ورغبة في فهم سبب ذلك.

عرضت إيما فرضية غير منطقية لتفسير ذلك: «ربما نحن لا نعيش على كوكب الأرض، بل على كوكب آخر يدور حول نفسه كلّ ستّ عشرة ساعة ونصف الساعة».

تساءلتُ: «كيف وصلنا إلى هذا الكوكب؟ وكيف أُدخلنا إلى هذا الملجأ؟».

لم يكن لدى أيّ واحدة منا إجابة عن هذين السؤالين، وهذا ما أذهلني.

بناء على ما أخبرتني به أنثيا، عزوت افتقاري إلى الذكريات إلى حقيقة أنني كنتُ صغيرة جدًّا، وإلى حالة الصدمة التي عانت منها النّساء في البداية. ولكن لا يبدو أنّ الأخريات يعرفن أكثر مما أعرف. فاستنتجت أن الحياة كانت تسير بشكل طبيعيّ، وفجأة في منتصف إحدى الليالي علا الصراخ، واندلعت النّيران، وحصل تدافع وأمور أخرى لم أستطع، أنا التي عشت دائمًا في الملجأ، أن أتخيّلها.

قالت إيما: «ربما أُعطينا نوعًا من العقاقير الغريبة التي تؤثر في عمل الدماغ، فتجعلنا نتوهّم هذه الذكريات».

لكنّ كلام إيما لم يُقنع أنثيا، وهذا ما حمل النّساء على تداول شائعات عن قصص ترتبط بغسيل الأدمغة، والهندسة الوراثية، والروبوتات المتطوّرة للغاية، والتي قد يُخطئ المرء في التّمييز بينها وبين البشر.

قالت دوروثي: «في الحقيقة، لا يبدو أنّ أيًّا منّا لديها ذكريات واضحة بما يكفي لتتيح لنا الربط بينها وتأكيد ما حصل، حتى إننا لا نعرف إن كان ما حصل حربًا أم لا، فلا تعدو ذكرياتي بمجملها عن كونها مجموعة صور غامضة بعيدة ومشوّشة: أنا أذكر ألسنة لهب وأناسًا يركضون في كلّ الاتجاهات، وأظنّ أنني كنت مقيّدة وخائفة، وأنّ الأحداث استمرّت لفترة طويلة جدًّا. وحده الخوف لا يزال حاضرًا، أما سائر الصور المتعلّقة بتلك الفترة فقد فارقت ذهني».

قالت آنا بيل: «أمّا أنا فلا أذكر الكثير، وكلّ ما أذكره هو أنّ حياتي كانت طبيعيّة، ثم مرّت لحظات من الذعر والخوف أخشى دائمًا من أن تتكرّر. بعد ذلك وجدت نفسي مستلقية هنا على فراش، ومنذ ذلك الحين والأمور تسير وفق روتين معيّن ولم يتغيّر شيء».

«لا أظنّ أنّ ما حدث كان حربًا، ففي الحرب نسمع أصوات صافرات الإنذار والغارات ودويّ انفجار قنابل».

«أجزم أنها لم تكن حربًا، على الأقلّ في المنطقة التي عشت فيها. بالطّبع كان يتعكّر صفو السلم، وكنّا نشهد اضطرابات في بعض الأحيان، ووفق ما أذكره من أقوال المثقفين فإنّنا لم نعش فترات طويلة من السلام».

«لقد غزتْنا دولتان».

«ربما غزتْنا كائنات أتتْ من المريخ!».

ضحكن كما لم أرهنّ يضحكن من قبل، وبدأتُ أفهم أنّ ضحكهنّ هذا

لم يكن من باب الغباء أو اليأس، بل مجرّد وسيلة للبقاء.

«لماذا نقلونا إلى كوكب آخر؟ ما الفائدة التي سيجنونها من ذلك؟».

قاطعتُها: «لا فائدة على الإطلاق. من الواضح أنّنا لا نزال على الأرض منذ خمسة عشر أو عشرين عامًا، أو ربمّا أقلّ من ذلك. يبدو أنه كان من المقرّر أن نُحبس مؤقتًا، ولكنّ ملفنا ضاع، فحرص المسؤولون على ألّا يكتشف أحد حقيقة ما حصل، فاستمرّوا في حراستنا وإبقائنا على قيد الحياة من دون أن يكون أحد مسؤولًا عنا. لذا، أعتقد أننا محتجزات بسبب خطأ إداريّ».

«ولكن لماذا يتألف اليوم من ستّ عشرة ساعة؟ إنّ شرحكِ لا يُفسّر سبب قصر ساعات اليوم!».

«أنا أستغرب أننا لا نستطيع العثور على أيّ نمط ثابت في روتين الحرّاس، فعلى الرغم من أنّ ذكرياتي عن الماضي مشوّشة، إلّا أنني متأكدة من أننا كنّا نعمل لساعات منتظمة، حتى إنّنا كنّا نسجّل وقت وصولنا إلى العمل».

قلتُ: «ذات مرّة، وهي مرّة وحيدة منذ أن بدأتُ العدّ، بقي ذلك الحارس الشاب لإحدى عشرة ساعة متواصلة يمشي ذهابًا وإيابًا حول القفص، وبدا في نهاية عمله منهكًا وشاحبًا، ولكنّه لم يشتكِ أبدًا، فأنا لم أرَه منزعجًا أو متأففًا».

صارت محادثاتنا مكرّرة، ولم يكن هناك جدوى من محاولات تذكّر السنوات الأولى من السجن، فمن الواضح أنّ النّساء خرجن ببطء من تشوّش وضباب داخليّ كبير ليجدن أنفسهنّ متعوّدات على الحياة الغريبة التي يعشنَها، ولم يكن هناك أيّ مؤشّرات على احتمال أن يتمرّدنَ. في الفترة التي سبقت الأسر كان لكلّ النّساء أزواج وأطفال وأحباء، ولكن

بسبب خوفهنّ الشديد من التفكير فيهم، ولأنّ الأمر مؤلمٌ للغاية، فقد نسينَ تقريبًا كلّ ما له علاقة بهم. ولكنهنّ لم يحاولنَ إسكاتي لأنّ هناك رعبًا دائمًا في داخلهنّ من أن يفقدنَ تاريخهنّ وهوياتهنّ الحقيقية. ويومًا بعد يوم تقبّلت أنثيا فكرة أنهنّ خُدّرنَ وقتها.

«انظرنَ إلينا.. وانظرنَ إلى الطريقة التي نعيش وفقها: لقد حُرمنا من كلّ ما يجعلنا بشرًا، ولكننا تكيّفنا مع الأمر من أجل البقاء. ربمّا ليس أمام البشر إلّا أن يتكيّفوا. لقد ابتكرنا قواعد جديدة واخترعنا نظامًا غير مكتوب ينظّم عملنا: تسكبُ أكبرنا الحساء من القدور، وأشرف أنا على الخياطة حين تكون الخياطة ممكنة، وتوفّق آنا بيل بين النّساء المتخاصمات، ولكننا لا نعرف الطريقة التي تقاسمنا العمل وفقها. لا بد أنّنا عشنا لفترة طويلة ونحن نحلم، وحين استيقظنا وجدنا أنفسنا متكيّفات مع الواقع».

برزت ذكرى وسط كلّ هذا التشوّش والارتباك: «من يذكر شيئًا عن اليوم الذي قرّرت فيه أليس أن تنتحر، وأوقفتْها كلوديا في اللحظة الأخيرة؟ لا يبدو أنّ أيّ واحدة منّا تذكر ما حدث».

مرّت أربعة أشهر منذ أن توقفنا عن القلق بشأن الروتين غير القابل للتفسير الذي فرضوه علينا، وصار قلبي يعمل وكأنه ساعة لجميع النّساء. ذات ليلة وحين أُطفئت الأنوار، قرّرنا اعتبار تلك الساعة ساعة الصفر، ومنذ ذلك الحين صرت أحسب اليوم على أساس أنه يتألّف من أربع وعشرين ساعة كما كان في الماضي، ولم يعد مُستغربًا أن تسألني إحدى النّساء وبشكل عفوي ونحن نتناول الخضار المسلوقة في منتصف النّهار عن الساعة، فأجيبها: «إنها الساعة الثانية بعد الظهر».

أعادت معرفة التوقيت إحياء روح التمرّد في عقولهنّ التي سيطر عليها الخمول منذ وقت طويل، فصار لدينا مفهوم للتوقيت يختلف عن

المفهوم الذي حاول سجّانونا أن يفرضوه علينا، وهذا ما أتاح لنا معرفة روعة الشعور بإنسانيتنا. لم يعد الوقت القاسم المشترك الوحيد مع الحرّاس، فقد أعطتنا دقات قلبي القوية والثابتة، والتي يغذّيها غضب الشباب، مجالنا الخاصّ، وأسّست لشعورنا بالحرية.

شيئًا فشيئًا، بدأت دعابات جديدة تظهر، فعندما تُفتح الفتحة للمرة الثانية، ونُسلّم كيلوغرامات عدة من المعكرونة، كانت إحدى النّساء تهتف دائمًا إن كانت الساعة وفق توقيت قلبي الثامنة صباحًا: «آه! ها هو الفطور قادم!»، وإذا أشارت الساعة إلى منتصف الليل وفاقًا لتوقيت قلبي، تقول إحدى النّساء: «لقد انتهى العرض، ما رأيكنّ أن نتمشّى ونأكل في أحد المطاعم القريبة».

كانت هذه الدعابات تحملنا على الضحك ملء قلوبنا. أذكر أنني في تلك الفترة ضحكتُ أيضًا، لأنني توقّفتُ عن اعتبار النّساء عدوّات؛ خصوصًا بعد أن حدّدتُ لهنَّ ما لا تستطيع أيّ واحدة منهنّ تحديده: الوقت.

كلّ ما تقدّم لم يصرف انتباهي عن الحارس الشاب الذي كنتُ أراقبه وهو يؤدّي ورديّته، فواصلتُ مراقبته وأنا أجلسُ بالقرب من القضبان على أمل أن يضعف ذات يوم، ويعطي إشارة بأنّه لاحظني، ولكنّ هذا لم يحدث. لا أزال أتساءلُ إن كان ذلك من باب الانضباط، أو لأنه حقًّا لم يعطِ أهمية لحقيقة أنّ واحدة من هؤلاء النّساء لم ترفع عينيها عنه وإن للحظة، ولكن يمكنني القول إنني توقّفت عن إخبار نفسي مزيدًا من القصص.

ابتكرتُ التجربة الوحيدة الجديدة في حياتنا الساكنة تلك، ولم تكن أيّ واحدة من النّساء تزعجني حين تكون نظراتي مصوّبة إلى الحارس الشاب، فلم تلفت انتباهي لأمر غير مبرر، وهذا ما ترك لي متّسعًا من

الوقت للتفكير. بعد فترة، بدأتُ أخشى أن نعود إلى جمودنا الفكريّ مرة أخرى بفعل العادة، وبدا لي أنّ بعض المناقشات لم تعد تُثير كثيرًا من الاهتمام، وبدأت النّساء يتثاءبن عندما نجتمع لنحاول أن نفهم مرة أخرى ما الذي يخفى خلف فرق التوقيت، وصرن يتذمّرن من أنّنا نرهق أنفسنا من دون سبب، لأننا لن نجد تفسيرًا، ولأنّ كلّ ما يحدث ليس مخططًا. حدّثتُ نفسي أنه إذا خفّت حماستهنّ فسأكرههنّ مرة ثانية، وسيُعدن لإطلاق النّكات التي لا أفهمها، وسأغضب مجدّدًا لأنني سأكون مستبعدة، وسأشعر بالوحدة في حين أنني أستمتع بوقتي حاليًا.

لكنّ أنثيا لم توافقني الرأي معلّلة ذلك بأنهنّ استيقظن بالفعل، وأخبرتني: «إنّ ما حصل حتّى الآن يُعتبر أمرًا خطيرًا، وأخشى أن يدرك الحرّاس ذلك ويعطونا تلك الأدوية المخدّرة مجدّدًا. فحينها سنغرق مجدّدًا في اللامبالاة، وسنكون شبه ميتات من دون أن ندرك ذلك، وأنا لا أستطيع أن أتخيّل شيئًا أكثر إذلالًا».

هناك حقيقة لا مفرّ منها وهي أنّ الألم يصاحب الذكريات. ففي الوقت الذي كنّ يجلسن بعضهن مقابل بعض، كنّ يجدن الشجاعة لمقارنة ذكرياتهنّ الضئيلة، مُحاولاتٍ نبش الماضي عبر محادثات طويلة، هدفن من خلالها إلى شقّ طريق يعترضها كثير من العقبات، مُحاربات الخوف وفقدان الذاكرة الذي ربمّا كان سيمنحهنّ الراحة. لقد أصغين باهتمام، بعضهنّ إلى بعض، وحين كانت تخطر في بال إحداهنّ فكرة، كانت تُقاطعُ المرأةَ التي تتحدّث لتقول فكرتها قبل أن تتبخّر وتنساها، ولكنهنّ حافظن على قدر معيّن من التحفّظ الذي لم يكن هدفه سوى حمايتهنّ من الدموع التي كانت ستنبّه الحرّاس. وبعد أن حجزتُ مكانًا لي بينهنّ، لم أعد مُستبعدة، مع أنني لم أفعل شيئًا سوى الاستماع.

لكنّ هذا لم يدُم طويلًا، لأنه، ومن دون سابق إنذار، حدث أمرٌ جلل.

**

لا بدّ من وصف الأحداث بأدقّ التفاصيل، وهو ما أجده صعبًا للغاية بسبب الصدمة والدهشة اللتين سببتهما الأحداث في ذلك الوقت. حدثَ ذلك حين كان الحرّاس يفتحون الفتحة لإعطائنا الطعام. كانت القدور تبقى دائمًا داخل القفص حيث نكدّسها بجانب الأحواض، أمّا الأطباق فكنّا نعيدها للحرّاس بعد كلّ وجبة، فالطعام يصل على عربات ضخمة، وعلينا أن نلتقطه بأيدينا ونضعه في القدور، وهي مهمّة مكروهة وصعبة في الوقت نفسه.

في الجهة الخلفيّة من الملجأ، وعلى الجانب الآخر من القضبان، فُتح باب معدنيّ كبير فأثار ذلك فضولنا على الفور. ماذا سيعطوننا اليوم؟ وما الذي سنكون قادرين على إعداده؟ توجّه اثنان من الحرّاس إلى الباب وسحبا العربة، في الوقت الذي واصل الثالث مراقبتنا ممسكًا بالسوط. في البدء، كان علينا أن نأخذ مغرفة الحساء، والملاعق الأربعين والسكاكين غير الحادّة لتقشير الخضار.

في ذلك اليوم، كان هناك جزر ولحم بقريّ مفروم خشنًا، وبدأت النّساء يتجادلن على الفور إن كنّ سيطبخن كلّ كمية الجزر أو يحتفظنَ ببعضه ليأكلنه نيئًا. وكان هناك بطاطا أيضًا وهذا ما أشعرنا بالسّعادة لأنه نادرًا ما قُدّمت لنا. لطالما استغربت النّساء عدم تزويدنا بالبطاطا بشكل دائم، لأنها، وبناء على معارفهنّ السابقة، كانت رخيصة جدًّا، بالإضافة إلى أنها طعام مفيد وغنيّ بالكثير من العناصر المفيدة، وبحسب أنثيا يمكن للشخص أن يحصل على كلّ المغذيات الضرورية إذا اقتصر غذاؤه عليها.

حين أدخل أحد الحراس مفتاحًا في قفل الفتحة الصغيرة سُمِعت

ضوضاء عالية ومرعبة لم يسبق أن سمعتُ ما يماثلها على الإطلاق. تسمّرت النّساء في أماكنهنّ لأنهنّ استطعن التعرّف إلى صوت صافرات الإنذار؛ كان عويلًا مستمرًّا يصمّ الآذان. ذهلتُ، وللمرة الأولى منذ اكتسبت القدرة على تتبّع الوقت، فقدتُ إحساسي به. قفزت جميع النّساء الجالسات، وتراجعت اللواتي كنّ عند القضبان ليجلبن الطعام، وترك الحارس الذي كان يُدخِل المفتاح في القفل حلقة المفاتيح في مكانها، واستدار ليواجه بقية الحرّاس الذين تبادلوا التحديق لفترة وجيزة قبل أن يندفعوا نحو المخرج الرئيس، ويفتحوا الباب المزدوج على مصراعيه، وهو ما لم يسبق لهم أن فعلوه من قبلُ، ويهربوا.

لقد غادروا. وللمرّة الأولى منذ أن سُجنّا، كنّا بمفردنا في ذلك الملجأ.

تجاوزتُ بسرعة الصدمة الأوّليّة، وركضتُ صوب الفتحة ومددتُ يدي بين القضبان وأدرت المفتاح بالكامل ثم أخرجته من القفل، ودفعتُ الفتحة إلى الخارج فانفتحت. تراجعتُ ويدي لا تزال قابضة على حلقة المفاتيح، فأنا أحمل أغلى شيء في العالم. عادت ساعتي الداخليّة إلى العمل مجددًا، وأستطيع القول إنني وقفتُ هناك لأكثر من دقيقة أحدّق إلى الفتحة الصغيرة المفتوحة وأنا لا أستوعب ما يحدث، فمن شدّة الصدمة بالكاد استطعتُ التنفّس فوقفت في مكاني ألهثُ.

أمسكتُ بالقضبان، وعبرت الفتحة لأفتح باب القفص، ولمّا كان هناك مفاتيح كثيرة في الحلقة فقد جرّبت اثنين منها قبل أن أعثر على المفتاح الصحيح. لم يسبق لي أن استخدمت أيّ مفتاح، لذا، استلزمني الأمر وقتًا حتّى أفتح باب القفص. حينها شَخَصَت النّساء إليّ من حيث يقفن، ولم يأتين بحركة.

بدت النّساء عاجزات عن فهم الأحداث المتسارعة، فصرختُ: «هيّا..

هيّا اخرجْن!»، وركضتُ صوب الباب الآخر، ولم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا سأجده هناك. لقد كان على بعد أمتار قليلة. تساءلت إن كنت سأصادف حارسًا هناك، وكنتُ أندفع بتهوّر نحو خطر مجهول، ولكنني فكّرت في أنّ النّساء سيهرعن لإنقاذي إذا تطلّب الأمر ذلك، وأنّ غضب أربعين امرأة سيكون أقوى من غضب عدد من الحرّاس، حتّى وإن كانوا مسلّحين. عبرت الباب المفتوح، ووجدتُ نفسي في ممرّ واسعٍ مهجورٍ، على جانبيه أبواب تقود إلى غرفٍ لا أعرف عنها شيئًا.

كانت أنثيا أوّل من انضمّ إليّ، وبعدها دوروثي التي كانت تنظر إليّ دائمًا بتشكّك.

رأيت على وجهيهما نظرات متماثلة تعكس عدم تصديقهما ما يحدث. كانتا تتحدّثان ولكنّ صوت صفارة الإنذار المستمر حجب كلماتهما عن سمعي، فلم أفهم ما كانتا تقولانه. لكنّني تابعت التّحدّث إليهما، فأخبرتُهما أنّ الحرّاس غادروا أو هربوا.

ظللتُ أُكرّر الكلمات نفسها، وكأنني أريد أن أُصدّق تلك الحقيقة من خلال تكرارها، حتّى أقنع نفسي بها. واصلنا محادثاتنا العبثية لثوانٍ. إلى أن توقّفت صافرة الإنذار فجأة، وكأنّ عويلها الصاخب تسبّب في تعطلها.

قلتُ: «لقد ذهبوا».

أومأت دوروثي برأسها.

وكرّرت أنثيا: «لقد ذهبوا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

أُسقط في يدنا، فوقفنا لا نعرف ما يفترض بنا أن نفعل، ثم ظهرت النّساء الأخريات، واحدة تلو الأخرى. في البدء كنّ متردّدات، ولكن بعد ذلك تدافعن للوصول حيث طمأنتْ المتقدّماتُ منهنّ المتخلّفات،

واحتشدنا جميعًا في الممر الذي كان ضيّقًا للغاية ولا يتّسع للجميع. تركتهنّ ودخلتُ إحدى الغرف ونظرتُ حولي فرأيت طاولة كبيرة وعددًا من الكراسي وبعض الخزائن؛ بالطبع وقتها لم تكن لديّ أدنى فكرة عن أسماء كلّ هذه الأشياء. كما رأيتُ أشياء أخرى لم أتعرّف إليها. وفي الوقت الذي كنتُ أشقّ فيه طريقي مسرعةً، لمحتُ بابًا على الجانب الآخر البعيد من الغرفة، كان مفتوحًا بدوره ويؤدّي إلى درج.

أقول اليوم درج بكلّ ثقة، ولكنني وقتها لم أكن أعرف ما هو، ولم أكن أبحث عنه كوسيلة للخروج من الملجأ؛ فنحن لم نكن واثقات من أنّنا تحت الأرض على الرغم من أنّ عددًا من النّساء افترضنَ ذلك لأنه لم تكن هناك نوافذ. لم يسبق لي رؤية درج إلّا أنني سمعتُ عنه، فأدركتُ ماهيّته بمجرّد أن رأيته. صعدت درجات عدة، وحين استدرتُ لأنادي النّساء الأخريات، رأيت أنثيا ودوروثي تتبعانني، وكانتا أكثر حذرًا مني، وأخبرتاني في وقت لاحق أنهما خشيتا أن يظهر الحرّاس فجأة، وأنهما أخبرتا النّساء، قبل أن تتبعاني، أننا قد نضطرّ إلى التعارك مع الحرّاس. قالت النّساء إنهنّ مستعدّات لفعل أيّ شيء حتّى لا يعدن إلى القفص، وإن اقتضى الأمر منهن القتال. لم أعد أفكّر فيهنّ، صعدت الدرج راكضة بتهوّر، وقد سيطرت عليّ تلك النّشوة التي تستحوذ على كلّ ما في داخل المرء؛ إنها نوع من الإثارة التي لم يعد اختلاق القصص يشعرني بها بعد أن خرجتُ من عزلتي وبدأتُ أتحدّث إلى الأخريات.

ركضت بسرعة، وكنت سأسقط أيّ حارس يظهر أمامي وأدوس عليه بقدمي، وإن كان بضعف حجمي، لأنّ فرحًا جامحًا اجتاحني، فجعلني لا أبالي بشيء. صعدت من دون أن ألهث، ومن دون أن أتعب، أنا التي لم أخطُ أكثر من عشرين خطوة في خطّ مستقيم منذ أن وعيت على هذه الحياة.

لم أكن أصعد الدرج بل كنت أطير فوق درجاته، كما تخيّلت الأمر في أحلامي، تلك الأحلام التي سمعتُ النّساء يصفنها، حيث يرتفعن مثل الطيور التي كنتُ على وشك أن أشاهدها قريبًا، وتيّارات الهواء تحملها فتُحلّق من دون عناء، وترقص لساعات طوال فوق خطوط الشفق، تمامًا كما كنتُ أرقص على الدرج.

صعدت الدرج مبتهجة نحو المجهول، الذي لم أجرؤ يومًا على تخيّله حتّى أحلم به، نحو العالم الخارجي بعيدًا عن الملجأ والقفص. لم يكن لديّ أدنى تصوّر عمّا سأواجهه، لأنّ إثارة غريزية اجتاحتني وتدفّقت إلى رأسي صور، وربّما كلمات، تحتاج إلى استكمال معانيها بدءًا بالسماء، والليل، والأفق، والشمس، والريح وكلمات أخرى كثيرة أثقلت أفكاري على مرّ السّنوات. هذه الكلمات سعت لتجد الصور التي تُعبّر عنها وتجسّدها أمامي، وهذا ما حفّزني على المضي قُدمًا.

أوه! عندما أُفكر في المرّة الأولى التي صعدتُ فيها الدرج! تترقرق عيناي بالدموع، وأشعر بذلك الانتصار الذي كنتُ سأرضى بأن يكلّفني اثني عشر عامًا أخرى من الأسر، حتّى أشعر بهذا اليقين الرائع الذي خامرني وأنا أصعد مئة درجة دفعة واحدة بخفّة ومن دون أن أتوقف لألتقط أنفاسي، وأنا أضحكُ جَذلى.

فجأة، وجدتُ نفسي عند أعلى الدرج، أقف في ما أطلقنا عليه لاحقًا اسم الكوخ؛ وهو عبارة عن ثلاثة جدران وباب مفتوح، وقد امتدّ أمامي سهل. خطوتُ إلى الخارج ونظرتُ أمامي، فرأيت ما سأعرف لاحقًا أنه العالم.

كان الوقتُ نهارًا، والسماء رمادية، إلّا أنّ لونها لا يشبه اللون الرمادي الذي طغى على حياتنا داخل جدران القفص؛ إنه مزيج من ألوان خُلطت

معًا بدقة. كانت النّسائم التي داعبت جلودنا عليلة، ورأيتُ ما اعتقدتُ أنها السّحب، بحيث كانت ملطّخة بألوان اللؤلؤ، وقد أنارتها أشعة شمس تتوارى خلفها. في أثناء تأمّلي هذا المشهد غمرتني مشاعر غريبة، أكثر روعة من البهجة التي ساعدتني على الوصول إلى أعلى الدرج، فتمنّيتُ أن أُجمّد هذا اللحظة فأبقى فيها إلى الأبد، ولكنّ هناك أمورًا كثيرة عليّ اكتشافها. كان الطقس ماطرًا، وشاء القدر أن نخرج في مثل هذا اليوم من فصل يقلّ فيه المطر، كما اتّضح لنا في الأيام التالية.

تقدّمتُ ونظرتُ إلى الأعلى رافعة ذراعيّ فتلقّفتا قطرات الماء غير المعهودة، تلك التي سمعت عنها واستعصى عليّ تخيّلها. سقطت قطرات عدة على يدي فلعقتها مذهولة، وسرعان ما تبلّل فستاني فألصقه النّسيم بفخذي، فوجدتُ ما يحدث رائعًا.

سألتْ إحداهنّ من خلفي: «ولكن أين نحن؟».

إنها دوروثي وكانت تلهث، بينما كانت أنثيا تقف إلى جانبها. كانتا تجولان بأعينهما في الأرجاء كما أجول، فلم تقع أعيننا سوى على سهل مترامي الأطراف يبلغ الأفق.

أجبتُ ضاحكة: «نحن في الخارج، وقد غادر كلّ الحرّاس».

قالت أنثيا: «نحن بعيدات جدًّا عن المدينة، فلا دليل يشي بوجود مساكن قريبة. لطالما ظننت أننا بالقرب من مدينة كبيرة».

عبست دوروثي: «لم يسبق لي أن رأيت سهلًا مترامي‌ًا مثل هذا، ولكنني أجزم أننا لسنا في بلدي، لأنّ الجبال في بلدي تبدو واضحة للعيان في كل مكان».

بدت أنثيا محتارة وقلقة جدًّا، وهذا ما أشعرني بالأسى عليها.

قلتُ: «لا يهمّ أين نحن.. المهمّ أننا تحرّرنا من الأسر».

وصلت النّساء، الواحدة تلو الأخرى، لاهثات ومتعثّرات، فخرجنا من الكوخ لنفسح المجال لهنّ. ولم يمضِ وقت طويل حتّى بدت الحيرة على وجوه الجميع وهنّ يحاولن معرفة المكان الذي نحن فيه، وأجمعنَ على أنّه لم يسبق لهنّ أن رأين سهلًا مثل هذا. أما أنا فلم أعِ سبب خوفهنّ أو عدم فرحهنّ بالتحرّر، فهنّ عدن حرائر يستطعنَ رؤية السماء والاستمتاع بالرياح والمطر مرة أخرى، بعد أن انتظرن هذه اللحظة منذ أن وعيت. لكنني وجدتهنّ عاجزات عن الفرح بعد أن نلنَ مبتغاهنّ.

عزوتُ الأمر إلى أنّه عندما يتعوّد شخصٌ ما على حياة روتينية، يجد صعوبة في استقبال التّغيير المفاجئ، وهذا أمر وجدت نفسي أستهجنه، أنا التي لم أختبر شيئًا في حياتي سوى العبثيّة.

قالت آنا بيل: «أنا خائفة».

تجمهرت النّساء، وكنّ مجرّد مجموعة محدودة العدد، مذعورة وسط أرض شاسعة مجهولة، بعد أن تعوّدن على القفص الضيّق المعروف. تشبّثتِ النّساء الأربعون، بعضهنّ ببعض، مستغربات الهدوء الذي يُسيطر على هذه المساحة الشاسعة.

«ماذا سنفعل إن عادوا؟».

حينها فطنتُ إلى أنهنّ يحاولن تبرير خوفهنّ.

نظرنا حولنا لكننا لم نرَ إلّا السهل الفسيح، ولم ترصد أعيننا فيه سوى أعشاب تتمايل بفعل النّسيم.

قالت آنا بيل: «يجب أن نغادر ونتوارى في مكان ما».

تمتمت فرنسيس: «ولكن أين نتوارى؟ فلا يوجد مكان نلجأ إليه... لا مبانٍ، ولا ملاجئ، حتى ولا طريق...». ونظرت إلى المبنى الصغير الذي خرجنا منه لتوّنا «لا يوجد سوى هذا الكوخ وسط هذا الفراغ».

قالت إحداهنّ: «نحن ضائعات».

علت الهمهمة والكلام غير المفهوم، وبدأت كلّ امرأة حديثها من حيث توقّفت المرأة التي سبقتها في الكلام. كانت كلماتهنّ عديمة المعنى، وهذا ما وتّرني فقلت غاضبةً: «حسنًا، عُدنَ إلى القفص إذا كنتن خائفات من الخروج، فلا نزال قريبات منه!».

ردّت آنا بيل مستاءة: «أوه... أنتِ و..».

توقّفتْ عن الكلام، وأعتقد أنها كانت ستكملُ بالقول... ووقاحتكِ، أو تمرّدكِ، لكن تبيّن لها أنني على حقّ، وأنّ كلّ هذا لن يجدي نفعًا. حاولتُ، أنا الأخرى، التحكّم في مشاعري لأنني شعرتُ بأن جدالًا كبيرًا، يوشك أن يحصل، سيعطي النّساء منفذًا يفرغن فيه قلقهنّ، وسيقفن جميعًا ضدّي. أمّا أنثيا، التي ظلّت هادئة، فقد دعمتني: «الطفلة محقّة، علينا أن ننظّم أنفسنا ونُحسن التفكير، فنحن لا نعرف أين هم الحرّاس ولا نعرف كيف اختفوا خصوصًا أنه لم يبقَ لهم أثر في غضون دقائق».

أضفتُ: «إحدى عشرة دقيقة؛ لقد مرّت إحدى عشرة دقيقة، وربّما فترة أطول بقليل، منذ أن علا عويل صافرة الإنذار، إلى الوقت الذي فتحنا فيه الباب وصعدنا الدرج وخرجنا».

«إحدى عشرة دقيقة؟ أعتقد أنّ هذه الفترة كافية ليختفوا إن كان لديهم مروحية أو طائرة صغيرة، ولكن ماذا بشأننا؟ لا يمكننا أن نتوارى بالسرعة نفسها، فلكي نجتاز هذا السهل علينا أن نسير لثلاث ساعات على الأقلّ، وإن عادوا وقرّروا أسرنا مجدّدًا فسيستطيعون القيام بذلك بلمح البصر».

قالت آنا بيل: «لن أسمح لهم بأسري مجدّدًا، فأنا أفضّل الموت على العودة إلى القفص. يمكنهم تخديري بقدر ما يرغبون، ولكنني متأكدة من

أنني أستطيع تحويل المخدّر، الذي سيعطوننا إياه بجرعات دقيقة، إلى أشدّ السموم قتلًا».

قالت غريتا: «وأنا أوافقك الرأي، وإذا عدمتُ وسيلة للهرب، فسأتوقّف عن التنفّس، فإرادتي صلبة لا تلين، وأظن أنني أستطيع إيقاف قلبي عن النّبض».

وطّدت هذه الكلمات عزيمتهنّ، فردّدن واحدة تلو الأخرى: «وأنا أيضًا»، «وأنا أؤيدك». وعادت جذوة التمرّد لتشتعل من جديد، وبدا جليًا أنهنّ لن يسمحن للصدمة بأن تسيطر عليهنّ كما في السابق، ولن يسمحن لأنفسهنّ بالوقوف خائفات مثل مخلوقات مذعورات تُقاد إلى المسلخ. نظرنَ إلى ذلك المشهد الغريب ووقفن راسخات الأقدام وبدأت الابتسامات ترتسم على وجوههنّ.

قالت فرنسيس: «إنها تمطر». ورفعت يديها لتجمع قطرات المطر كما سبق لي أن فعلت، ثم قرّبت يديها من شفتيها، وتحسسّت شعرها وخدّيها.

قالت غريتا: «لقد تبلّلتُ. نسيت الشعور بالبلل، فقد مضى وقتٌ طويلٌ جدًّا على المرّة الأخيرة... أكثر من اثنتي عشرة سنة... انظرنَ كم كبرتِ الطفلة».

حدجنني بنظرة، أنا ساعتهنّ البشريّة، ولُذنَ بالصمت، بعدها تفرق حشدهنّ وبدأنَ ينحنين ويلمسن الأرض. رفع عدد من النّساء الأحجار، فاكتشفنَ أسفلها ترابًا جافًا ورماديًا، لأنّ المطر لم يتسرّب إليه، وبلّلت آنا بيل سبابتها بلعابها ورفعتها لمعرفة اتجاه الرياح قائلة: «إن الشمس تقف في كبد السماء، وهذا يعني أننا في منتصف النّهار. وإن كانت الرياح تسير في الاتجاه المعتاد فهي رياح غربية».

«بالطبع، هي رياح غربية فهي التي تجلب المطر دائمًا».

«هذا إذا كنّا في بلدك، ولكن ليس هناك دليل على ذلك».

«أوه لا! إن كنا في بلدي كنّا سنرى تلالًا وغابات».

بعث هذا الحوار البهجة في نفوسهنّ، فهنّ بأمسّ الحاجة إلى تخفيف توترهنّ بأيّ طريقة.

سألت غريتا التي لم تعش إلّا في المدينة: «ألا تستغربنَ غياب الطيور؟ هل توارت الطيور بسبب المطر؟».

«ولكن أين ستتوارى؟ فليس هناك شجرة واحدة في الأفق باستثناء بعض الشُجَيرات».

قالت دوروثي: «انظرنَ إلى التربة الجافّة، فهي لا تصلح للزراعة».

«أيًّا يكن الأمر فليس لدينا ما نزرعه».

بدت هذه العبارة وكأنها ضربت وترًا حساسًا، وخيّل إليّ أنّ العقول تحاول أن تستوعبها جيدًا، قبل أن تُنحّيها جانبًا لتفكّر فيها في وقت لاحق، ولكنها تركت تأثيرًا.

قالت غريتا: «يجب أن نعدّ الطعام، لقد حان وقتُ الأكل وأنا جائعة. يبدو لي الأمر مستغربًا، فأنا لم أكن أشعر بالجوع عندما كنتُ مُحتجزة».

لا يزال الطعام على العربات في القفص. سرت القشعريرة في أجساد النّساء حين فكّرن أنّ عليهنّ العودة إلى الأسفل إذا أردن أن يأكلن.

-كيف سنطبخه؟ لا أرى وسيلة يمكننا استخدامها للطبخ.

-وما أهمية وسيلة الطبخ؟ فنحن يجب أن نأكل، وإن أكلنا لحمًا نيئًا!

قالت آنا بيل: «لن أعود إلى الملجأ، أفضّل الموت جوعًا على ذلك».

حينها عادت النّساء ليحتشدن مرة أخرى، وقفن متراصّات الأكتاف،

وقد برّرتُ ذلك بأنّهنّ كنّ يبحثن عن وسيلة ترابط تبعث الراحة في نفوسهنّ. كان من البديهيّ أن تعود واحدة منا إلى الملجأ، وبالطبع أنا من عادت، ربمّا لأنني لا أتذكّر عالمًا آخر غيره، لذلك كنت الأقلّ خوفًا. حين احتشدن لم أنضمّ إليهنّ بل وقفتُ بعيدة، وحين نظرنَ إليّ فهمتُ وقلتُ مبتسمة: «بالطبع.. سأذهب».

لم أهدر الوقت، فقصدت الكوخ وتبعني عدد منهنّ وبقينَ على بعد أمتار قليلة، وكأنهنّ يردنَ مساعدتي في القيام بما لم يجرؤنَ على التفكير فيه. شعرتُ بالتردّد حين وصلت الدرج، وبدوتُ ممتّنة للدعم الذي يقدمنَه لي وتساءلت: هل سيعود الحرّاس وأنا في الداخل؟ وهل ستستطيع النّساء القتال والتغلّب عليهم؟ وللحظة تخيّلت أنني سأجد، حين أصعد، جثث النّساء مكدّسة، لأن مذبحة مروّعة حصلت، وسأجد الحرّاس في انتظاري مبتسمين وملوّحين بسياطهم. في النهاية، شعرت بالسعادة لأنني تمالكتُ نفسي واستجمعت شجاعتي ونزلت الدرج.

منذ ذلك اليوم، نزلت أدراجًا كثيرة، وكانت من الأمور القليلة في الحياة التي لم أُحصِها، لكن، كلّما نزلت درجًا شعرت بالرهبة التي شعرت بها في المرّة الأولى؛ رهبة من يخشى أن يدوس فخًّا فيُحتجز في داخله. إن أكثر ما أستغربه، هو أنني كلّما كنتُ أنزل درجًا بمفردي، كنت أسند باب الكوخ الذي يؤدي إليه بعدد من الحجارة، وأنا أعرف أن تصرفي هذا أخرق، لأنّ الأقفال صدئة والمزاليج عالقة والرياح ساكنة لا تقوى على تحريك الباب الخشبي الثقيل، بيد أن هذا التصرف كان يبثّ في نفسي شيئًا من الطمأنينة.

نزلتُ الدرجات المئة وأنا أوازن بين السرعة والحذر، خوفًا من التعثر، فهذا أوّل عهدي بنزول الدرجات. وبمجرّد أن بلغت الممر وجدتُ

نفسي أواجه مشكلة؛ فالقدور بما تحتويه من خضار ولحوم وماء تفوق قدرتي على نقلها دفعة واحدة، وهذا يعني أنني سأصعد الدرجات المئة وأنزلها أكثر من مرّة. لذا، كدّست اللحوم في إحدى القدور وشرعت أصعد الدرجات. قبل نصف ساعة صعدت هذا الدرج ركضًا ولم أشعر بالتعب، ولكن الأمر اختلف الآن فأنا أشعر بدوار يترافق مع صعوبة في التنفس وبالكاد تستطيع قدماي أن تحملاني، ولا يمكنني وصف الامتنان الذي شعرت به، حين صادفت أنثيا وأنا في منتصف رحلة الصعود إلى الأعلى.

«أحسستُ بأنّكِ لن تستطيعي تدبّر الأمر بمفردك».

«إنّ إحساسك في مكانه، فقد حسبت الأمر أسهل، لأنني فكّرت في القدور واللحم والخضار، ونسيت أننا بحاجة إلى ماءٍ للشرب والطبخ، وكذلك إلى أطباق».

«ليت الأمر يقتصر على ما ذكرتِ فحسب، فالنساء يجمعن الأغصان في الأعلى ليشعلن نارًا، وليس في حوزتنا ما نشعلها به».

قررنا أن نحلّ مشكلاتنا واحدة تلو أخرى، فبدأنا بأسهلها وشرعنا ننقل ما جمعته، وبعد ذلك خصّصنا وقتًا لاكتشاف ما يوجد في الغرف على جانبي الممر.

لم تكن التحديات التي صادفتنا في الغرف أقل من سابقاتها. لم نجد فيها أماكن لنوم الحرّاس، فاستنتجت أنثيا أنهم كانوا يغادرون بمجرّد أن تنتهي ورديّات عملهم، ولكن إلى أين كانوا يذهبون؟ هل يقصدون مكانًا قريبًا؟ وهذا ما بدا مُستبعدًا لأن السهل الذي رأيناه في الأعلى قاحل ولا مكان فيه يصلح للسكن، ومع ذلك اختفوا في غضون إحدى عشرة دقيقة من انطلاق صافرة الإنذار، وإذا افترضنا أن مروحية أقلتهم من هنا، فأنا أشك بوجود مروحية تستطيع التحرّك بمثل هذه السرعة.

احتوت الجوارير على شتى أنواع الخردوات: مطارق وبراغٍ ومفكات، التي سيتوجّب عليّ تعلّم طريقة استخدامها، بالإضافة إلى السكاكين والفؤوس، وهي أدوات مألوفة وستكون عظيمة الفائدة. لا أستطيع أن أصف سعادة أنثيا حين عثرت على أربع حقائب ظهر كبيرة، وشرحت لي الغاية التي تستخدم لأجلها. ومع استمرار عمليات البحث، وقعت يدي على علب صغيرة تحتوي على أعواد خشبية رفيعة، فاستفسرت منها عن استخداماتها فأخبرتني أنها أعواد ثقاب، وأنها ما نحتاج إليه لإشعال النار.

في النهاية، عثرنا على مخزن كبير يحتوي على أطعمة معلبة، ولم تستطع أنثيا أن تخفي بهجتها وهي تقرأ بحماسة الملصقات على العلب. ضحكت، وأنا أسمعها تذكر أسماء أطعمة لم يسبق لي أن سمعت بها مثل: مخلّل الملفوف، طاجن فاصولياء، باتيه وغيرها. بعد أن فرغتْ من المعلبات، فتحتْ باب ثلاجة المخزن فوجدتها تحتشد باللحوم والدجاج، بالإضافة إلى أكياس من الجزر واللّفت والبصل الأخضر والكرفس. وعندها تيقّنا من أننا لن نموت من الجوع.

«لا أعرف كم سيكفينا هذ الطعام، ولكنني متأكدة أنه سيقيم بأود أربعين امرأة لسنوات طويلة».

أطلعتني أنثيا على أسماء كلّ ما رأيناه، وسرعان ما شعرت بالدوار بسبب الكمّ الكبير من المعلومات التي تلقّيتها. ولو أنني أطلب منها العودة إلى الأعلى لأن الأخريات ينتظرننا، لكانت ستستمر في عملية الاكتشاف لساعات. عدْنا ومعنا لحوم ومعلّبات وكثير من البطاطا بالإضافة إلى أعواد الثقاب، فأشعلت النّساء الغُصينات التي كدّسنها وأحطنها بدائرة واسعة من الحجارة.

قالت غريتا: «كانت دوروثي واثقة من أنكِ ستجدين أعواد ثقاب، فالرجال يحتفظون دائمًا بها».

نزلنا إلى الملجأ مجددًا لنجلب الماء، ورافقتنا هذه المرّة اثنتان من النّساء القويّات. خلال عمليّة الطبخ توقّف المطر، وتفرّقت السحب، وظهرت الشمس عالية في السماء فشرحت لي النّساء أنّنا في فترة الظّهيرة. تناولنا تلك الوجبة الأولى جالسات في مجموعات صغيرة حول النّار. في السابق تعوّدت النّساء الجلوس كلّ واحدة على حدّة، تأكل طعامها بعيدًا عن الأخرى.

في وجبتنا الأولى بعد التحرر، كان الطعام وفيرًا، وللمرّة الأولى بقي قليل من الطعام في القدر، فقالت إحدى النّساء مازحة: «انتبهنَ ولا تفرطن في الأكل حتّى لا تصبن بالسمنة».

عقّبت أخرى: «إن إطلاق العنان لشهيتنا سيجعلنا نخسر كلّ الفوائد التي جنيناها من البقاء على حمية غذائية صارمة طيلة سنوات».

مرت فترة طويلة قبل أن يشرحن لي لماذا وجدنا الحديث عن الإفراط في الأكل والسمنة مضحكًا. واستغربت كيف انقلب حال هؤلاء النّساء بهذه السرعة بعد أن كنّ متجهّمات الوجوه باردات الملامح منذ اللحظة التي هربن فيها، في الوقت الذي لم يطرأ أيّ تغيير عليّ.

سألتني غريتا: «كم الساعة؟».

تفاجأت من أنني أجبتها بتلقائية: «إنها العاشرة ليلًا». لقد انطلقت صفارة الإنذار قبل ثلاث ساعات، لكن قبل أن أُصرّح بأن الساعة هي العاشرة ليلًا. لم تنتبه أيّ منّا إلى أنه مضى وقت طويل علينا ونحن مستيقظات، وكان هذا الدليل القاطع أننا لم نكن نستيقظ وننام في القفص وفقًا للنمط المعتاد للنهار والليل.

ضحكت أنثيا قائلة: «أظن أن عليك إعادة ضبط ساعتك بطريقة صحيحة».

«كيف؟».

«سنعتبر غروب شمس هذا اليوم نقطة بداية لنعرف عدد ساعات اليوم، أريد منك أن تخبريني كم ساعة تفصل بين غروب شمس اليوم والغد، فاليوم الكامل هو الفترة التي تفصل بين غروبي شمس. أليس كذلك؟».

قالت دوروثي: «لا أعرف، ولكن أليس للأمر علاقة بالفصل الذي نحن فيه؟».

تناقشتا في أمر لم أفهمه تمامًا، وشرحتا أنّ نهارات الصيف أطول من نهارات الشتاء. لكن أنثيا قالت إن الفترة التي تفصل بين غروبي شمس هي أربعٌ وعشرون ساعة بغض النّظر عن الفصل، واستأنست بآراء الأخريات اللواتي لم يكنّ متأكدات من ذلك أكثر من أنثيا التي كانت الأكثر ذكاءً بينهنّ. توقفت عن متابعة نقاشاتهنّ لأنني انشغلت بالتفكير في المكان الذي سننام فيه حين يحلّ الليل.

بالطبع، ما كنا سنعود إلى الملجأ وننام في القفص، ولم تكن فكرة البقاء في الخارج بالقرب من الكوخ مقبولة هي الأخرى، وللمرّة الأولى رأيتُ الشمس تتحرك نحو مغربها، وأدركت أن الظلام سيحلّ بعد ساعات، فاقترحتُ أن ننزل مرّة أخرى إلى الملجأ لنجلب الطعام والبطّانيّات، وبعدها نبتعد من هنا. لكن أيّ اتجاه سنسلك؟ وماذا سنفعل إن صادفنا الحرّاس في طريقنا؟ فنحن لا نستطيع توقّع الاتجاه الذي قد يأتون منه لأنه ليس هناك طرقات، ولا نعرف كيف غادروا. وفي النهاية، كثرت الأسئلة حين أخبرت أنثيا الأخريات أن غرف الحراس لا أسرّة فيها. هنا

تدخّلت دوروثي حين استشعرت فوضى توشك أن تدب بين النّساء، فطرحت عليهنّ ما اعتبرته السؤال الأساسيّ والأهمّ: «إذا اتّفقنا جميعًا على الابتعاد عن هذا المكان، فيجب أن نقرّر الاتجاه الذي سنسلكه، ولكن ما المعطيات التي سنبني عليها قرارنا هذا؟».

أشارت أنثيا إلى الجنوب: «سنسير في هذا الاتجاه لأنّ هناك وهدة يمكنها أن تخفينا». كانت النّساء قلقات جدًا من عودة الحرّاس، الذين تبيّن أنهم لن يعودوا أبدًا، ولكن النّساء لم يتخلّصن من مخاوفهنّ بسرعة.

اختفى الحرّاس في غضون لحظات وكأنهم تبخّروا، ومع ذلك لم أستغرب اختفاءهم بقدر استغراب الأخريات، فالحرّاس بالنسبة إليّ ظهروا فجأة من العدم وعادوا الآن إلى العدم، فأنا لم يسبق لي أن عشت مثلهم في مكان تسير فيه الأمور بتسلسل منطقي. ولأنني لا أعرف شيئًا فربما كان هذا ما جعلني مختلفة عنهنّ. لذا، كنتُ أوّل من تيقنت بشكل تدريجي أننا أصبحنا حرائر أو بعبارة أدقّ أننا انتقلنا إلى سجن جديد.

نزلتُ وأنثيا مرات عدة إلى الملجأ لنجلب ما نحتاج إليه، وانتظرتنا النّساء خارج الكوخ لاستلام حمولتنا، وحين خرجنا آخر مرّة أمسكنَ بنا مسرورات ومتحمّسات: «هلمّا وانظرا! هلمّا وانظرا! انظرا ماذا صنعنا!».

كان هناك أجمة تبعد قليلًا عن المكان الذي جلسنا فيه وتناولنا الطعام، وكانت شجيراتها مرتفعة نسبيًا. فاقتلعت النساء الشجيرات التي تتوسط الأجمة، وحفرن بالمجرفة حفرة في وسطها، ثمّ ألقين بطّانيّات على جانبي الأجمة.

لم أفهم سبب حماستهنّ وما الذي يردنَ أن يرينا إياه.

قلنَ منتصرات: «هذا هو المرحاض».

أعلنت دوروثي: «لقد استعدنا خصوصيتنا، وعدنا كسائر البشر نلبي نداء الطبيعة بعيدًا عن الأنظار».

كنتُ متآلفة ومتعوّدة على مرحاض القفص، ولم أفهم فرحة أنثيا التي ترقرقت عيناها بالدموع، وهي تتوجّه إلى ذلك المرحاض الذي أُنشئ على عجل، وسألت مبتسمة: «هل من أحد في الداخل؟».

ضحكت إحدى النّساء قائلة: «لا يوجد أحد، يمكنكِ الدخول». ورفعت بطّانيّة لتكشف عن المدخل.

دخلت أنثيا، وأسدلت البطّانيّة خلفها ومكثت لبرهة. وعندما خرجت، أخبرتني أنّ دوري قد حان. لقد تعلّمت الكثير من شكاوى النّساء السابقة بشأن اضطرارهنّ إلى تلبية نداء الطبيعة أمام الجميع، وها أنا ذا أدرك أهمية الأمر بالنّسبة إليهنّ. شعرت بأنني مدعّوة لمشاركة طقس من طقوس حياتهنّ الماضية، في ذلك العالم الذي تحدّثن عنه معًا والذي أدركت الآن أنهنّ لم يَعُدن ينوين إقصائي عنه، والذي لطالما ظننت أنني لن أستطيع دخوله أبدًا.

هكذا مشيت نحو المنطقة الصغيرة المحاطة بالبطّانيّة ورأيتهنّ يحدجنني بنظرات تفيض إثارة، فشعرت بالانزعاج لأنني لم أستطع أن أفهم ما يدعونني إليه. أبعدت البطّانيّة، ودخلت، فأُسدلت خلفي، وعلى الفور شعرت بشيء غريب، فقد خفق قلبي بشدّة، وشعرت بالدوار، وأنا أستكشف المكان بعيني، فلم أرَ سوى الأغصان والبطّانيّة البنية التي شكّلت حاجزًا بيني وبين الأُخريات. في تلك اللحظة، سرت في جسدي قشعريرة سرعان ما فهمت سببها: فهذه هي المرّة الأولى التي ألبي فيها نداء الطبيعة من دون أن ينظر إليّ أحد أو أنظر إلى أحد. استهجنت الموقف، ووقفت أقلّب الأمر في رأسي وقد أُسقط بيدي، ثمّ أدركت

أنني أكتشف العزلة الجسدية للمرّة الأوّلى، والتي تعتبر أمرًا عاديًّا جدًّا بالنّسبة إلى الأخريات، لكن لم يسبق لي أن اختبرتها، ومن حسن الحظ أنها أعجبتني.

استخدمت الحفرة، ولم أجد التجربة مريحة لأنني اضطررت إلى الوقوف مباعدة بين ساقيّ حانية جسدي في وضعيّة غير مألوفة، وخجلت أن يراني أحد في هذه الوضعية أنا التي لم أخجل وأنا ألبي نداء الطبيعة جالسةً على مقعد المرحاض أمام النّساء الأخريات. بعد ذلك، حملت المجرفة وطمرت فضلاتي كما طُلب مني، وتذمّرت من غياب المياه، فكيف لي أن أزيل القذارة، وكنت آمل ألّا أكون قد لطّخت نفسي. لكن في وقت لاحق، علّمتني أنثيا طريقة استخدام حفنة من الأوراق لتنظيف القذارة.

في النهاية، تغلّبت غريتا وفرنسيس على نفورهما من العودة إلى الملجأ، ورافقتانا في رحلات عدّة. أما النّساء الأخريات فانهمكن في ربطّ زوايا البطّانيّات ليصنعن من كلّ بطّانيّة حقيبة نضع فيها المعلبات واللحوم وأشياء مختلفة اعتقدنا أنها ستكون مفيدة. تشاركت امرأتان في حمل قدر من الماء إلى الأعلى، وتناوبنا على حمل القدور الثلاث حتّى لا تتعب إحدانا وتريق الماء ويضيع الجهد. هذه العملية، استغرقت ساعة من الوقت، وعندما غادرنا، بدا أن الشمس قد اجتازت ثلاثة أرباع طريقها إلى مستقرها الليلي، وتمنّينا أن نصل إلى الوهدة قبل حلول الظلام.

كنتُ أنا وأنثيا والمرأتان اللتان ساعدتانا منهكات، بعد أن صعدنا الدرج ونزلناه أكثر من عشر مرات، نحن اللواتي مضى علينا سنوات لم نسر فيها أكثر من عشرة أمتار فوق أرض مستقيمة، وبخطوات هادئة، لأنّ الجري لم يكن مسموحًا به. أدركت الأخريات ذلك، فساعدننا في

حمل بعض حمولتنا، وما إن لاحظت دوروثي أنني أتعثّر حتّى طلبت من إحداهنّ أن تساعدني في حمل حقيبتي، بيد أن هذا الأمر لم يحصل مرّة أخرى، لأنني سرعان ما صرت الأقوى، ربمّا لأنني أصغرهنّ سنًّا، ولأنني كنت أفضل مَنْ تأقلم مع الوضع الجديد لأنني ما عرفت وضعًا سواه.

كنا ننتعل صنادل تكشف عن أصابعنا، فتسلّل الحصى عبر المنطقة المكشوفة من الصنادل، وجرح أقدامنا وأعاق تقدّمنا. وحين حاولت مجموعة من النّساء السير حافيات، تبيّن لهنّ أنّ أقدامهنّ ستُجرح وتتقيّح، ثمّ تفتّقت قريحة لورا عن فكرة تمزيق شرائط من القماش من فستانها ولفّها حول قدميها، فقلّدناها جميعًا.

حين بلغنا أعلى التلّ، توقّفنا وألقينا نظرة إلى الخلف، فلم نرَ أيّ حركة في تلك المساحة الشاسعة والقاحلة، وبعد أن استرحنا لفترة قصيرة، عاودنا المشي، وظللنا بين الفينة والأخرى نلقي نظرة إلى الخلف. وبمجرّد أن اختفى الكوخ عن الأنظار، أردنا التوقّف، لكن غريتا، التي كانت تتمتّع بنظر حادّ، قالت إنّها تظنّ أنّ هناك ماء في الأسفل لأنها رأت شيئًا يتلألأ بين الشجيرات. سرتُ وأنا أنظر أسفل قدميّ، حتّى لا أجرحهما مع أنهما ملفوفتان أصلًا بقطعتي قماش. في وقت لاحق، تبيّن ليّ أنّ نظري حاد مثل نظر غريتا حين رأيت لمعانًا بين الشجيرات، إلا أنني لم أكن أعرف ما هو النّهر لأتبيّن أنه يجري بينها. رفع احتمال وجود الماء من معنوياتنا فتابعنا المشي، وبعد نصف ساعة، تبيّن أنّ غريتا لم تكن مخطئة؛ فحططنا رحالنا، وخلعنا فساتيننا وركضنا نحو المياه الضحلة الباردة.

كانت المرّة الأوّلى التي استحم فيها، وأغواني الماء إلى درجة أنني لم أرغب في مغادرته، وحين استلقيت في مجرى الجدول، طفا جسدي

لفترة، وكنتُ سأغفو وأنا في هذه الوضعية لو لم أشعر بالبرد.

لم نشعر بالجوع لأنّ التعب غطّى على ما عداه، بعد أن اغتسلنا واسترحنا، أشعلنا نارًا. اشتعلت الغصينات بسرعة، وما أن استحالت جمرًا حتّى وضعت النّساء فوقها شبكة صنعنها من الأسلاك ليشوين اللحوم عليها، وللمرّة الأوّلى تناولت طعامًا غير مسلوق. كان مريئًا، فلم أرغب بالتوقف عن التهامه، وأعتقد أنني غفوت وفمي محشوّ بالطعام.

استيقظت في منتصف الليل، ولم أستطع رؤية يدي لأن الظلام كان دامسًا مع أنني فتحت عينيّ على وسعهما. بدت لي السّماء كتلة مظلمة ومخيفة إلى حدّ ما، فشعرت بالضيق، واستغرقني الأمر وقتًا طويلًا حتى أدركت أنها ملبّدة بالغيوم. لكنّ نفسي عادت للانشراح حين تذكّرتُ أن النّساء أخبرنني عن نجوم السّماء وأبراجها ومجراتها البعيدة، فتهيّبت الفراغ اللّانهائي، واعتراني الكدر مجدّدًا، وشعرت بالدوار، وتوجست السقوط في هذا الظلام الغريب، والدوران في العدم اللّا محدود، فتكوّرت على نفسي، وتذكّرت السوط حين كدت ألمس المرأة المستلقية إلى جانبي، فأجفلت وتراجعت وقد غاب عن بالي أن الحرّاس لم يعد لهم وجود. لكن أيًّا يكن الأمر لم تكن ملامسة الأجساد تروق لي. بعد قليل، ألقت إحداهن بطّانيّة فوقي، فوجدت تصرّفها غريبًا ومؤثّرًا في آن.

استلقيت ساكنة بين النّساء، رفيقاتي في الحياة، واستمعت بترقب إلى النّسائم الخفيفة وهي تُحرّك أوراق الأشجار فتصدر حفيفًا، وهو صوت جديد لم أسمعه من قبل. فأنا الآن في عالم جديد كل ما فيه غريب، وكل تجاربه دروس أشعرتني بفرح غامر.

أيًّا تكن التحدّيات التي تنتظرني، فإنّ نشوة التحرّر والاكتشاف غمرتني، فأيقنت مثل الأخريات أن الموت بكل قسوته أفضل من العودة

إلى القفص، وفكّرت في تفسير لصمود روحي طيلة سنوات الأسر، وبعد طول تفكير استنتجت أنّ النّساء صمدنَ أيضًا ولم يمتنَ، وهذا دليل على أنّ الأسى لا يقتل. وأنا أنظر إلى السّماء التي شحب لونها شيئًا فشيئًا، رأيت الشمس تشرق، وصارت أكثر إشراقًا حين تفرّقت السحب، فتلوّنت السّماء بعد شحوب الفجر بالعسجد، وأضافت زقزقة العصافير وتحليقها بهجة على هذا المشهد البديع.

لم يمرّ وقت طويل حتّى استيقظت النّساء واحدة تلو الأخرى، مندهشات وكأنهنّ نسينَ وهنّ نائمات أنهنّ تحرّرنَ من الأسر، فضحكنَ وقهقهنَ، ثمّ قصدنا جميعًا النّهر لنغتسل. في وقت لاحق توسّعنا في اكتشاف النّهر، فعثرنا على مكان أكثر عمقًا يتيح السباحة، فأمسكت بي أنثيا وحاولت أن تعلّمني نوعًا من السباحة يُطلق عليه اسم سباحة الصدر، لكن خوفي حال دون اتباعي لتعليماتها، فخدشت الصخور ركبتي، إلّا أنني استطعت في النّهاية أن أعوم، واستمتعت بالتيار الخفيف وهو يجرفني.

بعد السباحة جلبنا قليلًا من المعلبات، وأشعلت النّساء النّار وشوينا البطاطا بعد أن حصلنا على الجمر. على هذا النّحو، أمضينا جُلّ يومنا الأوّل، نأكل ونغتسل في النّهر ثمّ نستلقي تحت أشعة الشمس التي لم تكن حارقة. لكنّ الخوف من الحرّاس لم يفارقنا لحظةً. لذا، قررنا أن تواظب اثنتان أو ثلاث منّا على مراقبة الكوخ من أعلى التلّ. وحين حان دوري للمراقبة، اقترحت أن أراقب بمفردي بعد أن تعرفت إلى متعة أن يمضي المرء وقتًا بمفرده.

في ذلك المساء، عادت الأسئلة لتطفو على السطح مجدّدًا: أين كنّا؟ وماذا سنفعل؟ وهل نحن على كوكب الأرض؟ وحين سألتني النّساء عن

الوقت الذي فصل بين غروبي الشمس قلتُ اثنتين وعشرين ساعة ونصف الساعة حسب توقيت قلبي، وبدا جليًا أنّ إجابتي لم تكن مفيدة، لأنه لم يكن لدينا أدنى فكرة عن معدّل نبضات قلبي.

لم يسبق لأيّ واحدة من النّساء أن شاهدت مثل هذه البرية القاحلة في ظلّ مناخ معتدل كهذا، لكنهنّ اعترفنَ جميعًا بأنهنّ لم يكنّ كثيرات الأسفار، ولم يهتممنَ في الماضي كثيرًا بالجغرافيا وأنّ معرفتهنّ كانت محصورة في محيطهنّ المباشر، فهنّ قلما غادرنَ المدن التي أقمنَ فيها. بالطبع، شاهدن أفلامًا جرت أحداثها في بلدان لم يزرنَها، لكنّ الأرض كانت واسعة جدًّا، ومع ذلك استغربنا أنّ الغطاء النّباتي هنا قليل إلى هذا الحدّ ويقتصر على مجموعات صغيرة من الأشجار المألوفة المظهر مثل البلوط الأخضر وشجر البقس والصنوبر. أما أكثر ما أثار استغرابهنّ فهو الصعوبة التي واجهنها في تذكّر هذه الأشجار، بالإضافة إلى تمييز أعشاب غير معروفة بالنّسبة إليهنّ وغياب الأزهار البرية. في النهاية عزون الأمر إلى أننا لم نكن في فصل تفتّح الأزهار، ولكنهنّ لم يستطعن إيجاد تفسير لعدم وجود حشرات.

كنّا في سهل، ولكن حين نظرنا إلى الأفق بدت التضاريس أكثر ارتفاعًا، لكنها لا ترقى إلى مستوى الجبال. هذه التضاريس الغريبة وهذه الطبيعة الأغرب جعلت النّساء يتساءلنَ إن كنّا على كوكب الأرض.

في وقت ما عقدت النّساء العزم على البحث عن مدينة. لكن ماذا سيحصل إن كانت المدن تخضع لسيطرة الحرّاس؟ هل سيأسرنا الحرّاس مجدّدًا؟ لم يكن للافتراضات حدود، وتبيّن أنّ لا جدوى منها، لأننا لم نعثر على أيّ مدن.

لم نستعجل التحرّك، فقد جعلتنا متعة التواجد في الهواء الطلق،

والاستحمام في النّهر، وتناول الطعام بقدر ما نشاء، كسولات. فقضينا أيامًا عدة في مناقشات خاملة، لم أعد بعدها أشعر بالعداء تجاه النّساء فقد خمدت جذوة غضبي، وما عادت مراجل الكراهية تغلي في داخلي، وكففت عن البحث عن الأخطاء فيهنّ، بعد أن ثبت لي، بما لا مجال للشك فيه، أنهنّ، باستثناء أنثيا، لا يستطعنَ التفكير لفترة طويلة، أو التركيز في مناقشة. في وقت لاحق، شرحت لي أنثيا أنها هي الأخرى لا تستطيع التفكير بوضوح لأنها عانت قبل الأسر من الإدمان على المخدرات.

بعد موت رفيقاتي كلّهنّ تبيّن لي أنني لم أكن أكثر فطنة منهنّ. فعلى سبيل المثال، لم أُفكّر بعد العثور على الدرب، أن أتبع كلّ اتجاهاته.

كما سبق لي وذكرت، لم تحظَ رفيقاتي بتعليم كافٍ، وقبل أن يؤسرن كنّ إمّا ربات منازل وإمّا عاملات. فمنهنّ من عملت محاسبة، ومنهنّ من عملت نادلة، وعملت كثيرات منهنّ مساعدات في المتاجر. أما أنثيا فعملت على الآلة الكاتبة قبل أن تقرّر دراسة التمريض، وشاء القدر أن تؤسر بعد تخرّجها مباشرة، ولكن الوقت الذي أمضته في الأسر أنساها كلّ ما تعلمته. إن قلة التعليم، وغياب التنظيم، والافتقار إلى البصيرة لم يحل دون تأقلمهنّ مع الوضع الجديد، إلا أنهنّ لم يحاولن تطوير أي مهارة لم يكنّ بحاجة إليها، وهذا ما ألقى بمسؤولية إدارة المجموعة على كاهل دوروثي وأنثيا وبالطبع أنا.

في السابق، كرهتُ دوروثي لأنها لم تحظَ بالسلطة إلّا لأنها الأكبر سنًّا، ولكن كرهي انقلب احترامًا حين لاحظت بصيرتها وأدركت أنّها تستقي سلطتها من حكمتها، فهي تتدخّل في كل مرّة تحتدم فيها النقاشات بين النّساء وتتشعب فتقاطعهنّ بلباقة وتقدّم اقتراحًا مفيدًا. مع ذلك، لم أُحبّ تلقّي الأوامر منها، وفضّلت أن أكون مثلها وأفكّر في المستقبل.

بعد أيام على تحرّرنا، تبيّن لنا أنّنا استهلكنا نصف مؤونتنا، فقالت دوروثي: «يجب أن نعود ونجلب مزيدًا من الطعام، ونقوم بجرد لمحتويات الملجأ. وبعدها سنقرّر البقاء أو المغادرة». حين كانت تستخدم نون الجماعة كانت تقصد بها نفسها وأنثيا، لكنني أعرف أنها كانت تقصدني أنا الأخرى.

توجّهت إلى الملجأ أنا وأنثيا وخمس عشرة امرأة، ولكنّ النّساء اشترطن عدم النزول إلى الأسفل، وأن تقتصر مهمتهنّ على حمل كلّ ما نحضره. في البدء، طلبنا منهنّ مراقبة المكان، بيد أنني اعتبرت الأمر عديم الجدوى، وهذا ما أخبرت أنثيا به.

قالت أنثيا: «ربما أنتِ محقة، لكنني سأشعر بمزيد من الراحة إن راقب أحد المكان من الأعلى، فنحن لا نعرف سبب رحيلهم، ولا يمكننا الجزم بأنهم لن يعودوا». كان كلامها منطقيًا، لكن يستحيل الركون إلى المنطق في عالم لا تعرف له قواعد.

ما إن اقتربنا من الكوخ، حتّى ران الصمت. لم يسبق لي أن كنتُ كثيرة الكلام، لكنني تعوّدت العيش وسط هدير مستمر من الثرثرة، والآن كل ما أستطيع سماعه هو صوت الحجارة وهي تُسحق تحت أقدامنا. قالت أنثيا: «إن كنا سنرحل، فنحن بحاجة إلى أحذية أفضل من هذه الصنادل التي لن تصمد في أقدامنا لأكثر من يومين».

في غمرة الفوضى التي رافقت مغادرتنا، لم تتنبّه أيّ منّا إلى الغرف التي مررنا بالقرب منها، بيد أنني أذكر رؤية أحذية تشبه إلى حدّ كبير تلك التي انتعلها الحرّاس.

قالت غريتا: «نحن أربعون امرأة، ومن تمشي منا حافية سيتصلّب باطنا قدميها. لذا، علينا...». لكنّها لم تكمل جملتها، ولم تحاول أيٌّ من

النّساء إكمالها كما درجت العادة. كنا نقترب من الكوخ، وجعلَنا نذير شؤم معيّن صامتات فبطّأنا خطواتنا من دون قصد منّا.

قالت آنا بيل حين وصلنا الكوخ: «لم يتغيّر شيء منذ رحيلنا».

كانت الريح خفيفة، وحين توقّفنا عن الحديث وظللنا ساكنات، سمعناها تهمس النغمة نفسها في آذاننا. في ذلك اليوم، كانت السّماء مرتفعة وقد عادت السّحب البيض تغطّيها، ولاحظت أنّ النّساء كنّ يرتجفنَ.

حثثتهنّ قائلة: «لنتابع».

بعد أن أمضينا وقتًا في الهواء الطلق، شعرت بالاشمئزاز من الرائحة التي شممتها بعد أن نزلنا ثلثي الدرجات، فشرحت لي أنثيا: «إنها رائحتنا، إنّ نظام التهوئة يوفّر هواءً صالحًا للتنفّس، ولكنه لا يتخلّص من الرائحة». ثم سمعت ضوضاء نظام التهوئة؛ إنها الضوضاء الصاخبة نفسها التي سمعتها طوال حياتي، والآن أدركت أن ما شعرت به من انزعاج منذ أن تحررنا يُعزى لافتقادي لها.

لاحظتُ أنّ المصابيح ظلّت منارة: «هل هذا طبيعي، هل كان يجب إطفاء كلّ شيء وإيقافه؟».

«في هذا العالم، كيف يمكننا معرفة ما هو طبيعي؟ حسنًا، ربمّا يكون عدم إطفاء أنوار المصابيح وإيقاف نظام التهوئة أفضل».

لم تُطفأ أنوار المصابيح على مدى حياتنا في الأسر، ولم تُطفأ بعد تحرّرنا.

لم ترغب أيّ منا في دخول الغرفة الكبيرة التي تضمّ القفص، ولكننا أرغمنا أنفسنا على ذلك قبل أن نفعل أيّ شيء آخر، حتّى لا نفسد متعة الاستكشاف. عندما رأينا أنّ كل شيء لا يزال كما تركناه، تلاشى قلقنا. كنّا

نأمل أن نأخذ الفُرش معنا، لأننا كنّا ننام على الأرض، وكنّا نتمازح بالقول إننا فقدنا الراحة الوحيدة التي كان القفص يقدّمها لنا، ولكنني اعترضت: «إنها ثقيلة للغاية، ولا أرى جدوى من حملها إذا قررنا المغادرة، فنحن لن نحتاج إليها إلّا إذا قرّرنا البقاء في مكاننا».

«وهذا سيكون سخيفًا. يجب أن نبحث عن الحضارة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ما الذي تقصدينه بالحضارة؟».

نظرت أنثيا إليّ: «ماذا تقصدين بسؤالك؟».

رفعتُ كتفي: «فكّري في الأمر. هذا الكوكب ملك لهم، فمَنْ سنجد غير الأشخاص الذين أسرونا؟ وأنا لست متشوّقة لمقابلتهم».

«هل تعتقدين أنّنا على كوكب آخر؟».

ما طرحتُه لم يكن سؤالًا، بل بيان يعكس حالة الضّياع وعدم اليقين في داخلي. دخلنا إحدى الغرف التي تقع إلى يميننا؛ الغرفة التي تحتوي على طاولة وعدد من الكراسي. اصطفت على أحد جدرانها ستّ خزائن طويلة وضيّقة، أطلعتني أنثيا على اسمها، وأخبرتني أنها توجد في أماكن العمل ليحتفظ فيها العمال بحاجياتهم. كانت الخزائن مفتوحة، ووجدنا في كلّ خزانة حذاءً وقميصين وبنطالين ومجموعتين من الملابس الداخلية. أخرجت أنثيا الأحذية ووضعتها على الطاولة، وقالت: «قد تكون هذه مفيدة للغاية. لكنها ليست كافية».

وجدنا في أحد الجوارير إبرًا وخيوطًا وأزرارًا وسحّابات، بالإضافة إلى لوازم أخرى لم أعرف ما هي، فشرحت لي أنثيا مجدّدًا: «إنها لوازم إصلاح الملابس». وأردفت «لا صور، ولا رسائل، ولا متعلّقات شخصيّة. إنّ غيابها منطقي، لأن الحرّاس لم يعيشوا هنا. ربمّا احتفظوا بكل ذلك في مكان آخر. لقد غادروا بسرعة، ولم يكن لديهم الوقت لجمع أغراضهم». توقّفتْ

عابسة.

«ما الأمر؟».

«لكن إذا لم يعيشوا هنا، فلماذا تركوا قمصانهم وأحذيتهم؟».

رفعتْ كتفيها في إشارة إلى عجزها عن معرفة الإجابة.

دخلنا مخزن المعلّبات وبعد ذلك وجدنا في الجهة المقابلة منه ثلاجة. توقفت أنثيا للتحقّق من مقياس الحرارة على الباب. وقالت: «ناقص خمسين! كان يفترض بهذا الطعام أن يدوم لفترة طويلة جدًّا. ربمّا لم تكن الإمدادات الطازجة تصل دائمًا».

أسرعنا بأخذ ما نحن بحاجة إليه، وشعرت بالبرد الشديد؛ وهو شعور جديد تمامًا بالنّسبة إليّ ووجدته مؤلمًا. عندما رأتني أنثيا أرتجف، أحضرت بطّانيّة ودثّرتني بها.

«يجب أن تحرصي على البقاء بصحّة جيدة، فأنا لم أعثر على أدوية هنا. على الرغم من أنهم كانوا يعطوننا دائمًا حبوبًا! اجلسي واستريحي، سأسخّن قليلاً من الماء».

في الغرفة الأخرى، رأينا موقدًا صغيرًا وقدرًا أصغر من تلك التي كنّا نستخدمها. بحثت أنثيا عمّا تُنكّه به الشراب الذي تُعدّه لي، فتفاجأت بالعثور على عدد من أوراق الشاي في قاع علبة. لم أستسغ مذاق الشاي، لكنني شربته مكرهة فبعث فيّ الدفء.

بعد ذلك، عدنا إلى الغرفة الأوّلى. بحثت أنثيا عن قهوة أو مزيد من الشاي، لكنها لم تجد شيئًا. لم أستطع أن أُساعدها في هذا الأمر، لأنني لم أكن أعرف القراءة، ولم تعنِ لي الملصقات شيئًا.

وجدنا كثيرًا من الأدوات التي لم نكن بحاجة إلى أي واحدة منها، ولم نعرف سبب تخزينها هناك. لقد ذكرتُ سابقًا وجود المطرقة والمسامير،

لكن كانت هناك أيضًا المناشير والمقاشط وجميع أنواع الكماشات والمعاول والمجارف وكثير من قواطع العلب. ذكرت أنثيا أشياء أخرى لم أعد أذكر أسماءها واستخداماتها، لأنّه لم تتح لي الفرصة لاستخدامها.

أخذنا المناشير والمجارف، واكتشفنا مخزونًا ضخمًا من البطّانيّات تشبه تلك التي دثّرتني بها، ولكنها جديدة؛ ربمّا كانوا يحتفظون بها لاستعمالها عند الحاجة.

صاحت أنثيا: «إذا احتسبنا معدّل استهلاكنا لها فستكفينا لمئتي عام».

استخدمنا البطّانيّات لحزم الأشياء التي سنأخذها معنا. لم نتمكّن من حمل كلّ ما نحتاج إليه، فهناك أشياء كثيرة وكانت أجسامنا ضعيفة بعد أن مرّت سنوات لم نفعل فيها شيئًا يُذكر.

إنّ صعود مئة درجة صعب بحدّ ذاته، فما بالكم بصعودها مع مثل هذه الحمولة؟ اقترحتُ: «يمكننا استخدام عربة إن استطعنا أن نصعد بها الدرج». كانت العربة ثقيلة وعريضة، وكان الدّرج مستقيمًا، لكنّ وزنها جعلنا نتهيّب المهمّة.

«لنحاول».

بعد عشر درجات، بدا عجزنا جليًا؛ لقد رفعنا العربة عن الأرض حتى لا نتلف عجلاتها فلا تعود صالحة للاستخدام. ففكّرنا في غريتا فهي امرأة شجاعة وقوية، ومن دون مساعدتها لن نستطيع إخراج العربة. صحنا لها، وكنّا واثقات من أنّ النّساء ينتظرننا بالقرب من المدخل، فانضمّت إلينا سريعًا. صعدنا ببطء، وتوقّفنا بين الفينة والأخرى حتى لا نستنزف طاقاتنا، وما أن رأت فرنسيس وآنا بيل مدى تعبنا، تغلّبتا على مخاوفهما ونزلتا لجلب اللحوم التي حزمناها والتي كانت ستكفينا ليومين، وعندها سنعود ونجلب إمدادات جديدة. لقد تركنا الفُرش خلفنا لأنها كانت ثقيلة

للغاية، ولكنني أحضرت معي كرسيًّا وجدته قرب باب الثّلاجة لتجلس عليه دوروثي.

كانت العودة بطيئة للغاية، لأنه كان علينا أن نُمهّد طريقًا للعربة. تقدّمت آنا بيل المجموعة لتطلب المساعدة من النّساء. وحين أعربت إحدى النّساء عن قلقها من أنّ هذا الطريق قد يدلّ الحرّاس إلى مكاننا، استبعدت أنثيا وغريتا الفكرة، فوافقتهما جميع النّساء. كان هناك دلائل تقطع الشكّ باليقين، مثل الغياب التامّ لأيّ أثر لهم في الغرف المهجورة.

نظّمنا أنفسنا بسرعة في فرق: تقدّمت بعض النّساء وأزلنَ الحجارة، بينما تبعتهنّ أخريات ومهّدنَ الأرض بالمجارف. وكلما واجهنا عائقًا مهما يكن صغيرًا، كنّا نوقف العربة حتى تُمهَّد الطريق. ولأننا أفرطنا في تحميل العربة، كان من الطبيعي أن تتشارك نساء عدة في دفعها. وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى مقصدنا، كانت النّيران مشتعلة وكان اللحم المشوي ينتظرنا.

حين جلست دوروثي على الكرسي لتتناول الطعام وقد تجمّعنا حولها، قالت: «سنغادر لأننا لا نستطيع الاستقرار هنا والعيش على مؤونة الملجأ مثل الطفيليات، يجب أن نظلّ بشرًا. أريد أن أعرف أين نحن؟ ومَنْ سجننا؟ ولماذا فعل ذلك؟ لا أريد أن أموت وأنا جالسة على كرسيّ وسط مكان لا أعرف أين يقع». كانت كلماتها هذه وصفًا لما رسمه القدر لها. ثمّ تابعت: «لدينا بطّانيّات وكثير من الخيوط. سنصنع من البطّانيّات حقائب ظهر، وستحمل كل امرأة قدر ما تستطيع. لا يهمّ إن توجهنا شمالًا أو جنوبًا، لأننا لا نعرف في أيّ اتجاه يكمن ما نبحث عنه، ولا نعرف إن كنا سنشعر بالسعادة عند العثور عليه. ستعود غريتا وأنثيا والطفلة إلى الملجأ لإحضار المعلّبات، يجب أن نقيّم وزن ما نأكله كلّ يوم، ونرى

إن كانت كل امرأة تستطيع أن تحمل طعامًا يكفيها لشهرين. سنمشي وسنبني قدرتنا على التحمّل تدريجًا، وبعد فترة سنكون قادرات على اجتياز مسافة تتراوح بين اثني عشر إلى خمسة عشر كيلومترًا في اليوم، بحيث نقطع خلال شهرين نحو ستمئة كيلومتر إلى تسعمئة. في غضون ذلك لا بد أن نعثر على شيء، وإلّا...»

شعرت بالقشعريرة حين ران الصمت للحظة قبل أن تكسره أنثيا: «إذا أخذنا مؤنًا تكفينا لمدة شهرين، فلن نتمكّن من المشي إلا لمدّة شهر واحد، فعلينا أن نفكّر في العودة».

لم تنبس أي واحدة منّا ببنت شفة، وكأنّنا لم نتقبّل فكرة أننا لن نعثر على شيء. في الليل، لم تكن هناك أنوار. ولكن في الماضي، كانت هناك دائمًا علامات على وجود بشري - الطرق والطائرات - حتى فوق الصحاري. لكنّ هذه السّهول الفارغة والسّماء الصامتة أوحت لنا بأننا في أرض غير مأهولة.

«سنغادر في غضون يومين، وغدًا سنصنع حقائب الظهر».

كانت السماء صافية في تلك الليلة. بعد غروب الشمس، وحين حلّ الليل، نظرتُ إلى نجوم السماء، وكانت أنثيا مستلقية على ظهرها، وعيناها مفتوحتان.

«هل أنتِ مستيقظة؟».

«لست متأكدة من أنّ هذه السماء هي السماء نفسها التي تعلو الأرض، فأنا لا أستطيع العثور على الدب الأكبر، وهو الكوكبة الوحيدة التي كنت أستطيع التعرّف إليها، في النّصف الآخر من الكرة الأرضية، كان بوسعنا أن نرى الصليب الجنوبي، ولكنني لا أستطيع التعرف إليه أو أن أستدلّ على موقعه».

في اليوم التالي، انهمكنا في العمل. وذهبنا مرات عدة إلى مخزن الطعام، وقسّمنا الأدوات والمجارف والأطباق إلى أربعين كومة. في غضون ذلك، خاطت النّساء حقائب الظهر، وجعلنَها متينة قدر الإمكان. أردنا أن نأخذ العربة، فتبيّن لنا أنها ستبطئ حركتنا كثيرًا. عندما تعود بي الذاكرة إلى الماضي، لا أفهم لماذا فكّرنا حينها بأننا يجب أن نحتفظ بها. بدا الأمر وكأننا جميعًا لدينا نذير شؤم بشأن ما ينتظرنا، ولكنّنا صممنا على إنكاره. شدّدت أنثيا على الاحتفاظ بالعجلات، وشرحت لي أن العجلات كانت أساس كلّ التقدّم البشري. في النّهاية، وجدتُ طريقة لتفكيكها، ووزّعنا قطعها على كل الحقائب. كذلك أخذنا الكرسيّ معنا.

كان تقدّمنا بطيئًا إلى حدّ ما بسبب دوروثي والمرأتين المسنّتين الأخريين؛ إليزابيث ومارغريت، وكان علينا أن نتوقّف كلّ ساعة حتى يسترحنَ. وعندما كنّا نصل إلى مرتفع، مهما يكن بسيطًا، كنّ بحاجة إلى التّوقّف للاستراحة أكثر من مرّة في أثناء صعوده. كنتُ دائمًا ما أتقدّم المسير لأستطلع ما يوجد خلف المرتفع، وكنت دائمًا أُصاب بخيبة الأمل، لأنّه لم يكن هناك سوى السهل؛ منخفض بسيط يليه مرتفع بسيط آخر.

كانت النّساء يرافقنني بنظراتهنّ، على أمل أن أرى منازل وطريقًا، أو أيّ إشارة على حضارة، لكنني في كلّ مرّة كنت أهزّ رأسي نافية. عبرنا ثلاث مجموعات كبيرة من المرتفعات والمنخفضات، وكانت الشمس تغرب عندما رأينا نهرًا آخر أصغر من الأوّل، وقرّرنا التوقف لقضاء الليل بالقرب منه.

شيّدنا مخيّمنا بسرعة؛ موقد مصنوع من الحجارة، وحفرة وسط عدد من الشجيرات لتكون مرحاضًا أحطناه بثلاث بطّانيّات للخصوصية. بعد ذلك، أكلنا بصمت، وكانت خيبة الأمل بادية على وجوهنا.

قالت أنثيا: «كان يُفترض بنا أن نتوقع أنهم بنوا السّجن في مكان بعيد حتّى لا يعرف أحد بوجوده».

على الفور تلقّفت النّساء ما طرحته أنثيا، في محاولة منهنّ لتحطيم جدار الحزن المسيطر، وسرعان ما وجدنَ طريقة لبدء مناقشة جديدة حول الموضوع القديم المتعلّق بأسرنا. بعد فترة، عاودنَ الضحك، وحين طَفَلَت الشمس، غنّت روز. فأذهلني غناؤها وأطرب أذنيّ، فأنا لم يسبق لي أن سمعت غناءً. صاحت آنا بيل: «انظرن إلى السماء كم هي جميلة!». فالتفتت كلّ النّساء لمشاهدة غروب الشمس. في حضرة الرّوعة غير المتوقّعة للألوان تلاشت البهجة الآنيّة التي أثارها غناء روز، وحلّ محلّها اندماج تامّ في المشهد. في البداية، لم يعنِ لي الأمر شيئًا، فأنا ما رأيت قطّ تلك الدرجات من اللون الوردي والأرجواني، وكان اللون الرمادي هو اللون الوحيد الذي رأيته داخل القفص. ترك غروب الشمس على صفحة الأفق خطوطًا طويلة من اللون الأرجواني الموشّح بالبنفسجي... وظهرت سحب ذات لون متناسق، واخترقها شعاع من الضوء الذهبي.

جعلني هذا المشهد أحبس أنفاسي، وكنت على وشك أن أسأل أنثيا ما الذي أراه عندما ارتفع صوت روز، واضحًا وقويًا، وكسر الصمت. شعرت بقشعريرة تسري في جسدي، وكأنها صدى لذكرى إثارة بعيدة، لكن هذه الإثارة استمرت وقتًا أطول، وفي النّهاية دمعت عيناي. غنّت روز لفترة طويلة، وردّدت النّساء الأخريات كلماتها.

اختفت الشمس واستقرّ الغسق فوق السهل. لاحقًا، وأنا نائمة، شعرت بذراعين تلمساننني، كانت أنثيا تلفّني ببطّانيّة. هذه المرّة، لم أتذكّر الحرّاس والسياط ولم أتراجع مذعورة، لكنني لم أستطع العودة إلى النّوم. شعرت بعدم ارتياح غامض. لقد شتّتت النّجوم انتباهي، فحدّقت

إليها لفترة طويلة. بدت لبرهة ثابتة، لكنها كانت تتحرّك ببطء شديد لدرجة أنني مللت من تتبع مسارها، خصوصًا أنّ صدى أغنية روز كان يتردد في أذنيّ.

مشينا لستة وعشرين يومًا، وكنّا ننهي كل يوم بمزيج من الحزن الذي يترافق مع غناء روز، التي لم تغنِّ الأغنية نفسها مرتين. في البداية غنّت أغاني تعرفها، وفي وقت لاحق صارت تغنّي أغاني من تأليفها، وبذلك اكتشفتْ في ذاتها موهبة لم تكن تعرف بوجودها. في اليوم السابع والعشرين، عندما توقّفنا لتناول الغداء، وفي الوقت الذي كانت فيه النّساء يحضّرن الطعام، تقدّمت كالعادة لأستكشف الطريق، وللمرّة الأوّلى لاحظت شيئًا وسط المنحدر الطويل الذي كنّا سنتّجه إليه بعد تناول الغداء. رأيت مبنى صغيرًا مربّع الشكل يشبه، إلى حدّ كبير، الكوخ الذي غادرناه، وهذا ما جعلني للوهلة الأوّلى أظنّ أنّنا سلكنا دربًا دائريًا أعادنا إلى النّقطة نفسها التي انطلقنا منها. لكنّ تضاريس الأرض كانت مختلفة، فلم يكن هذا الكوخ وسط السهل، ولم يكن بابه يطلّ صوب الجنوب. اندفعتُ إلى الأمام مسافة قصيرة، قبل أن أستدرك بأنه يجب عليّ إخبار الأخريات. عدت وأنا ألوّح بيديّ بجنون، فتركت النّساء القدور الموضوعة على النّار وركضن صوبي. في تلك اللّحظة، أدركت أنني صرتُ مقرّبة منهنّ، لأنّني أجبرت نفسي على انتظارهنّ قبل استكشاف المكان وحدي.

صعدنَ راكضات، وتحركت دوروثي بسرعة حتّى لهثت. حين ظهر عليها التعب أسندتها أنا وأنثيا وهي تنزل المنحدر، وشعرتُ بالرّضا لأنّ مساعدتي لها ساعدتني في السيطرة على نفاد صبري.

حين وصلنا، وقفنا لبرهة أمام الباب المفتوح ونحن نشعر بالرهبة والتردّد: ماذا لو كان هناك حرّاس؟ تقدّمتُ وجذبتُ الباب صوبي؛ كانت

مفصّلاته صدئة، وحين جذبته بقوّة انفتح مصدرًا صريرًا قويًّا. رأيت درجا ومصابيح منارة وفاحت من الأسفل رائحة كريهة. دخلت، وتبعتني أنثيا ودوروثي، نزلنا الدرج ولم نتفوّه بكلمة، وبدأ شعور بما ينتظرنا يُسيطر علينا.

بدأت الرائحة الكريهة تزداد مع كلّ درجة، وبعد أن نزلنا نصف الدرجات ما عادت الرائحة تُحتمل. كانت النّساء الأكثر شجاعة خلفنا مباشرة، وكنّا نستطيع سماع أصواتهنّ. توقّفت دوروثي، ومزّقت الطرف السفلي من فستانها، وصنعت منه قناعًا ضغطته على أنفها، فقلّدناها جميعًا. بالكاد خفّف القناع من الرائحة، لكنّ الأقنعة أشعرتنا بشيء من الحماية. تابعنا النّزول، ونحن نتنفّس بالحدّ الأدنى. صمتت النّساء، ولم يُسمع صوت سوى صوت خطواتنا. وحين وصلنا أسفل الدرج كان الباب الخشبي المزدوج الضخم مفتوحًا، كما في القفص الذي تحرّرنا منه بعد أن انطلقت صافرة الإنذار. وما إن عبرتُ الباب حتّى تجمّدت في مكاني، فقد حال رعبي دون تحركي.

كان النّور خافتًا، لكننا رأينا القفص: كانت جثث النّساء موزعة على الأرض. بدا الأمر وكأنهنّ في كل مكان، مستلقيات على الفُرُش، متكدّسات بعضهنّ فوق بعض، وقد تمسك عدد منهنّ بالقضبان. وكانت فساتين عدد منهنّ ممزقة في الوقت الذي كانت فيه الأخريات عاريات، وكنّ في أوضاع مخيفة، وكانت أفواههنّ وأعينهنّ مفتوحة من شدة العذاب الذي مررن به، أما أيديهنّ فكانت متصلّبة وكأنهنّ قاتلن وقتل بعضهنّ بعضًا خلال الجنون الذي أزهق أرواحهنّ.

هنا، انطلقت صفارة الإنذار في منتصف اللّيل المصطنع، وكان الباب مغلقًا، ولم يكلّف الحرّاس أنفسهم عناء فتحه. ومع أن النّساء حاولن الهرب إلّا أنهن متن يأسًا، قبل وقت طويل من موتهنّ جوعًا.

كم من الأيام أمضين متشبّثات بالقضبان بكلّ ما تبقّى لديهنّ من إرادة من دون طعام، وهن يشعرن بالغضب واليأس، ويحاولن فتح القفل من دون مفاتيح أو أدوات حتّى نزفت أصابعهنّ؟ ثم ينهضنّ مرة أخرى لمهاجمة الفولاذ بأيديهنّ العارية صارخات، باكيات، مذهولات. في بعض الأحيان كنّ يستعدن صوابهنّ فيتأمّلن مصيرهنّ وهنّ يحاولن الفرار منه غاضبات، وها هو المطاف ينتهي بهنّ منتفخات، متعفّنات، يأكلهنّ الدود، وتنبعث منهنّ روائح كريهة. لقد وجدنا أنفسنا أمام مشهد غريب؛ إنه صورة عن المصير الذي كان ينتظرنا، ما لم يقف الحظ إلى جانبنا.

انضمّت إلينا رفيقاتنا، فأبطأنَ بعد أن كنّ مسرعات ثمّ توقّفنَ تمامًا. تراجعتُ أنا وأنثيا ودوروثي صوب جدران الملجأ، بعيدًا قدر الإمكان عن القفص. كنّا أربعين امرأة حيّة يحدّقن إلى أربعين امرأة ميتة. وقفنا في مكاننا وقتًا طويلًا، وقد أخرسنا الخوف الذي نشعر به والرعب الماثل أمامنا، ثمّ ركعت دوروثي وسمعتها تقول بهدوء: «أيّتها المقدسة مريم، صلّي لأجلنا نحن الخطاة المساكين...»

في وقت لاحق، أخبرتنا أنها استحضرت هذه العبارة من طفولتها، عندما علّمتها جدّتها الصلاة المسيحية من دون علم والديها. ركعت النّساء الأخريات أيضًا وردّدن ما قالته، وكأنّ الرعب أعاد للطقوس القديمة معناها. تردّد صدى الكلمات فوق الجثث المتكدّسة فعزز من رعب المشهد. فجأة سمعنا روز ترتّل بصوتها العذب والجهوري، وعلى الرّغم من أنني لم أفهم كلمة واحدة من ترتيلها، إلّا أنّ النّبرة كانت بطيئة وحزينة وعميقة لدرجة أنّ الرعب في داخلي تحوّل شجنًا، ولفّ الحزن قلبي وسكن وتينه. بعد أن أنهت روز ترتيلها، تحركنا ببطء شديد، واحدة تلو الأخرى، وغادرنا بصمت.

في ذلك المساء، أوضحت أنثيا أنّ روز رتّلت للموتى باللغة اللاتينية، وهي لغة ما عادت مستعملة منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا إلّا في المناسبات. لم أفهم كلمة ممّا رتّلته، كما لم أفهم ما هي المناسبات أيضًا، ولكنّ من يقرأ هذه الصفحات لا بد من أنه سيفهم.

لم نبرح مكاننا طوال ذلك اليوم، وعندما عدنا إلى المخيّم، لم نستطع تناول الزاد، فجلسنا لساعات صامتات، وبعد أن أفلت الشمس اكتفينا بتناول ما يقيم أودنا، وبعد ذلك عاودنا التحدث.

بخوف تجاوز الذعر وبلغ حدّ الرعب أدركنا حقيقتين؛ الأولى أننا لسنا وحيدات، وأنّ هناك ملاجئ تشبه ملجأنا وربما تتطابق معه. أما الحقيقة الثانية فهي أنه لم تكن لدينا فكرة عمّا جرى لنا. وبعد أن شعرنا لبرهة أنّ اكتشافنا هذا سيُلقي شيئًا من الضوء على ما حدث، تبيّن لنا أنه لم يزد الأمر إلّا غموضًا.

الآن، ربمّا أستطيع أن أُفسّر ما حدث بكلّ بساطة: لقد وجدنا أنفسنا فجأةً في قلب فوضى عارمة، ربمّا كنّ أربعين امرأة، وربّما ظننّا للوهلة الأولى أنّ عددهنّ مساوٍ لعددنا، لكن في الواقع نحن لم نعددهنّ، وعندما فعلتُ ذلك في اليوم التالي، وجدتُ أنهنّ تسعٌ وثلاثون فقط، مع أنّ عدد الفُرش كان أربعين. ربمّا ماتت إحداهنّ وأُخرجت جثّتها من الملجأ قبل ذلك اليوم الذي انطلقت فيه صفّارة الإنذار. في وقت لاحق، عندما تباحثنا في الأمر، أكّدنا على أنهنّ أربعون، لشعورنا بأنهنّ مماثلات لنا، ليس بالعدد فقط، بل بسوء الحظ أيضًا.

دقّقتُ النّظر باحثةً عن مجموعة المفاتيح علّني أجدها على الأرض، أردت أن أفتح القفص لنُخرج الجثث وندفنها في السهل، لكنني لم أجد المفاتيح. وعندما حاولنا تحطيم القضبان بالقوّة بواسطة الأدوات التي

أحضرناها فشلنا، ربمّا لأن القضبان صلبة جدًّا، وربّما لأننا لم نعرف كيفية استخدام هذه الأدوات. في النّهاية، أغلقتُ وأنثيا الباب المزدوج الكبير، وكانت هذه هي الخدمة الوحيدة التي استطعنا تقديمها لهنّ.

وددنا أن نبني لهنّ ضريحًا، وأن نترك فيه رسالةً توضّح أنّ أربعين امرأةً يرقدن خلف هذه الباب الخشبي، مُتنْ لسببٍ مجنونٍ وغير معروف، لكنّنا لم نمتلك ما نكتب به. وكان الخشب قاسيًا جدًا فلم نستطع الحفر عليه. بعد أن جردنا محتويات الغرفتين، كما فعلنا في الملجأ السابق، وجدنا الأشياء نفسها، بما في ذلك الأحذية، فسررنا بما عثرنا عليه، خاصّة وأنّ صنادلنا كانت في حالةٍ يُرثى لها. وكما في المرّة السابقة، تناولنا اللحوم، وخزّنّا المعلبات.

بعد ثلاثة أيام، تابعنا طريقنا والصدمة تسيطر علينا؛ فكانت الأحاديث قليلة، والأمسيات صامتة باستثناء غناء روز ومشاركة الأخريات لها. أظنهنّ رفضنَ التفكير، كي لا يواجهنَ ما لا مفرّ من مواجهته، وحتّى لا يتسرّب اليأس إليهنّ. ربمّا كنّ يحلمنَ بالعثور على المدن وعلى الحضارة، أمّا أنا فلم أتوقّع العثور على أي شيءٍ سوى الأقفاص والملاجئ، وأظنّ أنّ هذا التفكير بدأ ينتقل إليهنّ أيضًا.

لم أعرف العالم الذي وصفنَه لي، ولم أستطع تخيّله، ولم يعد يفاجئني عندما لا أصل إلّا إلى الملاجئ بعد محاولات كثيرة للهروب منها؛ فأنا لم أظفر بصورة واضحة عن أي شيءٍ آخر، لكنني واثقة من أنّ كآبة رفيقاتي انتقلت إليّ وأثرّت فيّ، وهذا ما أثبط عزيمتي على المضي قُدمًا.

كانت غريتا هي من رصدت الملجأ الثالث، فأبطأنا خطواتنا قليلًا، لأنّ مخاوفنا كبحتنا، ولم يحدُنا أمل كبير، ونحن ننزل الدرج، في أن يكون

القفص مفتوحًا، ولا أن تكون ساكناته قد فررنَ، ولا أن نلتقي بهنّ ذات يومٍ في السهول.

لكنّ الرائحة الكريهة نفسها استقبلتنا.

توقّعنا أن نجد نساءً، لكننا وجدنا هذه المرّة رجالًا، وقد حاولوا الهروب أيضًا، وتمكّنوا من زعزعة أحد المرحاضين وسحب بعض المعدن منه لصنع أدواتٍ لفتح الأقفال، لكنّهم واجهوا معوّقات كثيرة أحبطت مساعيهم. صحيح أنهم ثنوا القضبان، إلا أنهم لم يستطيعوا قطعها، ومع أنهم زعزعوا حوض الخزف إلا أنهم لم يستطيعوا تحطيمه. أضف إلى ذلك أنّ الجثث تناثرت في كلّ مكان، وكما هو الحال في الملجأ السابق تبيّن أنّ نظام التهوئة لا يزال يعمل.

بدأت الرائحة شيئًا فشيئًا تتلاشى، فرأينا جثثًا منتفخة وأخرى متحللة، ولكن الغريب أنّ بعض الجثث كانت عارية في حين غطّت جثث أخرى قمصان وبناطيل ممزقة خيطت من القماش الخفيف نفسه الذي اقتُطعت منه ملابسنا. توزّعت الجثث في شتى أنحاء القفص، وفي كلّ الأوضاع، من دون أدنى احترام لإنسانيتها، وكنّا نحن النّساء شاهدات حزينات على مأساةٍ لا نستطيع فهمها. بكت روز ورفضت النّزول، وبالتالي لم تحظَ هذه الجثث بأيّ مراسم وتراتيل. أخذنا من خزائن المخزن ما وجدناه مفيدًا وغادرنا على الفور، ومشينا أطول فترةٍ ممكنة، كي ننقل مخيّمنا بعيدًا عن أيّ مقبرةٍ جماعية.

بقينا على هذا الحال لأشهر، نودّع مقبرةً جماعية لتستقبلنا أخرى، فأحكم اليأس قبضته علينا، وظننّا أننا لن نصل إلى مدينة على الإطلاق. وهكذا تضاءلت توقّعاتنا شيئًا فشيئًا، وانحصرت آمالنا في أن نعثر ذات يوم على قفص مفتوح، وهذا ما حملَنا على التفكير في ترك دليل

يشير إلى الآخرين، إن وُجِدوا، إلى أننا زرنا هذه المقابر ومررنا بها. كنّا نُمهّد الأرض أمام باب كلّ كوخ، ونرسم بالحجارة صليبًا كبيرًا، وهو رمزٌ للمسيحية كما شرحت لنا أنثيا، وأوضحت أنها ديانة أجدادنا، وأنها كانت رمزًا للمُضطهَدين منذ زمن بعيد. لم نعد نخشى ظهور الحرّاس، ومع أننا لم نعرف ما حصل لهم، إلا أنّنا كنّا واثقات من أنهم لم يعودوا موجودين. بالإضافة إلى الصليب رسمنا بواسطة الحجارة سهمًا يشير إلى الاتجاه الذي سنسلكه. مكتبة سُر مَن قرأ

تحدّثت دوروثي بصوتٍ مرتفع: «لكن ما الذي سيفهمه الآخرون حين يعثرون على هذه العلامات؟ فالصليب والسهم هما رمزان شائعان جدًا، ويمكن أن يلجأ الآخرون إلى استخدامهما، خاصّةً أن لا وسيلة لديهم للإشارة سوى الحجارة. فبالإضافة إلى هذين الرمزين علينا أن نترك توقيعًا خاصًّا بنا أيضًا، فمن دونه قد يرى الآخرون هذه العلامات ولا يعرفون أننا نحن مَنْ تركها».

لم تتّفق النّساء على الشكل الذي سيكون عليه توقيعنا.. في العالم البائد كان النّاس يوقّعون من خلال كتابة أسمائهم، لكنّ كتابة أربعين اسمًا على التراب لم يكن عمليًا؛ أو بالأحرى كتابة تسعة وثلاثين اسمًا، فنحن لا نعرف اسمًا لي، وكانت النّساء يناديننني بالطفلة.. ماذا يجب أن نختار؟ هل نختار دائرةً أو مثلّثًا أو خطّين متوازيين؟ في النّهاية، اقترحت أنثيا صليبًا فوقه دائرة، وشرحت سبب اختيارها لهذا الشكل ليكون توقيعًا لنا: «سيكشف هذا لمن يراه أننا إناث، وهذا يكفي». لكنّ غريتا اعترضت قائلةً: «من الممكن أن تكون هناك إناث أخريات.. فلِمَ لا نضيف شيئًا آخر؟ وما دمنا لا نعرف أي شيء، ولا نعرف أين نحن، أو لماذا نحن هنا، أو إلى أين نحن ذاهبات، فدعونا نضف علامة استفهام».

استغرقَنا الاتّفاق على التوقيع يومًا كاملًا. بعد ذلك، عاد عدد من النّساء إلى الملجأ حيث كان الرجال، ورسمن علامات كبيرة على الأرض. لم نضع علامات أمام الملجأ الذي تحرّرنا منه، ولا على الملجأ الأوّل الذي وجدنا فيه النّساء الميتات، لكنّنا وضعنا علامات على عددٍ كبيرٍ من الملاجئ الأخرى. لكن لم نضع عليها كلّها، لأنني لم أترك علامة وتوقيع على الأرض في الرحلات الاسكتشافية التي لم يرافقني أحد فيها، لأنني فقدت الأمل بأن ّكائنًا حيًّا سيأتي إلى هذا المكان.

مشينا لمدة عامين، وتقدّمنا على مراحل، ثمّ قرّرنا التّوقف بعد أن وهنت دوروثي وضعفت. كانت تعرف حقيقة وضعها، لكنّها لم ترغب في قول أيّ شيء، لكننا لاحظنا أنها صارت أكثر بطأً. في صباح أحد الأيام، تعثّرت وهي تحاول النّهوض، وبدا جليًّا أنها لن تستطيع الوقوف مجدّدًا.

وضعت أنثيا أذنها على صدرها، وأصغت إلى نبض قلبها فتبيّن لها أنّه ضعيف، فقرّرنا التوقّف ريثما يتحسّن حالها. لكنّها غدت مضطربةً وقالت بعد يومين: «لا فائدة من الانتظار فقد صرتُ عجوزًا، وربّما تجاوز عمري الخامسة والسبعين، ولن يصبح قلبي أقوى. لذلك علينا أن نستمرّ».

قطعنا شجرتين بواسطة الأدوات التي احتفظنا بها طوال هذا الوقت، وشذّبنا جذعيهما وربطنا الكرسيّ إليهما بإحكام بعد أن ضفّرنا قطعًا من القماش وصنعنا منها حبالًا. كانت دوروثي ضعيفةً جدًّا، وتشعر بالبرد طوال الوقت، فلففناها بالبطّانيّات، ثم ربطنا ظهرها إلى مسند الكرسي، وتناوبت أربع نساء على حملها وحرصن على أن تكون خطواتهنّ منسجمة حتّى لا يهززنها كثيرًا. بعد أيام عدة أتعبتها هذه الوضعية، فوضعنا أغصانًا بين الجذعين وربطناها حتّى نتمكّن من حملها وهي مستلقية، فشكرتنا كثيرًا، وقالت إنها صارت أفضل حالًا. لكننا لاحظنا أنها تعاني من ضيقٍ في

التنفّس، وحين كنّا نحملها، كانت تغمض عينيها معظم الوقت.

في البداية، كانت تنام نومًا خفيفًا ويمكن لأيّ حركة أن توقظها، ثمّ لاحظنا أنها لم تعد تتفاعل حين نتوقّف لتبديل النّساء اللواتي يحملنها، فرجّحت أنثيا دخولها في غيبوبةٍ خفيفة.. وحين طالب عدد من النّساء بأن نتوقّف، استيقظت دوروثي وأصرّت على أن نستمرّ، وقالت: «إذا توقفنا الآن، سأشعر بالأسى والحسرة، وسأحدّث نفسي: هل كنا سنصل إلى هدفنا لو تابعنا قُدمًا لنصف ساعة؟ وبذلك سأموت حزينة لأنني فوّتّ الفرصة عليّ وعليكن. لذا، أوصيكنّ بالمضي قُدمًا، فلا تتوقّفنَ قبل أن تتوقّف أنفاسي».

حملتها النّساء بهدوء، وأمسكت أنثيا بيدها وسارت إلى جانبها، وبعد فترةٍ من الوقت، لم تعد قادرةً على الشعور بنبضها. لقد فارقت الروح دوروثي، ورأيت الدموع تنسكب على وجنتي أنثيا حين قالت: «لقد ماتت الآن».

لحقت بنا الأخريات، وتابعنا المسير حتّى غروب الشمس، كنّا تسعًا وثلاثين امرأةً وجثّةً واحدة. طابورٌ متفرّق يعبر السهل؛ موكبٌ صامتٌ يحاول عبور المستحيل ويستحوذ على الفراغ عن غير قصد جنبًا إلى جنب مع المرأة العنيدة التي أرادت ألّا تتوقّف حتّى تموت. دفنّاها ليلًا، وكان ثمّة رذاذٌ لطيف، وحمل الهواء رثاء روز فوق السهل.

بقينا بالقرب من القبر لأيام، وكأنّ أنفسنا تأبى التخلّي عنها، وكأننا بفقدانها فقدنا الدافع لمتابعة مهمّتنا. في تلك الفترة لا أعتقد أنّ أيّ واحدةٍ منّا ظلت تصدّق بوجود تلك المدن التي ستكون خلاصًا لنا، أو بأننا سنعثر على ملجأ يكون القفص فيه مفتوحًا.

كلّ مساء تقريبًا، كانت أنثيا تحدّق إلى السماء، وتسأل: «أين نحن

الآن..؟» وتجيب «إننا على الأرض». بالفعل، لاحظنا تغيّر الفصول ولكن، طوال أشهر عدّة، كانت التغييرات طفيفةً وغير ملحوظة، وبالكاد أصبحت الأيام أقصر، مع انخفاضٍ غير ملحوظٍ تمامًا في درجة الحرارة... لم يكن هناك عواصف ثلجية أو موجات حرّ، بل هذا الطقس شبه المستقر، ذو الأمطار القليلة التي لم تنتج سوى هذا الغطاء النّباتي المتفرّق. سألت أنثيا: «لماذا يجب أن نمضي قدمًا؟ فنحن لن نعرف عن مكان وجودنا أكثر ممّا عرفنا، وسنكون دائمًا قريبات من الملاجئ وسنموت واحدةً تلو الأخرى».

منذ ذلك الحين، أدركت أنه سينتهي بي المطاف وحيدة، وإذا كان من الثابت أنّنا لا نعرف إلى أين نحن متوجّهات، فمن المؤكد أننا لا نملك سببًا للاستمرار في مهمّة البحث. إلّا أننا انطلقنا من جديد. حتّى هذه اللحظة كنا نسير صوب الجنوب، فقرّرنا تغيير الاتجاه، ولكننا ظللنا نصادف في طريقنا الملاجئ والأقفاص والجثث. ذات يوم، مرضت ماري جين، فقرّرنا التوقّف ريثما تتحسّن، وحين تبيّن لنّا أن وضعها سيّئ عقدنا العزم ألّا نتحرّك قبل أن تموت.

لم يكن بوسعي أن أفعل الكثير من أجلها، كانت امرأةً صامتة إلى حدٍّ ما، تنفّذ قراراتنا دون احتجاجٍ، ولم يحدث أن اقترحت شيئًا. كانت تجمع الحطب عندما يحين موعد إشعال النّار، وترفع حمولتها من دون تذمّر. لم تَسِر في مؤخّرة المجموعة كما لم تَسِرْ في مقدّمتها أثناء الانتقال.. في الواقع، لم تبرز بين النّساء بأيّ شكلٍ من الأشكال.. كانت مرنة.. وظلت دائمًا برفقة إيما؛ المرأة الأولى التي اعتقدتْ أنّ هذا الكوكب ليس الأرض. وعلى الرغم من أنّ عددنا كان قليلًا جدًّا وكان باستطاعة كلّ واحدة منّا أن تعرف الجميع عن قرب، لكنّ عددًا من القواسم المشتركة أدّى إلى تشكّل المجموعات. لم أكن يومًا جزءًا من دائرة ماري جين، لأنني كنت غالبًا مع

أنثيا وغريتا وفرنسيس، وهي المجموعة التي تشكّلت حول دوروثي والتي تكفّلت باتّخاذ القرارات.

ربّما هذه هي الصداقة، ولكنّ المرض متّن علاقتنا أكثر مما متّنتها الصداقة. ذات ليلة، عانت ماري جين من آلامٍ في المعدة، ونزفت كثيرًا. هي التي ظنت أنها بلغت سنّ اليأس منذ فترة طويلة. بمرور الوقت تفاقمت آلامها، وبالكاد نامت، وكانت تستيقظ باكية من شدة الألم والتشنجات. كنّا نسرع إليها، فنراها تعض قبضتها من شدة الألم وقد بلل العرق جبهتها، ونسمع أنينها... فنقف إلى جانبها عاجزاتٍ يائسات.

في البداية، كانت تطلب منا العودة إلى فُرُشنا والنّوم مجدّدًا، فلا داعي لبقائنا مستيقظات ما دمنا عاجزات عن مساعدتها وتخفيف آلامها، لكنّ أيًّا منّا ما كانت تستطيع النّوم. في النّهاية، قبلت ماري ببقائنا بالقرب منها.

مسحت إيما جبهة ماري جين بلطف بواسطة قطعة قماش مبلّلةٍ، وضغطت أنثيا بكمّادات ساخنة على بطنها، فسكنت آلامها قليلًا ونامت المسكينة متعبة، فاستلقينا على الأرض حولها حتّى غلبنا النّوم.

في صباح أحد الأيام، عندما استيقظنا، لم نجدها بيننا، كنّا قد خيّمنا بالقرب من أحد الملاجئ من أجل الوصول إلى الإمدادات بسهولة، فجلسنا تنظر كلّ واحدة منّا إلى الأخرى مستغربة اختفاء ماري، وبعد أن ضاع بحثنا عنها سدًى، خطر لي أن أنزل إلى الملجأ، فرأيتها هناك وقد مزّقت بطّانيّتها إلى قطعٍ طوليّةٍ وضفّرتها، ثمّ ربطتها إلى أحد القضبان وشنقت نفسها بها، لتسقط بجوار جثث أربعين رجلًا. قرّرنا تركها هناك، فقطعنا الحبل، ومدّدناها على الأرض، ثمّ لففناها بعناية ببطّانيّةٍ أخرى، ووضعنا يديها فوق بطنها الذي آلمها كثيرًا. للمرّة الأولى، منذ فترة، وافقت روز على النّزول إلى الملجأ والترتيل.

بعد ذلك، أغلقنا الباب خلفنا كما نفعل دائمًا، ورسمنا رموزنا على الأرض قبل أن نغادر. بعد هذه التجربة، صار هاجسنا البحث عن مكانٍ ملائمٍ للاستقرار فيه، لأنّ موت الرفيقتين أقنعنا بأننا الأحياء الوحيدات على سطح هذا الكوكب، الذي قد لا يكون الأرض. فقرّرنا البحث عن نهرٍ يكون قريبًا من ملجأ نحصل على مؤننا منه، ويشبه المكان الذي كنّا نستعدّ لمغادرته، لأننا لم نرغب في البقاء بالقرب من المكان الذي اضطرّت فيه إحدانا للانتحار هربًا من الألم والمعاناة.

أحزن موت دوروثي كلّ من أحبّها، لكنّها كانت مُسنّة، وكانت نهايتها لطيفةً للغاية. أمّا انتحار ماري جين فقد صدمَنا جميعًا وأخافنا؛ لم ترغب النّساء الأكبر سنًا بالتحدّث عن الأمر، وكان هذا سببًا في تسريع مغادرتنا.

بعد أسابيع عدة، وجدنا ما كنّا نبحث عنه: نهرًا عريضًا، وحين وقفنا وسط مجراه غمرت المياه أفخاذنا. وكانت الأشجار الكثيفة تتوزّع على ضفّتيه، فقررنا أن نبني منازل باستخدام الحجارة الكبيرة ونوع من الملاط المصنوع من الطين، ووضعنا الجذوع في الأعلى فشكّلت سطوحًا ممتازة. وحين لاحظنا أنّ أعشابًا مائية تنمو في بعض الأماكن التي لم يكن فيها تيار المياه قويًا، صنعنا منها حبالًا بعد أن جفّفناها وضفّرناها واستخدمناها لربط غُصينات فردْناها أعلى الجذوع، كما لاحظنا أننا حين نخلط تلك الأعشاب نفسها مع الملاط يصبح أمتن.

لم تكن أحلامنا كبيرة، فالمنزل الأوّل الذي بنيناه، كان مربّع الشكل، واستغرق بناؤه شهرين. وكان المكوث فيه عند هطول المطر امتيازًا لعدد منّا، لأنّه لم يكن بوسع كلّ النّساء المكوث في منزل واحد. كانت النّساء اللواتي بقين في الخارج يتجمّعن قرب بعضهنّ التماسًا للدفء، تمامًا كما

كنّا نفعل دائمًا منذ هروبنا، وهنّ واثقات من أنّ منزلهنّ سيكون جاهزًا في المرّة التالية التي يتساقط فيها المطر.

استغرق بناء المنزل الثاني وقتًا أقلّ، واخترنا أن نجعله مستطيل الشكل. لم تكن جذوع الأشجار طويلة بما يكفي لتصل بين طرفي المستطيل، فتدبّرنا الأمر من خلال ربط كلّ جذعين معًا ودعمنا مكان الربط بأعمدة بنيناها من حجارة كُدّست بعضها فوق بعض، وهذا ما جعل البناء متينًا. وكنّا نعرف أنّ الرياح القوية لا تهبّ هنا على الإطلاق، فأدركنا أنّ هذه المنازل ستصمد إلى الأبد.

بعد الانتهاء من البناء، جلبنا طاولات وكراسي من الملجأ المجاور، وجلتُ برفقة أربع من أقوى النّساء على ملاجئ أخرى لجلب مزيد من الأثاث والفُرُش، وكثيرًا ما وجدناها بجوار القضبان داخل الأقفاص، فحرصنا على سحبها من دون أن نقلق راحة الموتى. وكنّا نهوّيها لفترة حتّى تتخلّص من رائحة الملاجئ الكريهة وتعود صالحة للاستعمال.

خلال جولاتنا على الملاجئ، عثرنا على قطع من القماش، وخيطان وحقيبة فيها صنادل كنّا بأمس الحاجة إليها. فعلى الرغم من امتلاك كلّ واحدةٍ منا حذاءً، إلا أنّنا فضّلنا انتعال الصنادل التي لا تغطي كامل أقدامنا عندما لا نسير لمسافات طويلة. كما تخلّصنا من عربتنا لعلمنا بوجود واحدةٍ في كلّ ملجأ. ولأن الملاجئ كثيرة، لم تكن لدينا مشكلة في الحصول على عربات جديدة، كنّا نفكّكها، ثمّ نعيد جمعها، ونستخدمها لنقل مواد البناء من مكانٍ إلى آخر.

بنينا خمسة منازل، وكان أوّلها مطبخًا، جعلنا له مدخنة بعد أن تمكنّا من صنع ما يمكن وصفه بالموقد، وذلك بعد أن طرقنا علب المعلبات وسطّحناها وثنينا الحوافّ بواسطة الكمّاشات وربطناها معًا، ثمّ أعدنا

طرقها مرّةً أخرى، فصنعنا بذلك لوح تسخين معدنيًا كبيرًا، وأسندناه إلى صفّ من الحجارة، ثمّ أشعلنا النّار في الأسفل. وهكذا استطعنا وضع قدور عدّة على موقدٍ واحد. أمّا أنا، وبعد أن صرتُ ماهرةً في نشر الأخشاب، فأعددت ألواحًا لبناء رفوف نخزّن عليها طعامنا، وكذلك صنعت مقاعد.

أشعرني البناء بالسعادة، وكنت سأبني مزيدًا من البيوت، لكنّ النّساء الأخريات كنّ راضيات عن وضعهنّ، فبعد أن كنّ أربعين امرأة في قفص، أصبحن قانعات بأن تعيش كلّ تسع منهنّ أو عشر فقط في منزل، وتذكّرن وسائل الراحة في منازلهنّ السابقة، مثل المياه الجارية والحمامات؛ تلك الرفاهيات التي صارت الآن من ماضٍ ينبغي عليهنّ نسيانه. وشعرت أنهنّ تأقلمنَ مع هذه الحياة المستقرة أكثر مني.

في بعض الأحيان، كنت أتسلّق تلًّا وأنظر إلى السهل، وأرغب في المضي قُدُمًا لأنّ الاستقرار يجعلني مضطربة، ورحت أفكّر في أشياء ينبغي أن أصنعها، كطاولة إضافية أو مقعد. وكانت فكرتي الأكثر إبداعًا هي نظام يجعل المرحاض أكثر خصوصية، فجمعتُ جذوع الأشجار ونشرتها إلى نصفين لأصنع منها فواصل متحركة يمكن نقلها بسهولة، وهذا ما يلغي الحاجة إلى الشجيرات والبطّانيّات. استغرق بناء هذا النظام وقتًا لأنني بنيته وحدي، فلم أرد أن تساعدني أيّ امرأة حتّى لا تفسد عليّ متعة العمل.

حين كانت تنفد مني الأفكار لبناء أدوات جديدة، كنت أقنع إحدى النّساء لترافقني في رحلة تستغرق أسابيع عدّة بحثًا عن مناشير وكماشات ومسامير. وحين نعود، أكون قد فكّرت في صنع أثاث جديد يشغلني لوقت طويل، لكنّ احتياجاتنا كانت قليلةً جدًّا، لذلك لم أعد أستطيع التفكير في أيّ شيء جديد.

نحن الآن ثمانٍ وثلاثون امرأةً فقط، موزّعات على أربعة منازل، صنعنا ما أسمته أنثيا أسرّة بطابقين، كي لا تشغل الفُرُش كامل مساحة الأرضية. عشت مع أنثيا، وغريتا، وروز، وآنا بيل، ومارغريت- إحدى أكبر النّساء سنًّا- ودينيس، ولورا، وفرنسيس. كنّا هادئات وواقعيات ولا نتجادل إلّا في ما ندر. في الوقت الذي انتقلت فيه النّساء إلى المنازل، أصبحت المجموعات التي تشكّلت انطلاقًا من السّمات الطّبيعيّة المشتركة أكثر تميّزًا بعضها عن بعض، وهو ما اختبرته شخصيًا لأنني لم أرغب في أن أكون قريبةً جدًّا من كارول، التي كانت دائمًا متحمّسة، أو ماري المتجهمة التي يصعب التفاهم معها.

لا تزال فكرة الثنائيات الأثيرات تحيّرني، خصوصًا وأنني أجدهنّ يكثرنَ من الشجار الذي يترافق مع البكاء، وتساءلت عن سبب ذلك. لكنني كنت أكره طرح الأسئلة، وهذا يُعزى لرواسب سنواتي الأولى في الملجأ. لكن أنثيا لاحظت افتقاري إلى الفهم، وأوضحت لي الأمر.

بعد أن لاحظتُ اختلاف البنية الجسديّة للرجال، عندما رأيت رجالًا عراة في الملاجئ، سألت أنثيا عن الزواج، ففاجأها مقدار جهلي. وضّحتُ موقفي: «أنّى لي أن أعرف إذا لم يخبرني أحد؟ لاحظت في الملاجئ أنّ بعض الرجال الموتى كانوا عراة، وكانت أعضاؤهم تختلف عن أعضائنا. وسمعتكِ تتحدّثين عن الأمر مرات عديدة، لكنّك لم توضّحي التفاصيل، وما زلت أجهل كلّ شيء».

كرّرت أنثيا ما دأبتُ على سماعه: «لماذا تريدين أن تعرفي الآن؟ لم يعد ثمّة رجال حولنا».

انتابتني مشاعر الغضب ولكنني أخفيتها، فأنا لم أعد طفلةً صغيرةً في المجموعة. في سنوات الأسر الأولى كنتُ صغيرة، لكن مضى على

فرارنا سبع سنوات، ولا بدّ من أنني تجاوزت العشرين، وكنت واحدة من النّساء اللواتي فكّرنَ ونظّمنَ الحياة المشتركة، وصرت حِرفيّة ماهرة، فأنا أجيد نشر الأخشاب ودقّ المسامير بالإضافة إلى الخياطة، ولم أعد أرغب في أن أُعامَل بصفتي طفلة.

أجبتها: «لأنني أريد أن أعرف! يُشاع أنّ اكتساب المعرفة يعود لرغبة في الاستفادة منها، ولكنّ الاستفادة ليست أكثر ما يهمّني، فأنا أريد أن أعرف كلّ ما أستطيع معرفته من أجل متعة المعرفة بحدّ ذاتها. والآن أطلب منك أن تعلّميني كلّ ما تعرفينه، حتّى لو لم أحتج إلى استخدامه. ولا تنسي أنني الأصغر بينكنّ، وفي يومٍ من الأيام، ربمّا سأكون آخر من تبقّى، وقد أحتاج إلى معرفة أشياءَ لأسباب لا أستطيع تخيّلها اليوم».

بعد ذلك، أخبرتني كلّ شيء عن الرجال وأعضائهم التي تختلف عن أعضائنا، وعن إنجاب الأطفال.. احتاج شرح كلّ هذا وقتًا طويلًا، فقد كانت الأمور التي أحتاج إلى فهمها كثيرةً، وحين أنسى تفاصيل أمرٍ ما، كان يتحتّم عليها الرجوع إليه وإعادة شرحه. ومع أن ذاكرتي جيدة جدًّا، لكنّ أنثيا قالت إنّ أفضل ذاكرةٍ في العالم ستفشل في تذكّر كلّ المعلومات دفعةً واحدة. كما شرحت لي عن جسدي. ولأنني لم أختبر الطمث، لم أعرف أنّ لي مهبلًا، وهذا ما فاجأها كثيرًا فسألتني: «ألم تفكّري بالأمر بشكلٍ ما أو تشعري به، وأنتِ تغتسلين؟».

هكذا أدركت - بعد أن بدأتُ حياتي محاطةً دائمًا بالأخريات- أنني لم أستطع التعرّف إلى جسدي عن كثب. لا شكّ في أنني غسلت جسدي بالصابون بعناية، من فتحة الفرج وحتّى الشرج، كما طلبت مني النّساء أن أفعل بعد كلّ زيارة إلى المرحاض، لكنّ حركات الغسيل تلك لم تعلّمني أنّ تلك الأجزاء من جسدي لها صفات خاصّة. لم أذكر لها شيئًا عن الإثارة

التي شعرت بها منذ زمن طويل ونسيتها الآن، كما أنني لم أربط بين تلك الإثارة الوجيزة والحبّ إلّا بعد مرور وقت طويل.

كانت حواراتنا عشوائيةً إلى حدٍّ ما، إذ إنّ جهلي الكلّي أدهش أنثيا لدرجة أنها كانت تفقد تسلسل أفكارها سريعًا، وتجد صعوبةً في تفسير الأمور، فلجأتْ إلى الرسم على التراب. رسمت شكلًا يفترض به أن يصّور أعضائي الداخلية، وحدّثتني عن المعدة والأمعاء، ثمّ عن القلب والأوعية الدّمويّة والدورة الدمويّة. كنتُ فضوليةً بشأن كلّ شيء، ولكنّ أسئلتي تخطّت معارفها فعجزت عن الإجابة.

قالت: «حين كنتُ أتدرّب كي أصبح ممرّضةً، تعلّمت كثيرًا من الأمور التي نسيتها لأنني ما استخدمتها قطّ بعد الامتحانات. ربمّا ماتت دوروثي بسبب قصور القلب، وقد حاولتُ خلال مرضها أن أتذكّر بعض المعلومات، فإذا أسعفتني الذاكرة، يؤثّر ضعف القلب في الدورة الدمويّة وفي عمل الكليتين والرئتين، فكلّها أجزاءٌ من نظامٍ مترابط كنت أجده جميلًا جدًّا، لكنني لم أتذكّر الطريقة التي يعمل وفقها».

قاطعتُها: «وما الفائدة التي ستجنينها من التذكّر؟».

أجابتني: «لا شيء، أنت مُحقّة فليس بحوزتي أيّ دواء. لقد حاولت، وأنا أعرف أنّ لا جدوى من محاولاتي تلك، لكنني كنت بحاجةٍ إلى المعرفة مثلك».

كنت أشعر بأمعائي، وأسمع قرقرتها بسبب الغازات، وأشعر بانتفاخ البطن، وأنتبه إلى انتظام حركة أمعائي، لكنني لم أعرف شيئًا عن أعضائي التناسلية. حين كنت أغتسل في النّهر، كنت أتفحّص مهبلي بدافع الفضول، وبالكاد كنتُ أستطيع أن أدخل طرف إصبعي فيه بسبب غشاء البكارة الذي يغلقه وكأنه باب يُغلق ممرًا، فتخيّلته طويلًا وضيّقًا ومغلقًا من

جميع الجهات، مثل ممرّات الملاجئ. عند المدخل هناك حاجز لا يمكن إلّا للرّجل أن يلجه بقضيبه، وخلفه هناك عنق الرحم الذي لا يمكن إلّا للطفل أن يمرّ من خلاله وهو يخرج من تلك الغرفة الكبيرة في الداخل، كما تخيّلت أن جدرانه ملساء ناعمة ذات لون أحمر داكن. في النّهاية، عند الطّرف الأبعد تقع فتحتا قناتي فالوب التي لم يسبق أن انتقلت عبرها أي بويضة في جسدي، يليهما المبيضان، حيث يفترض أن تستقرّ البويضات وتنضج ببطء.. لكنّ بويضاتي كانت عقيمة وجافّة.

في ظلّ عدم جدوى هذا العالم، استقرأ عقلي عدم وجود الرجال، فأمر الغدّة النّخاميّة بألّا تهتمّ بالغدد التناسلية، وطلب منها أن تُكرس اهتمامها للكبد والطحال والبنكرياس والغدة الدّرقية ونخاع العظام، وجميع المهامّ الأخرى التي تعدّ أساسيّة لبقائي على قيد الحياة، فلا جدوى من اهتمامها بعضو لا يخدم أيّ غرض. لهذا السبب لم يَسمح لأي بويضةٍ من بويضاتي بالنّضج، وندم بعد أن سمح لثدييّ وشعر عانتي بالنّمو، فأوقف نموهما.

في الملجأ، حيث كنت أعاني من سوء التغذية وحيث لا مجال لتعويض ما يُفقد من دمّ، قرّر عقلي أنه في ظل غياب الحيوانات المنوية، فليس هناك حاجةٌ إلى إطلاق البويضات للهجرة نحو أسفل الرحم، وأصبحت بطانة رحمي مسطّحة؛ حقلًا لم يُحرث لعدم وجود بذور تزرع فيه، ولن يضطرّ أبدًا إلى التوسّع ليحمل طفلًا. لذا، لا ضير في أن ينكمش أو يتقلّص.

كذلك شرحت لي أنثيا ما يحصل في جسدي، وأضافت أنّ هناك طريقة لإستثارة الجسد. في أثناء محاولاتي لاستكشاف أسرار جسدي، أردت أن أعرف مزيدًا عنه وعمّا يمكنني الحصول عليه من أعضائي، فسمحت لأصابعي بالتجوّل فوق المناطق التي يُفترض بها أن تمنحني

المتعة. لكنني لم أُفاجأ حين لم أشعر بشيء، بل تأكّدت شكوكي الدائمة بأنني مختلفة عن سائر النّساء.

في أحيان كثيرة، وبعد أن استقررنا في المكان الذي أسميناه القرية، شعرت بالاستياء ونفاد الصبر، ووددتُ مواصلة التعلّم. بالطبع، لم أكن أعرف ما الذي سأتعلّمه، وحاولت جاهدة السيطرة على انزعاجي، فقد علّمتني أنثيا كلّ ما تعرفه، وشيئًا فشيئًا أدركتْ خلال أحاديثنا أنني أرتكب كثيرًا من الأخطاء اللغوية وكانت تصحّحها لي. وعندما شرحت لي ماهية القواعد كنتُ سعيدةً بما أتعلّمه، ولكنها نبّهتني قائلةً: «لا تستطيع أي واحدةٍ منّا أن تعلّمك قواعد اللّغة، إذ لا توجد بيننا أيّ معلّمة تصلح للمرحلة الابتدائية».

سألتها: «ولكن ما الذي تعتمدين عليه حين تصحّحين لي؟».

أجابتني بعد قليل من التفكير: «أعتمد على التقليد، والذكريات المشوّشة، والقواعد التي كنت أعرفها ذات يوم، والتي أجد الآن صعوبةً في تذكّرها».

حاولتُ استجداءها: «ألا يمكنكِ أن تعلّميني قاعدةً واحدةً على الأقلّ، مهما تكن؟».

راقبتها وهي تفكّر بتركيز، كما فعلتْ في الماضي، في المرّة الأولى التي حاولت فيها إجراء العمليات الحسابية، ثمّ ابتسمت لي وقالت: «تتألّف الجملة الفعلية من فعل وفاعل ومفعول به».

سألتُ: «حسنًا، ما هي الجملة؟ وما هو الفعل والفاعل والمفعول به؟».

لا شك في أنني لم أكن على اطّلاع على أيّ مصطلح من المصطلحات اللغوية، لأنني لم أتعلّم اللغة بطريقة منهجية، بل من خلال ترديد

ما كنت أسمعه. شرعت أنثيا تشرح لي من دون أيّ منهجية واضحة، وطلبت من مارغريت مساعدتها، ثم من هيلين، التي حاولت ذات مرّة مع إيزابيل، أن تعلّماني جدول الضرب. بعد فترة، تجمّع عدد من النساء حولي، ورحنَ يتجادلنَ وهنّ يحاولنَ تجميع قليل ممّا يتذكّرنه. لم يعارضنَ فكرة استئناف تعليمي غير المكتمل، واكتشفنَ أنهنّ قد يتعلّمن معي في الوقت نفسه، ففكّرن قائلات: «لمَ لا نحاول تطوير قدراتنا على التّحدّث أيضًا؟ فإن كان غناء روز يستطيع إسعادنا، فلماذا لا نسعد أنفسنا من خلال تطوير أحاديثنا وتعزيز لغتنا».

كنتُ تلميذةً مجتهدةً مقارنة بالأخريات اللواتي تعاملن مع التعليم على أنه لعبٌ وتسلية واستمتعن بالدراسة لفترةٍ من الوقت، خاصّةً أنّ وسائل الترفيه لدينا محدودة، ولهذا لم يرفضنَ أيّ عرض متوفّر.

أعجبتنا فكرة تطوير وسائل التسلية القليلة المتاحة لنا، وهذا ما جعل عددًا من نساء مجموعتي يستعدن الاهتمام بمظهرهنّ. ولأنه صار لدينا مقصٌّ وأمشاط بعد أن وجدت غريتا مشطين في أحد الملاجئ، بدأنا نعتني بشعورنا، وثنينا أسلاكًا لنصنع منها دبابيس للشعر. جدّلت أليس، التي سبق لها أن عملت في تصفيف الشعر، شعور النّساء اللواتي أردنَ أن تبقى شعورهنّ طويلة، لكنّ هذه الفترة لم تدم طويلًا، فسرعان ما فقد المشطان أسنانهما، ولم نجد لهما بديلًا.

بعد فترة، سيطرت علينا فكرة اللّعب، وكانت الداما فكرة أنجيلا التي طلبت منّي أن أصنع لوحة خشبية، وأرسم عليها مربعات باستخدام أطراف العيدان المتفحّمة، كما طلبت مني أن أقطع عددًا من الدوائر الخشبية الصغيرة، وألوّن نصف عددها وأترك النّصف الآخر من دون تلوين. تعلّمت قواعد الداما، لكنني لم أطوّر مهارتي في اللّعب، لأنني لم

أرَ جدوى من الفوز في لعبة أو مباراة. فشرحت لي أنثيا: «يُحقّق الفوز الرضى لأنه يُشعرك بالتفوّق، ويتيح استخدام العقل بالطريقة الفضلى».

فهمتُ متعة استخدام عقلي بما فيه الكفاية، لكنني وجدت أنّ إجهاد العقل بوضع القطع في مربّعات فارغة، وإعادة ترتيبها على اللوحة للبدء من جديد، فيه شيء من السُّخف. لم نعثر إلّا على قليل من وسائل التسلية الأخرى، وكانت إحداها خياطة الملابس، ولكنّ الحصول على القماش والخيطان لم يكن يسيرًا.

أطل الموت برأسه مجدّدًا. فذات صباح، لم تستيقظ برناديت، التي كانت مثل ماري جين، شخصًا هادئًا حافظ على هدوئه حتى نهايته غير المتوقعة. بعد ذلك، مرضت مارغريت، وفقدت ذاكرتها، ولم تتمكّن من التعرّف إلينا، ولم تعد قادرة على الوقوف، قبل أن ترفض كل أنواع الطعام باستثناء السوائل، وعانت من سلس البول. وبناءً على توجيهات أنثيا، اقتطعتُ لوحًا من الخشب، وضعنا عليه فراش مارغريت بعد أن أحدثنا فيه فجوة ملأناها بأوراق الأشجار، ومع أننا كنا نزيل الأوراق ونستبدل بها دائمًا أوراقًا جديدة، إلا أنّ رائحة البول عبقت في منزلنا مع دنوّ أجلها.

قبل شهرين من موت مارغريت، أتت إليزابيث، التي كانت مقرّبة جدًّا منها في بداية ترحالنا، وأقامت معنا، فتهيأ لنا أنّ ضعف مارغريت ألان قلبها. لكن وضع مارغريت ساء فجأةً، ودخلت في حالة ذهول، وصارت تصرخ حين تراودها الكوابيس ليلًا. في بعض الأحيان، كانت كوابيسها تأتي أكثر شدّة، فتنهض عن الفراش وتركض إلى الخارج، وإذا لم تستطع النّهوض كانت تُسيطر عليها نوبات غضبٍ رهيبة فلا يكفّ لسانها عن الشتم واللعن. ذات مرّة، وهي تقاوم النّساء اللواتي يحاولنَ مساعدتها،

حدّقت إلى إليزابيث، ورفعت ذراعها وكأنها تريد أن تضربها، ثمّ أصيبت بتشنّج، وسقطت جثة هامدة.

وجدنا مساحةً خاليةً وسط الغابة، وقرّرنا أن تكون مكانًا للدفن، حيث دفنّا برناديت وبعدها مارغريت. وبنينا، إن صح القول، لكلّ واحدةٍ منهما نصبًا صغيرًا بواسطة كومةٍ من الحجارة، وغرسنا فوق كل قبر صليبًا خشبيًا نقشنا عليه اسم المرأة المدفونة، ثمّ أحرقنا الحروف التي حفرناها بالجمر.. كان القبران متجاورين، وحين كانت روز تُرتل تراتيلها الجنائزية، كان الحزن يطغى على القرية. ومنذ ذلك الحين صار يُعرف مكان دفن برناديت ومارغريت بالمقبرة.

هكذا عرف الموت طريقه إلى قريتنا، فتساءلنا على من سيحل ضيفًا غير مرحّب به في المرّة التالية؟ سادت حالةٌ من الكآبة الغامضة، ويمكنني القول، بل الجزم، إنّ سؤالًا واحدًا جال في بال جميع النّساء: لماذا علينا أن نرهق أنفسنا في محاولة البقاء على قيد الحياة في هذه الأرض الغريبة حيث لا ينتظرنا سوى القبر؟ لكنّ أيًّا منّا لم تفصح عما تُفكر فيه أمام الأخريات. منذ ذلك الوقت، توقّفت المحادثات التافهة بين النّساء، وخيّم الصمت الثقيل على حركاتهنّ وسكناتهنّ. مرّت الأيام والأشهر فبددت ذلك الإحساس بأنّ هناك كارثة وشيكة، إلى أن قالت إليزابيث يومًا، التي أصبحت الأكبر سنًا في المجموعة، وهي تضحك: «سأكون التالية، لكنّني لا أزال أشعر بأنني في قمّة نشاطي». هذا ما قالته وهي عائدة من الغابة، تحمل مجموعةً من الأغصان الثقيلة التي نجمعها لإشعال النّار، ولم تكن تلهث أو تبدو متعبة.

منذ ذلك الحين، بدأنا التخطيط للمستقبل مرّةً أخرى. فعلى الرّغم من أنّه لا يزال لدينا مخزونٌ كبيرٌ من اللحوم في الثلاجة، إلّا أنّ هيلين وإيزابيل

توصّلتا إلى نتيجةٍ مفادها أنّ هذا المخزون لن يكفي ستًّا وثلاثين امرأة لأكثر من خمس سنوات. في تلك اللحظة، كتمتُ فكرةً راودتني وربّما لم أكن الوحيدة التي فكّرت فيها، وهي أنّ عددنا سيستمرّ في الانخفاض.

لم يكن تجديد إمداداتنا من ملجأ آخر فكرة سديدة، فالوصول إلى أقرب ملجأ يحتاج إلى أن نمشي لعشرة أيام، وعلى الأرجح، سيفسد اللحم الذي نجلبه قبل أن نتمكن من إيداعه في مخزن الملجأ القريب منا.

طرحتُ فكرة الهجرة من جديد، وشعرت بسعادةٍ غامرة عندما فكّرت في بناء قريةٍ أخرى. لكن فكرة الهجرة استُبعدت في تلك الفترة. ولمّا كنتُ أستمتع بالبناء، بدأت أفكّر في ترتيبات وتصميمات جديدة، وكنتُ في غاية الحماسة حين عرضتُ إضافة منازل جديدة إلى القرية من أجل النّساء اللّواتي يسعين إلى مزيد من الخصوصيّة، لا سيّما وأنني أصبحت بنّاءةً ماهرةً، لكنني لم أحظَ بالفرصة المناسبة لتوظيف مواهبي بشكل مناسب.

رحّبت النّساء باقتراحي الأخير ووافقن عليه، وقالت كثيرات منهنّ إنهنّ يفضّلن العيش بمفردهنّ. لكنّ مشكلة أكثر إلحاحًا كانت تحتاج إلى حلّ وهي فساتيننا المهترئة. لا شكّ في أننا نستطيع الخروج عرايا، فالطقس معتدلٌ ولطيف، على الأقل خلال الموسم الأكثر حرارة، لكنّ ذلك لم يعجب النّساء؛ فقد جعلت ذكرى سنوات الأسر، التي أمضينها بلا خصوصية تحت أعين الحرّاس، من الحياء امتيازًا لم يرغبن في التّنازل عنه. بالإضافة إلى الملابس، كان الصابون على وشك النفاد. لذلك قرّرنا إرسال بعثةٍ استكشافيةٍ باتّجاه الغرب، وهو اتجاهٌ لم نستكشفه بعد.

انطلقت أربعٌ منّا، دينيس وفرنسيس وغريتا وأنا، بعد أن وقع الاختيار

علينا لأننا الأصغر سنًا والأقوى بنية. ربمّا كانت أنثيا في عمر النّساء الثّلاث اللّواتي رافقنني، لكنّها الممرّضة، والوحيدة التي تعرف أمراض النّساء. وعلى الرغم من نقص الأدوية، إلّا أنها استطاعت أحيانًا أن تجد علاجات عدّة، لذلك بدا من الأفضل أن تبقى في القرية.

كانت الغاية من رحلتنا الاستكشافية إحضار الأقمشة والصنادل والصابون والملح، بالإضافة إلى العثور على موقعٍ آخر يصلح أن نبني فيه قريتنا في حال قرّرنا الانتقال.

في غضون ذلك، أخذت النّسوة الباقيات على عاتقهنّ مهمّة قطع الأشجار وتركها حتّى تجفّ، كي تكون جاهزة لأستخدمها في بناء المنازل حين عودتنا. كانت الرحلة الاستكشافيّة ممتعة، وحتّى لا نضيع في ظلّ هذا المشهد الرتيب، أشرنا إلى الطريق الذي سلكناه بواسطة أسهم كبيرة رسمناها بواسطة الحجارة، وانتقلنا من قمّة تلٍّ إلى قمّة تلٍّ آخر كي نمسح بأعيننا المناطق المحيطة.

لم نعثر على الأقمشة قبل أن نصل إلى الملجأ التاسع، ولكنّنا وجدنا في الملجأ الثاني علبة قهوةٍ. لم يسبق لي أن تذوّقت القهوة، وللصدق لم أستسغ مذاقها، ودُهشت حين رأيت رفيقاتي يصرخنَ بهجةً وسرورًا، وهنّ يتخيّلنَ فرحة الأخريات عندما سيعُدن إليهنّ بهذه اللُّقيا الرائعة، لكنّني لم أشاركهنّ هذه الحماسة.

تمكنّا من العثور على ما نحتاج إليه من ملح وصابون، لكنّنا لم نجد صندلًا واحدًا، وهذا ما أزعجنا. حتّى وجدت دينيس الحلّ الذي قالت إنّه كان يفترض بنا التفكير فيه منذ سنوات؛ فاقتطعَت الجلد من الأحذية، وحوّلتها إلى صنادل، وقالت بأسى: «ربّما يجدر بنا أن نكون واسعات الحيلة، أليس كذلك؟».

أجابتها فرنسيس: «لقد جئنا من عالمٍ لم تكن فيه سعة الحيلة ضرورية، فكلّ شيء كان في متناولنا، ولم نسأل كيف تُصنع الأشياء».

لم يبدُ لي أنهنّ يرغبنَ في الحديث عن الماضي، ولم يقلن شيئًا آخر، لكنّ هذه الرحلة الطويلة كانت فرصةً جيّدةً لي، ولأنّ أنثيا علّمتني أمورًا كثيرة، شعرت بجرأةٍ أكبر في طرح الأسئلة.

سألتُ: «أخبرنني كيف كان الأمر؟ كيف عشتنّ؟».

في البدء تردّدن في الإجابة، ثمّ أطلقنَ العنان لألسنتهنّ، واتّضح أنه لم يسبق لهنّ أن تحدّثنَ عن قصص حياتهنّ، فاستمتعنَ بهذه الفرصة.

ذكرت فرنسيس أنّها، وبعد قصة حبّ فاشلة، ظنّت أنها لن تتجاوزها، التقت وهي في الثالثة والعشرين من عمرها، بلورنس وتزوّجته وأنجبت منه طفلين؛ بول وماري. وعندما وقعت الكارثة، كانت تخطّط لإنجاب طفلٍ ثالث. ولأنّ ذكرياتها عن تلك الفترة مشوّشة، فهي ليست واثقة إن كانت حاملًا وأجهضت أو أنها كانت تُفكّر في الحمل، وشرحت قائلة: «كانت حياتي عاديّة جدًا، مثل حياة أيّ امرأةٍ أخرى».

لم تدرك أنّ أيّ شيء ممّا ذكرته لم يكن عاديًا بالنّسبة إليّ، فأنا لم يحدث لي أيّ شيءٍ على الإطلاق، فسألت: «ما هو العاديّ؟».

قالت دينيس: «الطفلة محقّة، ليس هناك ما هو عاديّ بالنّسبة إليها»، ثمّ أردفت «أما أنا فتمنّيتُ أن أُرزق بأطفال لكنني لم أحظَ بهم، وكنت أحسد دائمًا أولئك الذين ينجبون». عندما تحطّم كلّ شيء في حياتها، كانت في مرحلة طلاقها الثاني، لأنها، على حدّ قولها، كانت تخطئ الاختيار دائمًا، ولم تكن سعيدةً أبدًا.

لم تفهم غريتا سبب رغبة دينيس في الزواج مرّة أخرى، فهي نفسها لم تتزوّج، لكنّها عاشت طوال سنواتٍ مع حبيبٍ واحد وكانت سعيدة

للغاية. وهذا ما شكّل صدمةً لدينيس، وفتح المجال أمام جدال حادّ حول الزواج، وإن كانت مؤسسة الزواج جيّدة أم سيّئة.

في تلك البرّية، حيث لم يكن هناك رجال للزواج، تجادلت ثلاث نساءٍ إذا كان من الأفضل الإبقاء على الزوج الخائن، أو إنهاء العلاقة بعد اكتشاف خيانته، ثمّ ضحكن. وحين أدركت سخافة الموقف شاركتهنّ الضحك، وكلما أستعيدُ ذلك الموقف أدرك أنني ضحكت أكثر مما ينبغي، لأنه بعد ذلك انقلب ضحكهنّ بكاءً. إلّا أنهنّ في النهاية شعرن بالأسف عليّ لأنني لم أفهم سبب بكائهنّ ولأنني ما عرفت الحبّ قطّ، وما عرفت متعة الاستحمام في مغطس ساخن ولا متعة تذوّق الشوكولاتة. فقبلت صاغرة أن ما يصفنَه يُعتبر متعًا مع أنني لم أستطع أن أتخيّلها.

كان لدى غريتا ابنٌ من الرجل الذي كانت على علاقة به إلا أنها لم تتزوّجه. لم تتحدّث أي واحدةٍ منهما عن أولادها، ولم تحملهما أسئلتي على الإفصاح أكثر. في وقتٍ لاحقٍ حاولت أنثيا أن تشرح لي موقفهما المتحفّظ: «لن تفهمي... ولأنني أنا الأخرى لم أُنجب، فمن المحتمل أنني أنا الأخرى لن أفهم. لكن خذي بعين الاعتبار أن تحفّظهما ربمّا يعزى إلى أنهما لا تعرفان ما حدث لأولادهما! فهما لا تعرفان إن كبر أولادهما في كنف أب وأم، أو إن كبروا وسط غرباء، مثلك، ولم تُقدّم لهم الرعاية المناسبة، كما أنهما لا تعرفان إن ألقي بهم في مجموعاتٍ مكوّنةٍ من أربعين شخصًا في الملاجئ كي يعيشوا كالحيوانات».

أوضحت لي أن فرنسيس تفضّل أن تكون أجهضت حملها إن كانت حاملًا حتّى لا يواجه مولودها مصيرًا أسود. «قد لا تفهمين لماذا قد تُفضّل الإجهاض والموت المؤكّد على احتمال الولادة والنجاة، لأنك ببساطة لم تري أطفالًا، ولم تعرفي ما الذي يعنيه طفل ضعيف يعتمد عليك، ولم

تختبري الحبّ والقلق اللّذين تشعر بهما الأم تجاه أطفالها الذين قد يقودونها للتضحية بحياتها لإنقاذهم، وبالتالي يستحيل عليك أن تتخيلي طفلًا متألمًا».

أنا لا أعرف شيئًا عن كلّ ما قالتْه فعلًا، ولا أذكر شيئًا عن طفولتي، وربّما لهذا السبب أنا مختلفةٌ تمامًا عن الأخريات. لا بدّ من أنه فاتتني بعض التجارب التي تجعل الإنسان طبيعيًا وعاديًا.

لا أتذكّر تفاصيل ما أخبرنني به جيدًا، ربمّا بسبب الأمور الكثيرة التي لم أختبرها والتي لم أستطع حتّى أن أتخيّلها: ففي المرّة التي ذكرنَ فيها أنهنّ ذهبنَ للرّقص، سألت: «وما هو الرقص؟». فحاولنَ أن يشرحنَه لي من خلال التمثيل. وقفت دينيس قبالة فرنسيس، ووضعت يدها اليسرى على خصرها، ورفعت يدها اليمنى في الهواء، وتحركتا في دوائر.. حسنًا: «ولكن ماذا بشأن الموسيقى وصوت الأكورديون أو الكمان؟». عبّرن عن النغمات بالأرقام فقلن: واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة.. وبعد أن عددت نبضات قلبي لفترةٍ طويلة، تمكّنت من فهم الإيقاع المتناوب، لكنني لم أستطع تخيّل صوت الفرقة، أو صدى ابتسامات الرجال الذين أشعروهنّ بالحبّ، ولا حفيف فساتين الشيفون أو الحرير التي تدور حولهنّ وتمنحهنّ جمالًا باهرًا.

تحدّثتِ النّساء عن عودتهنّ متسلّلات إلى منازلهن فجرًا، وعن الأهالي الغاضبين الذين يوبّخونهنّ وعن القُبل والرجال الذين أحبوهنّ من طرفٍ واحد. ولكن كل ذلك بدا صورة مشوّشة في رأسي.

توقّفتُ بشكل تدريجي عن مطالبتهنّ بإطلاعي على عالمهنّ، فقد بذلت قصارى جهدي لتخيّله. كنت أعرف جيدًا أنني أتيتُ منه، ولا شك في أنني وُلدت لأب وأم؛ ربمّا رقصا معًا ثمّ تزوّجا أو افترقا، وربما مزّقتهما

الكارثة مثل فرنسيس ولورانس. ربّما كانت والدتي واحدةً من النّساء الميتات اللواتي رأيتهنّ في الملجأ، وربّما كان والدي أحد الذين استلقوا بالقرب من قضبان أحد الأقفاص. وبعد أن انقطعت جميع الروابط بيني وبينهما، لم أشعر أنهما يعنيان لي شيئًا، بقدر ما لا يعني لي أيّ شيء في العالم الذي أتيت منه؛ فأنا لم أسمع موسيقاه، ولم أرَ رسومه، ولم أقرأ كتبه، باستثناء المجموعة القليلة من الكتب التي وجدتها في الملجأ والتي لم أفهم منها إلّا قليلًا.

أنا لا أعرف إلّا السهول، والتجوال، وفقدان الأمل التدريجيّ... أنا الابنة العاقر لجنسٍ لا أعرف عنه شيئًا، حتّى إنني لا أعرف إن كان قد انقرض... ربمّا لا تزال الإنسانية قائمةً، وتشهد ازدهارًا في مكان ما تحت النّجوم، غير مدركة أنّ ابنة دمها تنهي أيامها في صمت، وليس بمقدورها فعل أيّ شيءٍ حيال ذلك.

يُفترض بهذه الأفكار أن تستدرّ دموعي. لكنّ الدموع لا تجد سبيلًا لتسيل من عينيّ، إلّا عندما أفكّر في أنثيا، المرأة التي أعرفها بالفعل. فأنا لا أستطيع أن أحزن على ما لم أعرفه.

كلّ مساء، كنّا نجمع كومةً من الحطب الجافّ ونضرم فيها النّار، فنشوي النّقانق المنقوعة بالخردل، والتي وجدنا عددًا قليلًا من المراطبين التي تحتويها، ثمّ نأكلها مع الكعك المخبوز على الجمر ونستريح من التعب. وأعتقد أنّ حنين رفيقاتي كان يهدأ لبعض الوقت عندما يصغينَ إلى صمت السهل الواسع، وحفيف العشب المستمر. لم نكن نتعجّل النّوم، لأننا أردنا الاستماع إلى النّغمات التي يواظب النّسيم على عزفها، فهي الموسيقى الوحيدة التي سمعتها إلى جانب سوبرانو روز القوي.

في بعض الأحيان، حين كنتُ أجلس مع المجموعة حول النّار، كنت

أشعر بجَيشان عاطفيّ. كنت أتأثّر بوميض النّيران في الليل، وبصور النّساء خلال استراحتهنّ، وبتفاعل الكلمات، أو بصوت دينيس الذي يحمل عبر السهل رثاء حقبة أخرى. وفهمت ما أسمته أنثيا بالجمال، والذي كان على ما يبدو وفيرًا جدًّا في عالمهنّ.

بعد أربعة أشهر، وحين عزمنا على العودة إلى القرية بعد أن جُلنا في منطقة واسعة، شعرنا بقليل من الخوف عندما فكّرنا بما ينتظرنا وبما حصل في غيابنا. لكن لحسن الحظ، كانت كلّ النّساء على قيد الحياة، وكانت الجذوع التي طلبت إحضارها تنتظرني، فباشرت العمل الذي استمتعتُ به كثيرًا.

خلال تجوالنا، وجدنا موقعين ممتازين للانتقال إليهما، إذا قرّرنا مغادرة قريتنا الحالية. لكنني لم أرجّح أن يحصل هذا الانتقال بعد أن رأيت النّساء سعيدات في منازلهنّ الجديدة، خصوصًا أنهنّ رفضن المغادرة ما دامت الثلّاجة لم تفرغ من الطعام.

حين انتهيتُ من بناء المنازل، ذهبت برفقة أنثيا في رحلة استكشافيّة سريعة إلى مكانٍ قريب: كان النّهر جميلًا وعريض المجرى، وغنيًا بالنّباتات المائيّة، وكان قاعه طينيًا وربّما يكون مناسبًا لصنع الطوب. وجدنا أشجارًا صغيرة، فقالت أنثيا: «لا أعرف إن لاحظت أنه لم يبقَ كثير من الأشجار؟ إنها لا تنمو بسرعةٍ كبيرة، وقد ينفد الخشب قبل نفاد اللحوم».

بعد وقتٍ قصيرٍ من عودتنا، أعلنت أنجيلا أنّ صحّتها تتدهور، وأنها تعاني من الدوار والإرهاق، وبدأت ذاكرتها تخونها. يتراوح عمر أنجيلا بين السّتّين والخامسة والستين، لكنّها تنحدر من عائلة لا يعمّر أفرادها طويلًا. أخبرتنا أنه إذا تدهورت صحتها فهي لا تريدنا أن نتركها تعاني أو تموت ببطء كما حدث مع مارغريت.

لكنّ أنثيا احتجّت قائلةً: «وماذا تريدين أن نفعل؟ أنا أفهم ما تشيرين إليه، وكنت سأساعدك بتنفيذ ما تطلبينه، لكن لا حُقَن معنا ولا أدوية».

قالت أنجيلا: «ولكن هناك سكاكين، وأنت تعرفين كيف تُصيبين القلب».

بعد وقتٍ قصير تبيّنَ أنّ السكاكين لم تكن ضرورية، فسرعان ما دخلت أنجيلا في غيبوبة وماتت في غضون ثلاثة أيام، لكنّ الفكرة ترسّخت في ذهن أنثيا، وفكّرت في ماري جين التي قصدت الملجأ وشنقت نفسها. قالت لي: «لا أستطيع أن أنسى انتحار ماري جين، ويؤلمني أنّها أقدمت على ذلك بمفردها في منتصف اللّيل. ربمّا كانت تصرخ من الألم وهي تصنع أنشوطتها. أشعر أنني تخلّيت عنها وهذا يشعرني بتأنيب الضمير... كانت أنجيلا مُحقّة، فأنا أعرف مكان القلب وكيف أغرس السكين فيه، وأظنّ أنّ واجبي يحتّم عليّ فعل ذلك لأيّ شخصٍ يعاني من الألم نفسه الذي عانت منه ماري جين، لكنني أخشى أن تخذلني شجاعتي».

قلتُ: «علّميني، فأنفّذ المهمّة بدلًا منك، فأنا لستُ مثلكنّ».

في العام الثالث عشر بعد هروبنا، قرّرنا الهجرة والرحيل. فقد أوشكت اللّحوم على النّفاد من الثلّاجة، وانخفض عددنا إلى اثنتين وثلاثين امرأة؛ حدثت هذه الوفيات إمّا بشكل مفاجئ، أو بأقلّ ألم وصخب ممكنين، فلم أضطرّ إلى تنفيذ ما تعلّمتُه.

استخدمنا ما تبقّى من أشجارٍ قليلة لبناء عرباتٍ لتحميل الطاولات والكراسي، وتوجّهنا إلى موقعٍ يبعد ثلاثة أسابيع مشيًا عن القرية الأولى، وبنينا عشرة منازل. أوّل المنازل كان كبيرًا، أمّا المنازل الأخرى فكانت أصغر حجمًا، تكفي لاستيعاب عدد قليلٍ من النّساء. كانت المهمّة

ضخمة، ولكنّها منحتنا كالعادة متعةً هائلة. لقد غدونا نجّارات جيّدات، فصنعنا سطوحًا متينة ومستوية، كما صنعنا طوبًا ممتازًا باستخدام الطّين المستخرج من قاع النّهر، وبنينا جدرانًا لم تكن مستقيمة تمامًا، لكنّها متينة.

حاولنا إنشاء حدائق حول الأبواب الأمامية من خلال جمع عددٍ قليلٍ من الزهور البرّية النّادرة، لكنّها كانت تموت دائمًا، مع أننا واظبنا على ريّها والعناية بها. لقد تشاركتُ وغريتا وأنثيا وفرنسيس منزلًا واحدًا، وعاشت معظم النّساء في مجموعات من اثنتين، باستثناء دينيس وآنا بيل ولورا اللّواتي عشنَ معًا. وتشاركت كلّ النّساء مطبخًا واحدًا، حيث نتناول الوجبات معًا على طاولاتٍ وضِعت في ساحةٍ كبيرة.

أمضينا عامًا ممتعًا في العمل على بناء القرية. وبعد أن فرغنا منها، خففنا من الكسل، فاتجه بعضنا إلى الأعمال الخشبية. أما أنا فخرجت في رحلات استكشافية للعثور على أنواعٍ أخرى من الأشجار أو جذوعٍ أكثر سماكةً. في بعض الأحيان، عندما كنت أجد غصنًا مجوّفًا، كنت أحضره لروز، لأنها أرادت أن تصنع مزمارًا. لكنّ النّتيجة لم تكن في كلّ مرّة مرضيةً بالنّسبة إليها.

لم تتعلّم أيّ واحدةٍ منا الأمور البسيطة مثل صناعة الفخار، أو فنّ التعرّف إلى الأعشاب. قالت أنثيا إنّ أرضًا قاحلةً مثل هذه توفّر بالتأكيد موارد للإبداع أكثر من الأمور التي فكّرنا فيها حتّى الآن.. فلو عالجنا بعض النّباتات المائية بشكلٍ أمثل- تلك التي كنّا نستخدمها في صناعة سقوف القش- فربّما نستطيع الاستفادة منها في الحياكة والنّسيج.

تذكّرت فرنسيس أنّ ألياف الكتّان يجب أن تُنقع، ولكن ما هو النّقع؟ اقترحت امرأة أخرى ترْك الخشب منقوعًا لفترةٍ طويلة قبل العمل على

ثنيه، لكنّ جهودنا لم تُثمر في هذا الأمر أيضًا، فاستسلمنا بعد أن مررنا بخيبات أمل عديدة.

أدّت عبثية محاولاتنا تدريجًا إلى انهيار معنوياتنا. كان لدينا طعام ومنازل نعيش فيها، ولبى عدد قليل من أمتار القماش حاجاتنا المتواضعة، وكفى عدد من كيلوغرامات الصابون النّاعم متطلّباتنا للنظافة. كنا سنموت في النّهاية، واحدةً تلو الأخرى، من دون أن نفهم شيئًا ممّا حدث لنا، بعد أن تلاشت أسئلتنا بمرور السّنوات.

كان النّور لا يزال ينبعث من مصابيح الملاجئ، ولم أستطع أن أستسلم لفكرة عدم فهم ما يحصل: من أين تأتي الكهرباء؟ تظنّ أنثيا أنّ مصدرها محطّة توليد في مكان ما. فتساءلتُ: «هل تعمل بشكل تلقائيّ؟ لأنه بخلاف ذلك لا بدّ من أن يعرف من يشغلونها الغاية من تشغيلها». لكن السؤال الأكثر أهمية كان: «هل ستتوقّف هذه المحطات عن توليد الطاقة فتفسد اللّحوم في الثلاجات؟».

لم تعد أيّ امرأة تحلم بظهور رجال الإنقاذ، وتركّزت الأسئلة حول سبب فشلنا، وهذا ما جعلني أكتم رغبتي في الاستمرار بالمشي والاستكشاف، لأنّني كنت أعرف أنهنّ سيتّهمنني بالجنون.

لم يغلبنا اليأس الذي أوضحت أنثيا أنه يؤدّي إلى فقدان الأمل والإحباط والعزلة، بل كنّا رابطات الجأش، فلم نعُد إلى المحادثات المطوّلة حول كلّ موضوع، واختفى التوتّر الذي كان يسيطر علينا من قبل.

في العام الذي كنّا نبني فيه القرية الجديدة، استعادت النّساء حيويتهنّ، لكن سرعان ما عدنَ إلى الخمول السابق، ولم يتعجّلن إكمال أي مهمّة؛ كانت المهام التي تبثّ الحماسة في نفوسهنّ قليلة جدًّا، وهذا

ما أثّر في مظهرهنّ؛ فبدون عجائز، وسرن معظم الأحيان مطأطئات الرؤوس، ما لم يكن لديهنّ سبب للنظر إلى الأعلى.

لم يقتصر الأمر على ما تقدّم، بل تلاشى ما تبقّى لديهنّ من عواطف، وتحوّل لون شعورهنّ إلى الرمادي، وبدا أنهنّ يفقدْن الرغبة في الحياة شيئًا فشيئًا. أخيرًا، اكتشفت النّساء النّاجيات من القفص والسهول وفقدان الأمل، أنّ البقاء على قيد الحياة ليس أكثر من تأجيلٍ للحظة الموت، وفي الوقت الذي واصلن فيه الأكل والشرب والنّوم، كنّ في الظلّ ينسحبن ويستسلمن بصمتٍ للموت القادم. صرْن نحيفات، وصارت التجاعيد التي ظهرت على وجوههنّ المكتئبة أخاديد، وغدا أيّ جهدٍ، مهما يكن قليلًا، متعبًا. فقد آلمتهنّ أوراكهنّ، وتورّمت أقدامهنّ.

عانت إليزابيث من نزيف، وعانت غريتا من آلام في المعدة، في الوقت الذي عانت آنا بيل من شلل أصاب أحد جانبيها، فعجزت عن الكلام وطمست إحدى عينيها. توسّلت المساعدة بعينها الأخرى، وكنّا نعرف ما تريد، لكنّ أنثيا، لم تكن قادرة على الاستجابة لها، فتمتمتْ باكية قرب أذني: «لقد قلتِ إنّك تريدين القيام بذلك بدلًا مني». ولم تجرؤ على النّظر إلى عيني.

قلت لها: «سأقوم بذلك».

لم أفهم سبب تردّدها، ولماذا وجدتْ صعوبة في تلبية رغبة آنا بيل ما دمْنا لا نستطيع القيام بأيّ شيءٍ آخر لإنهاء عذابها. لكنني الآن أظن أنني فهمتها بعد أن بكيتُ بدوري. فعلى الرغم من أنني قضيت معهنّ معظم حياتي، إلّا أنني أدرك جيدًا أنني كنت دائمًا مختلفة، ربمّا لأنني لم أشاركهنّ جزءًا من ماضيهنّ.

شرحت لي أنثيا بأدقّ التفاصيل كيف أبدأ بالعدّ من عظم الترقوة،

حتّى أصل إلى عظم القصّ، ومن هناك أتراجع بما يعادل عرض ثلاث أصابع... أشارت إلى صدرها، وحدّدت المكان الذي يجب أن أغرس فيه السكين بقوة وسرعة، وقالت: «وهكذا في يومٍ ما، عندما يحين دوري، ستعرفين ما يجدر بك القيام به».

خرجت كلّ النّساء من المنزل حيث ترقد آنا، وبقيتُ وحدي معها. وحين جلستُ إلى جانبها نظرتْ إليّ، فرأيتُ أمارات الارتياح على القسم الذي لا تزال تتحكّم فيه من وجهها. بعد ذلك، وضعتُ البطّانيّة خلف ظهرها، ولم أجد صعوبةً في عدّ الأضلاع البارزة، ولا في تحديد حافّة عظم القصّ، فوضعت إصبعي وشعرت بنبض قلبها الذي بدا قويًا، وعرفت أنّ العذاب المروّع هذا سيرافقها لوقت طويل ما لم أتدخّل. في تلك الأثناء، رفعتْ ذراعها التي لا تزال قادرة على تحريكها، ومسحتْ على خدّي وأنا أضع مقدّمة السكّين، الذي قضيت وقتا طويلًا في شحذه، على جلدها، فطعنتُها بسرعة وبدقة. عندئذ سقطت ذراعها وتوقّف قلبها عن النّبض.

مسح عدد من النّساء اللواتي قتلتهنّ على خدّي، وهي الملاطفة الوحيدة التي أستطيع تقبّلها. بهذه الطريقة شكرتني كلّ امرأة قتلتها على الموت الذي أذقتها إياه. لقد تبيّن لي أن أحدًا لا يرغب في الشعور بالألم، لذلك تعجّلن في طلب الموت. لا أعرف كم قتلت منهنّ، أنا التي أحصي كلّ شيء، إلّا أنني لم أحصِ النّساء اللواتي وضعتُ حدًّا لحياتهنّ.

في كلّ مرّة، حتّى عندما كانت آلامهنّ تبلغ ذروتها، كنت أرى وجوههنّ المعذّبة تسترخي وأنا على وشك أن أطعنهنّ. لم يكن الأمر يلفت انتباهي، لأنني كنت أرى في أعينهنّ رغبة في أن أسرع وأريحهنّ... في لحظة الموت هذه كنّ يعترفْنَ بيأسهنّ، فيندفعنَ بسرعة نحو

الأبواب المظلمة الكبيرة التي أفتحها لهنّ، تاركات هذا السهل العقيم حيث انحرفت حياتهنّ من دون أن يلقين نظرة إلى الخلف، متلهفاتٍ ليحتضنهنّ عالم آخر فضّلنه على التتابع العقيم للأيام الفارغة.

أعرف أنهنّ في تلك اللحظة الأخيرة أحببنني، وهذا الحبّ هو الذي حال دون ارتعاش يدي، فصرت بالنّسبة إلى كلّ واحدة صديقتها الأثيرة في لحظاتها الأخيرة؛ صديقةً وإن كنت غريبةً؛ صديقةً تختارها بمحض إرادتها لتقودها إلى مصيرها الغامض. فأكون أقرب إليها من زوجها الذي مات في أحد الملاجئ، أو تحت سماء أخرى، وأقرب من صديقاتها الباكيات اللّواتي ينتظرنَ خروجي من الباب، وأنا أحمل السّكين الملفوف بقطعة القماش السميكة لأخفي الدم الذي يقطر منه، فأومئ لهنّ برأسي مؤكّدةً أنني أنجزت المهمّة، وأنّ معاناة المرأة المريضة قد توقّفت، وأن عذاب إحداهنّ على الأقلّ قد انتهى، فأتبادل وإياهن التحديق الصامت لبرهة. ثم يدخلنَ لتكفين المرأة التي قتلتُها بأجدد وأفضل بطّانيّة لدينا. وعند حلول الظلام، نحملها إلى المقبرة وننزلها برفق إلى قبرها. واحدةً تلو الأخرى، دُفنت النّساء تحت تلك السماء من دون أن نعرف، لا أنا ولا هنّ، إن كانت هذه هي السماء التي ولِدنا تحتها.

لم يكن ضروريًا أن أتدخل وأضع حدًا لحياة أنثيا، فكلّ حالة وفاة كانت تقرّبها أكثر من الموت. كنّا مفعمات بالأمل حين هربنا من قفص الملجأ، لكن الأمل تبدّد ببطء، فتخلّينا بشكل تدريجيّ عن توقّعاتنا وطموحاتنا، وكان هذا سبب هزيمتنا في معركة لم تحصل. وحين أدركنا أننا كنّا سجينات في العراء كما كنّا خلف القضبان، تساءلت أنثيا: «هل أدركنا ذلك بعد العثور على الملجأ الثاني حين شعرنا بالرعب لرؤية تسع وثلاثين امرأةً ميتة مكدّساتٍ بعضهنّ فوق بعض؟ أو في المرّة الأولى

التي نزلنا فيها الدرج من دون أن يكون لدينا أيّ أمل بالعثور على القفص مفتوحًا؟ أو عندما شنقت ماري جين نفسها؟ متى عرفنا على وجه اليقين أنّنا فقدنا المستقبل، وأننا سنستمر في العيش مثل طفيليات على مخلّفات أولئك الذين سجنونا؛ نسرق الملاجئ لنأخذ طعامنا من العدوّ الذي فرّ؟ ألم يشعرنا كلّ هذا بالغثيان والقرف؟». كانت تمضي في هذه الأسئلة إلى ما لا نهاية، وأنا أستمع لها بصمت، وكانت استحالة العثور على أجوبة هي السكّين الافتراضيّ الذي أوقف قلبها.

كنّا ستًّا فقط. ماتت غريتا، ولم تستطع أنثيا الوقوف لمرافقتنا إلى المقبرة، فحملناها على نقالة مثل التي ماتت دوروثي عليها. استلقت أنثيا على ظهرها، وحدّقت إلى السّماء ونحن نسير متسائلات إن كنّا على كوكب الأرض، لقد رأينا قمرًا، وقالت النّساء دائمًا إنه يبدو مثل القمر الذي يعرفنه، لكنهنّ لم يكنّ واثقات.

ضعف بصر أنثيا وأوشكت أن تخسره كما خسرت العمر في إصرارٍ لا جدوى منه. عندما وصلنا، كانت غريتا ممدّدة في قبرها ولورا تنظر إليها. بعد موت روز صارت النّساء يرتلن بشكل جماعي، ولكنني لم أشاركهنّ في ذلك يومًا. لم أتعلّم الترتيل في الملجأ لأن أحدًا لم يرتل فيه، وقد فات الأوان على التعلّم. أنا الآن أشعر بالغصّة، ولا أستطيع إصدار أي صوت سوى نعيق صاخب لا يستمرّ طويلًا. لا أعرف إن كنتُ قادرةً على الكلام، ولن أعرف ما لم أُجرّب، لكنني لا أرغب حتّى بالتجربة. فما الضير إن صرت بكماء في عالم لا يوجد فيه من أتحدّث إليه؟

وقفنا طويلًا أمام القبر صامتات، وبين الفينة والأخرى كرّرت إحدى النّساء الكلمات المأثورة: «من الأعماق أدعوك يا رب». ربمّا ليست هذه هي الترجمة الصحيحة تمامًا، فلا أحد منّا يعرف تلك اللّغة التي كنَّ يرتّلن

بها أمام الملجأ، لكنّ النّساء أخبرنني ما يفهمنَ منها... ارتفعت أصواتهنّ، ونظرنَ إلى السّماء المظلمة وكأنهنّ ينتظرن ردًّا بطريقة أو بأخرى. بعد ذلك، سكتن واحدةً تلو الأخرى، وتلاشت الجوقة كما تتلاشى النّار عندما لا تجد ما تلتهمه، وساد الصمت الذي لا تعكّر صفوه إلّا النّسمات التي تهبّ دائمًا... لم يبقَ أمامنا سوى أن نهيل التراب فوق الجثّة الهزيلة التي يصعب تمييزها تحت البطّانيّة، ونعود ببطء إلى قرية المنازل الفارغة.

وضعت النّساء النّقّالة بجانب السرير وتركنَنا وحدنا. حملتُ أنثيا إلى سريرها، فقد أصبحت نحيفة جدًا وهذا ما جعل حملها سهلًا، ثمّ دثّرتها جيدًا لأنها صارت حسّاسة جدًا تجاه البرد. تبادلْنا كلماتٍ طيبة ورقدنا، لكنني سمعتها تنشج، وهذا ما حال دون نومي، فنهضت وجلست على حافة سريرها. طلبت منّي أن أمسك يدها، وهي تعرف أنني أكره اللّمس، فأدركت أنها ما كانت ستطلب مني التغلّب على ما أكره، إلّا لأنها بحاجة ماسّة إلى هذا الاتصال المثير للشفقة.

قالت: «أنت تعرفين أنه سينتهي بك المطاف وحيدةً».

كثيرًا ما فكّرت في ذلك.

تابعتْ: «لقد اعتنيتُ بك بأفضل ما أستطيع عندما كنتِ صغيرةً، وعلّمتك كلّ ما أعرفه، ولكنني سأفارقك عمّا قريب، وأنا أشعر أنني أتخلّى عنك».

أجبتها: «ليس لديك خيارٌ آخر».

سألتني: «كيف ستمضين أيامك؟».

قلت: «سأمضي قُدمًا، وسأواصل البحث، لو كان الأمر بيدي ما كنت لأتوقّف، لكنني رأيت الأخريات عاجزات عن المضي قُدمًا في البحث، فتوقّفتُ معهنّ».

سألتني: «هل ستستطيعين التأقلم؟ ألنْ تصابي بالجنون؟».

قلت: «لا أعرف ما هو الجنون. وأنت خير من يعرف أنني لست مثلكنّ، وأنني لم أختبر الحياة التي تفتقدنَها بشدّة، وإن كنتُ قد مررت بها، فأنا لا أتذكّرها، وهذا لن يضرّني، فالأمر يبدو لي وكأنني كنتُ دائمًا وحيدة حتّى وأنتن تحطنَ بي جميعًا، لأنني مختلفةٌ تمامًا. أنا لم أفهمك حقّ الفهم، وفي كثير من الأحيان لم أعرف ما الذي كنتِ تتحدّثين عنه».

وافقتني قائلةً: «هذا صحيح.. أنت الوحيدة بيننا التي تنتمي إلى هنا».

«الصحيح هو أنني سأكون المالكة الوحيدة لهذا الهُنا».

بعد ذلك صمتتْ طويلًا، وانهمرت الدموع على خديها. ربمّا كانت تفكّر في الماضي من الأيام، وفي الحياة المنطقية التي خسرتها، فحاولت أن تكفكف دموعها بلطف. لم نأتِ بحركة وظللنا ساكنتين، ومن خلال النظر إلى الشريان في يدها شعرتُ بعدم انتظام ضربات قلبها، فقد تعلّمتُ التعرّف إلى هذا النّوع من الإيقاع، وهو يغدو أضعف فأضعف حتّى نظنّه توقّف، لكنّه يعود وينبض من جديد، ولكن حينها لا أحد يرجو منه أملًا، لأن إرادة الحياة ليست عاملًا كافيًا للانتصار هنا.

لم أكن متأكّدةً من أنّ أنثيا سترى الفجر، وفي وقتٍ ما من الليل، سألتْني إذا كنت أطيق احتضانها، وقالتْ: «أنا أشعر بالبرد الشديد».

عرضتُ عليها أن أجلب بطّانيّة أخرى، فأومأتْ برأسها، وابتسمت بوَهن: «أنا بحاجة إلى الاحتضان، والشعور بجسدٍ حيّ يضغط على جسدي».

تحاملتُ على نفسي، وأظن أنني أحسنتُ إخفاء ما أشعر به، واستلقيتُ إلى جانبها، وأسندتُ رأسها إلى كتفي وضممتُها، فقالت لي:

«لقد أحببتُك كثيرًا»، ثمّ تقلّبتْ بين النّوم والصحو، وأعتقد أنها دخلت حلمًا، لأنها كانت تؤدّي بعض الحركات البسيطة أحيانًا، وكانت تتمتم بشكلٍ غير واضح. مع نهاية هذا اليوم صارت هادئةً تمامًا، وصار تنفّسها بطيئًا، ومن شدة تركيزي على مراقبة تراجع مؤشراتها الحيوية لم أخشَ أن يغلبني النوم، ومع ذلك لم أعرف بالضبط متى توقّفت عن التنفّس، فقد توقّف بهدوء وصمت.

في بعض الأحيان، يتحرّك الموت بتحفّظ شديد فيسلب الروح بصمت، ولا يحتاج إلى أكثر من لحظة واحدة ليقضي على فريسته. لم ألحظ متى كان النّفَس الأخير، وحين تأكّدتُ من أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى، استلقيتُ في مكاني لوقت طويل، وأنا أحتضنها كما رغبتْ. في تلك اللحظة لم أرغب بشيء أكثر من احتضانها.

لم يبقَ من المجموعة سوى أنا وفرنسيس ودينيس ولورا. بعد أشهر عدة، سقطت فرنسيس في المنزل وكسرت وركها. سبق لأنثيا أن شرحت لي عن هذه الكسور التي تصيب النّساء المسنّات، وأخبرتني أن لا مجال للتعافي منها.

كانت فرنسيس تعاني من ألمٍ شديد لدرجة أنها لم ترغب في أن نرفعها، فطلبت مني أن أُسرع في طعن قلبها، فهي لا تريد أن تعاني. تركتها بمفردها مع دينيس ولورا، وذهبت لأتأكّد من أنّ السّكّين حادّ بما يكفي، وحين عدت، نهضت المرأتان وخرجتا. وكان غريبًا ما فعلتاه وهما تخرجان؛ لقد عانقتاني وكأنهما تشكرانني على ما سأقوم به.

ركعتُ بجانب فرنسيس فأمسكت بكتفي وجذبتني نحوها وطبعت قبلةً على وجنتي، وقالت لي: «أنت لطيفة». تأثّرتُ فابتسمتُ لها، وبعد أن اخترق السكين قلبها رأيت ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيها.

بعد أن دفنّا فرنسيس وعدنا إلى القرية، طلبت منّي دينيس أن أطعنها هي الأخرى، فوجدت طلبها مستغربًا. من المستحيل أن أطعن قلب امرأة لا تزال بصحّةٍ جيدة وإنْ كنت أعرف مقدار الحزن الذي تعاني منه. بعد ثلاث سنوات أُصيبت بشلل نصفي كالذي أصيبت به آنا، ولكنه لم يؤثّر في وجهها، فظلّت قادرة على التحدّث. يومها سألتني: «والآن، هل ستفعلين ما طلبت منك أن تفعليه منذ ثلاث سنوات؟».

أجبتها: «الأمر مختلف الآن وصار من واجبي أن أفعله».

بعد أن ماتت كلّ النساء، انتهى بي المطاف مع لورا التي كانت أصغر النّساء إلّا أنها أكبر مني، ولم يكن موتها قريبًا كما يبدو. وعلى الرغم من أنها رافقتني في رحلاتٍ استكشافية عديدة، بيد أنني لم أستلطفها، فهي دائمة الشكوى، وعصبية نوعًا ما. لكن شخصيتها تغيرت في النهاية، فلم تعد تحتجّ أبدًا على قراراتي، وسيكون الشخص نزقًا جدًا ليحتج على ما أسميه قرارات. فحين أقرّر الذهاب لإحضار اللحم أو غسل الملابس أو إشعال النّار فأنا لا أطلب ذلك إلّا لأن اللحم أوشك أن ينفد ولأن الملابس متسخة ولأننا نريد أن نطبخ. إن أردنا أن نصف الأمر بدقة فنستطيع القول إنها تنازلت لي عن القيادة، وحين أدركتُ ذلك عرفتُ أنّها فقدت كلّ اهتمام بالحياة.

في صباح أحد الأيام، وفي طريق عودتي إلى القرية محمّلة بالمعلّبات، وجدتها جالسة على المقعد الذي وضعته في الخارج، فقد كنّا في الموسم الذي يهطل فيه أقلّ قدر من المطر، ولاحظتُ أنّ وجهها كان خاليًا من التعبير وهي تُحدّق إلى البعيد. مضت سنوات عليها وهي تعاني من ضعف البصر، وكانت تزعم أنّ التحديق إلى المدى الشاسع يُساعدها على الرؤية بشكل أوضح.

أراحت يديها على فخذيها، ووجهت راحتيهما إلى الأعلى، وكأنها نسيت أن تقلبهما، وهذا ما جعل مظهرها غريبًا، وكأنّها قطعة من الملابس المجعّدة ألقيت جانبًا بلا مبالاة. كانت فخذاها متباعدتين قليلًا. في الملجأ، كانت لورا نحيفة مثل الأخريات، ثم اكتسبت وزنًا، وكانت تشكو باستمرار من عدم قدرتها على التحكّم في شهيتها. لكن منذ وفاة أليس، فقدت كلّ اهتمام لها بالطعام، وخسرت كثيرًا من وزنها، لكنها الآن تتصرف وكأنها امرأة ممتلئة الجسم لا تتلامس ركبتاها عندما تلتقي فخذاها، بسبب حجم فخذيها الكبيرتين، فظننت أن جسمها ما عاد يتعرف إلى شكله الحالي.

ارتفع فستانها قليلًا، كاشفًا عن بشرتها الهشّة الذابلة. لقد خطتُ لها هذا الفستان، بعد أن جمعتُ قطع القماش الأقلّ تآكلًا من فساتين النّساء الميتات، راقبتني وأنا أخيط الفستان وكأنها لا تستطيع فهم سبب انشغالي بهذا الشكل، ثم ارتدتِ الفستان واستعادت وعيها للحظة لتشكرني.

توجّهتُ صوبها، وحاولتُ التحدّث إليها لكي أبدّد أيّ خوف تشعر به. أخبرتها أنني أحضرتُ معي حساء، وأننا سنتناول الطعام بعد قليل، وأنني أحضرت الصابون لأنّ علبتنا الأخيرة أوشكت أن تفرغ، وتابعتُ: «لكنّ توقّعي كان صائبًا، إذ بحثتُ في كلّ مكان ولم أجد خيوطًا، وبالتالي لن أستطيع أن أصلح لك فستانك».

في الماضي، كنا نستخدم شعرها للخياطة، لكنّ شعرها صار الآن ضعيفًا وخفيفًا. وأنا أتحدّث إليها، فكّرت في ضرورة ذهابي في رحلة استكشافية لأنّ الصابون أوشك أن ينفد، لكنني لم أخبرها بذلك بعد أن رأيت الخوف الذي استوطن تعابير وجهها. فقد بدت لي وكأنها نامت

ونسيتْ أن تُغمض عينيها، ثمّ استدارت نحوي، وحينها تبيّن لي أنها لم تعد ترى سوى الظلال.

قالت وكأنها نسيتْ أنه ما عاد أحد سوانا في القرية: «هذه أنتِ أيتها الطفلة؟! أنت فتاة جيدة، وأنا ما عدت أستطيع أن أمدّ لك يد المساعدة».

تحدّثتُ إليها باقتضاب لأبدّد قلقها، وأبعث الطمأنينة في نفسها، ودخلتُ المنزل لأشعل النّار، فتبعتْني ببطء، وانتهى بها المطاف وهي تقف إلى جانبي، وحين لم تجد طريقة لتساعدني بها، اكتفتْ بمراقبتي.

سألتني: «هل تعتقدين أنني سأعيش لفترة أطول؟».

كانت طريقتها في الكلام هادئة وطبيعية، وكأنها تطرح سؤالًا عاديًا، وتنتظر الإجابة بسعادة لتفكّر بعدها بأمر آخر... حين لا يعود المرء يهتمّ بأموره الخاصة، فهذا دليل لا يرقى إليه شكّ أن أجله دنا.

نادتني النّساء بالطفلة، وحتّى هذه اللحظة، وبعد أن مضت عليّ فترة طويلة وأنا أعيش بمفردي، وربّما لأنّ لا اسم لي، لا أزال أشعر بأنني الأصغر، مع أنه ما بقي أحدٌ غيري لأقارن نفسي به.

تذكّرتُ الأيام التي شعرت فيها بالغضب والعصبية، حين تهيّأ لي أنهنّ يسخرن منّي، وأنني لا أعرف شيئًا، في حين أنهنّ يعرفن كلّ شيء، فوجدتُ أنّه من المحزن أن تستشيرني لورا الآن. بدا الأمر وكأنّ معجزة قد حصلت. ثمّ وقفتْ مكانها، لا تعرف ماذا تفعل بجسدها.

سألتُها: «هل تشعرين بالتوعّك؟».

لقد تأخّر ردّها عن سؤالي لدرجة أنني ظننتُها نسيته. بدت مندهشة، وواجهت صعوبة في التفكير، فأومأتْ برأسها، وقالت: «أنا متعبةٌ، ولكنّ الجميع متعبات، أليس كذلك؟».

الجميع! نحن اثنتان!

مكتبة
t.me/soramnqraa

أجبتها بهدوء: «نعم، الجميع متعبات».

إن نسيتْ أنّ الجميع قد مُتن، فلماذا أذكّرها؟

أشعلتُ نارًا، وأضفتُ أغصانًا، ووضعت الموقد واخترت علبتين من حساء الطماطم.

علّمتني أنثيا قراءة الملصقات، وفرحت عندما اكتشفت أن هاتين العلبتين من النّوع الذي يحتوي على كرات لحمٍ صغيرة. وقفت لورا إلى جانبي، وأوحتْ هيئتها بأنها غير قادرة على التفكير في ما يجب أن تفعله، فخيِّل إليّ أنّ ساقيها لم تكونا مستقرّتين، لكنني لم أكن متأكّدةً ممّا أرى.

في البداية، فكّرتُ في أنّ تشوّش رؤيتي بسبب شرارات النّار هو الذي جعلني أتخيّل ذلك، ولكنّها حين فارقت الحياة بعد فترة وجيزة، قدّرتُ أنها ربمّا لم تقوَ في تلك اللحظة على الوقوف على قدميها. قدتُها بلطفٍ إلى كرسي أمام الطاولة الكبيرة، وأجلستها ووضعتُ طبقًا وكوبًا أمامها.

قلتُ: «سنتناول الطعام في غضون دقائق».

أجابت: «كما تريدين».

تفرّستُ وجهها فبدا لي خاليًا من التعابير. ربمّا كان قلقي هو الذي جعلني أعتقد أنها تبدو ضائعة. بدت عيناها جامدتين، وتدلّت ذراعاها إلى جانبيها، أردتُ أن أضعهما في حضنها، لكن ذلك ذكّرني بالحركة التي أقوم بها كثيرًا، حين أضع ذراعي امرأة ميتة على صدرها ثم أغمض عينيها، لذلك تراجعت، مع أنني كنت واثقة من أنها ستموت قريبًا.

هكذا كانت تتحرّك على قدميها، وكأنها ظلٌّ يجوب مكانًا غريبًا، لم تكن مريضة، ولم يكن جسدها هو ما استسلم، بل روحها التي أرهقها تحريك تلك العضلات، والاحتفاظ بنبض هذا القلب، والقيام بكل حركات

الحياة. هذه الروح التي فقدت لذة العيش منذ فترة طويلة، بعد أن شهدت موت رفيقاتها، واحدةً تلو الأخرى، لم يبقَ لها من رفيقة سوى امرأةٍ لا تبادلها كثيرًا من الودّ.

فكّرتُ أن حياتها كانت سلسلة من المآسي. في الماضي، عاشت لعشرين أو خمسة وعشرين عامًا بشكل طبيعيّ وفق المسار المنطقي للأمور، ثمّ جرت أحداث غير منطقية، أدخلتها عالمًا عبثيًا، فعاشت مع نساء غريبات لم يعرفنَ مثلها ما الذي حدث، فسعت لتعيش معهنّ بمودة. في تلك الفترة تذكّرتُ أليس، بحيويتها وحماستها، والتي كانت تقول لي حين ازعجها: اذهبي للّعب الآن. لقد عاشتا معًا في منزلٍ صغير، ولم تكن جدالاتهما الصاخبة تتوقّف، ولكنّ الصلح سرعان ما كان يُخمد صخب الجدال، ويَعِدُ بتسوية كلّ شيء.

كان لا بُدّ من القيام بشيء لتزجية الوقت. لذا، عقدتُ العزم على الجلوس أمامها، وحاولت التّحدّث بكلّ ما يمكن أن يرفع معنويّاتها ويدعمها، ولكنّ كلّ الكلمات التي تبادرت إلى ذهني عجزتْ عن تخصيب هذه الأرض العقيمة بالأمل. تساءلتُ حتّى أُعييت عمّا أقدر أن أُقدّمه لها، أنا الجاهلة الخاوية، ونحن نعيش في عزلة بسط الصمت سيطرته عليها منذ وقت لا أعرف له بداية. كيف لي أن أدعمها أنا التي سألت طوال حياتي عن سبب بقائنا أحياء ونحن لا نفعل شيئًا، ولا نذهب إلى أيّ مكان ولا يمكن أن نصف أنفسنا بالأحياء.

قلتُ لها: «أريد أن أذهب للاستكشاف وسأعود قريبًا، فأنا لا أريد أن أنهي أيامي هنا، وأكتفي بتناول الطعام المعلّب».

بدا لي جليًا الجهد الذي تبذله لتفهم ما قلته، فأوجزتُ لها الأمر لمساعدتها: «سأذهب للاستكشاف».

سألتني مندهشة: «ما الذي ستذهبين لاكتشافه؟ فأنت تعرفين أنك لن تعثري سوى على ملاجئ». توقّفتْ لتلتقط أنفاسها، وبدا أنّ التفكير يجهدها ويستنزف كثيرًا من طاقتها فأردفت «حتّى الفصول لا وجود لها هنا».

قلتُ: «لا يفترض بنا أن نحسم الأمر؛ فنحن استسلمنا سريعًا ولم نبحث سوى لسنتين، أليس كذلك؟ لقد استقررنا بسبب النّساء المُسنّات، وانتظرنا ريثما يمتن بسلام. لقد عاشت بعض المُسنّات وقتًا طويلًا، والآن أريد أن أغادر، فأنا لست عجوزًا».

قالت: «انتظري قليلًا، فأنا لن أعيش طويلًا».

فهمتْ ما أُلمّح إليه، وهي تعرف أنها لن تستطيع البقاء بمفردها، فطاقتها نضبت، وما عادت تستطيع التوجّه إلى الملاجئ لجلب الطعام، وجمع الحطب لإشعال النّار، وأنني لا أستطيع التخلّي عنها. صار الحساء ساخنًا، فتناولناه بصمت، وبعدها قصدتُ النّهر لأغتسل.

حين عدتُ، وجدتها جالسة تنتظرني، فلقد تعوّدت أن تجلس حتّى لا تعود قادرة على مقاومة النّعاس، فتتوجّه إلى سريرها وتتمدّد فيه وسرعان ما تدخل عالم النّوم، وتنتظر هناك، حتّى يؤذن لها بالعودة إلى عالم اليقظة.

لم أكن أرغب في أن تموت، فاستغربتُ وتسألتُ عن سبب رغبتي في بقائها حيّة؛ لأكثر من مرّة شعرت بنفاد الصبر، واجتاحتني موجة عارمة من السعادة عندما فكّرت بأنّني سأتحرّر قريبًا. ولكي أوقد شعلة حماستي قليلًا، شرعت أحدّد ما سأحتاج إلى أخذه معي؛ فأنا سأحزم في حقيبة كبيرة مؤنًا تكفيني لأسبوعين، بالإضافة إلى بطّانيّتين، لأنني تعوّدت النّوم على السرير وأخشى أن أجد الأرض قاسية جدًا.

في وقت لاحق، استقرّ رأيي على أنّ بطّانيّة واحدة ستكون كافية وبذلك تصير حمولتي أخفّ، وذكّرت نفسي بأنني سأحتاج إلى كثير من أعواد الثقاب، ومجرفة صغيرة، وحذاء، وصابون. ولأن فستاني كان ممزقًا فيجب أن أُفتش عن قماش وخيوط، لأنني كنت أصادف بانتظام ملاجئ تحتوي على إمدادات جديدة. كذلك يجب أن أفتش عن حذاء ذي مقاس مناسب لأنني كنت أرغب في السير لمسافة طويلة، وقد مررت في الماضي بتجربة غير سارة مع ظهور البثور والتقرّحات، ولأننا لم نعثر على الجوارب، فلقد انتعلت الصنادل طوال سنوات، وصار جلد قدميّ ناعمًا، لكنني واثقة من أنه سينقلب خشنًا عما قريب.

رحت أتجوّل، وأكرّس نفسي بسعادة للمهام المنزلية القليلة جدًا، وانهمكتُ بالتفكير في الرحلة والتخطيط لها. واصلت مراجعة قائمة المستلزمات التي سأحتاج إليها، وتعديلها، وتقليصها حتّى شعرت بالغضب الشديد لكثرة ما بدّلت فيها. لكن سرعان ما وجدت نفسي، وقد فرغتُ من المهام التي عليّ إنجازها: جرف الأرض وقلب الفُرُش ونفض البطّانيّات ولم يبقَ شيء لغسله أو تخزينه. خرجتُ وجلست على كرسيّ قبالة لورا التي كانت تنظر إلى نقطة في السّماء ستتوارى فيها الشمس بعد قليل. كانت نظراتها أكثر خواء ممّا كانت عليه سابقًا، كما أنها كانت شاردة أكثر من المعتاد، ولكنّ أنفاسها كانت منتظمة، واستقرّت يداها على فخذيها مقلوبتين إلى الأعلى مرّة أخرى، فتمكّنت من رؤية نبض شريان على الجزء الداخلي من معصمها. كانت نبضاتها منتظمة وواضحة وقوية. لهذا لا أعتقد أنها ماتت بسبب علّة جسدية، بل لأنّها تخلّت عن جسدها السليم الذي كانت أعضاؤه، ما عدا العينين، ستستمرّ في العمل لسنوات.

سمعَتني قادمةً، فتمتمتْ كلمات لم أستطع سماعها، لكنني لم أطلب منها إعادتها، فما الذي تريد أن تقوله لي؟ ما نقاط الاهتمام المشتركة

التي سنتحدّث عنها؟ هل نتحدّث عن اليوم الجميل، وأن الليلة ستكون صاحية؟ أو نتحدّث عن غروب الشمس؟ لم تكن مهتمّة بإخباري، ولم أكن مهتمّة بسماع ما تقوله. وعلى الأرجح حاولَت التحدّث إليّ من باب اللياقة لا أكثر، لتظهر أنها سعيدة برفقتي، وهذا ما كنتُ أشكّ فيه. فما الذي يُسعدها برفقتي، وأنا لا أقدّم لها سوى الطعام والشراب وهما اللذان يعملان على إطالة حياتها التي هي أصلًا ما عادت راغبة بها؟

قلت: «نعم، بالطبع».

أرضاها جوابي، فنحن متّفقتان، من دون أن نكون متأكّدتين من الأمر، أو ربمّا لأننا في الحقيقة لا نملك أي شيءٍ مشترك. وهكذا جلسنا صامتتين.

لم أنظر إلى السماء، لأنني انشغلت بمراقبة لورا: بدت كأنها تنسحب إلى داخلها أكثر فأكثر. في البداية، حافظ وجهها على بعض تعابيره: شبح الابتسامة التي استقبلتني بها، والنّظرة المتعبة، والتكشيرة الباهتة حين حطّت حشرةٌ على يدها، لكنّها لم تأتِ بحركة لإبعادها حتّى تحرّكتُ وأبعدتُها في غفلة منها. أنارت شمس الغروب وجهها، ولم يكن هناك ظلٌّ، ولا شيء آخر يمكن رؤيته ما عدا الجلد المشدود فوق الأنسجة التي لا يزال الدم يجري في عروقها؛ نموذجٌ حيّ، له قمم وقيعان مختلفة عن تلك الموجودة في السهل أو التلّ، يمكن للعين استكشافها، ولكن من دون أن ترى شيئًا آخر غير تفاصيلها الظاهرة. كنت أستطيع أن ألمسها، أو أن أضع يدي على خدّيها، لكن هل كانت ستشعر بلمستي؟ هناك لحظة يبدو فيها كلّ شيء مبهمًا، فعلى الرغم من أنني كنت أرى بوضوح أنّ الشريان الصغير في معصمها لا يزال ينبض، إلّا أنني كنت متأكّدةً من أنّ لورا ماتت.كان تنفّسها خفيفًا ومنتظمًا دونما انقطاع، لكنّها لم تعد تفكّر.

في الماضي، شرحت لي أنثيا مخطّط كهرباء الدماغ؛ ربمّا صار مخطّط كهرباء دماغ لورا مسطّحًا، وهي تجلس على المقعد، وتراقب غروب الشمس. لا بُدّ من أنها تاهت في تلافيف الدماغ ومتاهات الذاكرة الغامضة، وتراجعت بحثًا عن عالم مفهوم، ثمّ ضلّت طريقها بين المتاهات. كانت تتدهور ببطءٍ، وتنحسر بلا ضجيج كأنّ شيئًا يطمسها، حتّى تتلاشى بصمت، وحتى أصبح الانتقال من النّور إلى الظلّ غير قابل للتمييز.

عندما لامست الشمس الأفق، برز معصمها بوضوح في ضوء المساء، ولاحظت أنه لم يعد هناك أيّ حركة تحت بشرتها البيضاء، فتنهّدتُ بعمق وارتياح، وأدركتُ أنّ آخر عقبة كانت تعترض طريقي قد زالت.

نظرتُ إليها مطوّلًا من حيث أجلس، ثم وضعتها على المقعد ووضعت يديها على صدرها، ووجّهت راحتيها بعناية إلى الأسفل، لكنني لم أغمض عينيها لأنهما أغمضتنا تلقائيًّا.

لم يكن هناك داعٍ للتأخير، فالتقطتُ المجرفة، وذهبت لأحفر خلف المنزل الكبير، حيث دُفنت الأخريات. كان الجو صافيًا هذه الليلة، ولم أكن بحاجة لحفر حفرة عميقة لأنه ليس هناك حيوانات لتنبش الجثث، ولم أكن مهتمّة بترك علامة تشير إلى وجود بقايا إنسانٍ في هذا المكان، فأنا أعرف أين دفنتها، ولا يفترض بي أن أخبر شخصًا آخر. لم تمضِ ساعة حتّى كان القبر جاهزًا لأودع فيه الجثة.

فكّرت وأنا أحفر بأنني وحيدةٌ، وعلى الرغم من أنها فقدت بعض الوزن، إلّا أنني شككت في قدرتي على حملها، وكانت فكرة وضعها على العربة مثيرة للاشمئزاز، فالعربة قصيرة جدًّا وستترجح ساقاها بشكلٍ غريب، وأنا أريد أن أنقلها بطريقة كريمة. وجدتُ نفسي في مأزقٍ حقيقي، ولم تخطر في بالي الفكرة المناسبة إلّا بعد أن عدتُ إليها،

ورأيت الطاولة الكبيرة التي صنعتُها منذ وقت طويل، فقرّرت أن أوازنها على العربة كي أضع لورا فوقها، وهي مغطّاةٌ بعناية بأفضل بطّانيّة. كان الأمر في غاية الصعوبة، وفكّرت في أنّ السّنوات التي قضيتُها مستقرّة استنزفت قوّتي البدنية.

لم أدّخر جهدًا لتنفيذ المهمّة، وعندما صرتُ مستعدة لنقل لورا إلى قبرها، كان النّهار قد أطفأ شموعه منذ فترة طويلة، فذهبت وقطفت بعض الزهور البريّة كي أنثرها حول وجهها، كما فعلتُ مع النّساء اللواتي متن من قبل، وحين عدت وجدتها شاحبةً، ولكنّ تعابير وجهها كانت مطمئنة، ولم تبدُ ميتة أكثر ممّا بدت عليه عندما كان قلبها لا يزال ينبض، بعد أن فقدت الاهتمام بالبقاء على قيد الحياة.

شرعتُ في دفع العربة، وكان عليّ أن أتوقّف بشكلٍ متكرّر لإزالة الحجارة وتمهيد الأرض، فمضى موكب الجنازة بطيئًا ومختصرًا: امرأةٌ حيّة تدفن امرأة ميتة.

توقّفتُ، وانحنيتُ، واستقمتُ مرة أخرى. تذكّرتُ تفاصيل الرحلات التي حَكَتْ لي النّساء عنها، حيث يطوف الأشخاص حول الكنائس على رُكَبهم، وهم يطلبون الغفران عن الخطايا التي ارتكبوها. في ذلك الوقت لم أفهم ما يعنيه ذلك، لكنني شعرت أنها طقوسٌ قديمةٌ جدًّا تعود إلى ذلك الكوكب الذي أتيتُ منه، إلّا أنها كانت غريبةً جدًا بالنّسبة إليّ.

خاطبت جثة لورا عندما وصلنا: «ها نحن نكاد ننتهي من الأمر». حملتُها بلطفٍ قدر المستطاع، وبدا لي أن لمس شخص ميت أقل ازعاجًا من لمس شخص حيّ. كانت ثقيلة للغاية، فشعرت لوهلة أنني لن أتمكّن من وضعها على الأرض برفق، لكنني نجحت في ذلك. لم أشأ أن أغطّيها بالتراب، وأدفن وجهها المسالم وشعرها الأبيض الذي كنت أمشّطه بعناية.

لذلك دفعت الطاولة الكبيرة إلى الأرض، وغرست قوائمها في التراب، ثم وضعت الجزء العلوي منها فوق القبر، وسويت الأرض حولها ثمّ تراجعت لأرى ما فعلت يداي: إنّه قبرٌ مستطيلٌ جميلٌ ونظيف. لا شكّ في أنّ المطر، رغم ندرته، سيكشف الخشب، لكنّ القبر سيبقى في مكانه ويتيح للورا بأن تتحوّل بهدوء إلى غبار.

بعد كلّ هذا الجهد، ذهبتُ إلى السرير ظنًا مني أنني سأنام كالأموات، لكنّ حماستي للرحيل أيقظتني قرابة الساعة الثالثة فجرًا، وحين لم أعد أستطيع الانتظار، أشعلتُ نارًا من جديد لتسخين الماء، وبدأت في حزم أمتعتي.

حين كنّا ثلاثين أو أربعين امرأةً، كان علينا دائمًا أن نأخذ في الاعتبار النّساء المُسنّات، اللّواتي يمشين ببطء ولا يتحملن كثيرًا، لكنني شابة وقويّة، فقرّرت أن آخذ مؤنًا تكفيني لثلاثة أسابيع ريثما أصل إلى ملجأ آخر. وجدتُ ستّ قوارير معدنية في المطبخ، كنّا قد جمعناها خلال بحثنا على مرّ السنوات، فملأتها بالماء لآخذها معي، لأن الأنهار قليلةٌ ومتباعدة، وقد أمشي في بعض الأحيان أيامًا عديدة قبل أن أصل إلى مصدر ماء.

أخبرتني أنثيا أنّ اللّحم مصدر جيّد للطاقة ويمنح القوة، ولاحظتُ وأنا أدفن لورا، أنني بحاجة إلى بناء قدرتي على التحمّل مرّةً أخرى، لكنّ المعلّبات المتبقّية لم تحتوِ على ما يكفي من اللحم، لذلك قرّرتُ التوجّه إلى الثلاجة لأُحضر قليلًا منه، وأسلقه لفترةٍ طويلة حتّى لا يفسد بسهولة. كنّا نعيش على بُعد خمسة كيلومترات من الملجأ حيث قفص الرجال، وكنّا،كالعادة، قد أغلقنا الباب الرئيسي في تقليدٍ حافظنا على أدائه دائمًا.

بعد أن أخرجت ما أحتاج إليه من لحوم، أردت أن ألقي نظرةً أخيرة على جيران السّنوات العشر الماضية، ولاحظتُ أنه بمرور الوقت لم تعد رائحة الجثث كريهة، خصوصًا وأنّ نظام التهوئة لم يتوقّف عن العمل.

تعوّدتُ رؤية الجثث المكدّسة بشكلٍ عشوائي ونحن ننتقل من ملجأ إلى آخر، بيد أن إحدى الجثث هنا لفتت انتباهي؛ إنها جثة رجل يجلس بعيدًا عن الآخرين وعن الباب المغلق، فتساءلت: «هل أراد أن ينأى بنفسه عن المجموعة التي ظلت تحاول فتح القفل حتّى النّفس الأخير؟ أو أنّه آخر مَن مات بعد أن وجه ضربة قاضية إلى أولئك الذين لم يستطيعوا التحلي بالشجاعة ولم يتوقّفوا عن البحث عن وسيلة للنجاة، كما كنت أفعل في كثيرٍ من الأحيان؟».

لقد طوى فراشه خلفه، ووضع فراشين إلى جانبيه، لذلك كان يجلس بشكلٍ مستقيمٍ جدًّا، داعمًا جسده بقوّة، فبدا لي أنه مات رافعًا رأسه معتزًا بنفسه محدقًا بعينيه الكبيرتين إلى الممرّ المظلم، في وضعٍ ينمّ عن تحدٍّ واعتزاز بالذات.

سرتُ بمحاذاة القفص واقتربت من جثّة الرجل ونظرت إلى وجهه الذي لم يبقَ منه الكثير، فتخيّلته وسيمًا، فلا ذبول بشرته ولا اللحية التي غطت وجهه استطاعتا إخفاء جمال ملامحه. لقد قبض راحتي يديه، وأسندهما إلى ركبتيه، فقادني هذا المشهد إلى التساؤل إن كان هذا الرجل يؤدي طقسًا، تعوّد محاربو الماضي تأديته وهم ينتظرون الموت، فيجلسون محدقين إلى مصيرهم.

غطّى قميص ممزق نصف جذعه وكشف عن إحدى كتفيه فبدت لي قوية. وأنا أقف أمام هذا الرجل الذي أراد التغلب على الخوف واليأس ليدخل الأبدية عزيزًا معتزًا بنفسه، شعرت أنا التي ما عرفت رجالًا قطّ،

بموجةٍ من الحزن تجتاحني فتنهّدتُ وغادرت. صعدتُ الدرج ببطء، وشعرت بشيء غريب يدعوني إلى العودة فاستغربت الأحاسيس التي تدفقت عليّ فجأة أنا التي رأيت أعدادًا كبيرة من الجثث ولم أكلّف نفسي عناء النّظر إليها. لماذا لم تلفت هذه الجثة انتباهي إلّا وأنا على وشك المغادرة؟ هل سبق لي أن التقيتُ الرجل في عالم ما قبل الكارثة؟ لم يكن كبيرًا في السّنّ، ولا شيء يمنع من أن يكون صديقًا لأبي، وربمّا يكون أبي نفسه، فلا بدّ من أنه كان لي أبٌ. لم أكن واثقة من شيء سوى أنه نوى الموت بكرامة، فجلس مستقيم الظهر، بعيدًا عن الآخرين الذين كانوا يصرخون ويتدافعون خائفين.

كنتُ امرأة وحيدة تنظر إلى الرجل الوحيد الذي رأته فخورًا ومعتزًا بنفسه، ومع ذلك كنت سأغادر من دون أن أعرف شيئًا عنه، سوى أنه سعى إلى هدف وحقّقه؛ أراد أن يواجه مصيره بشجاعة وكبرياء، وكنت أنا شاهدة وحيدة على هذه الشجاعة، وسأُبقي ذكرى هذه الشجاعة حيّة ما دمت على قيد الحياة.

توقّفتُ متردّدة للحظة، ثم نزلت الدرج لأعاود النظر إليه. تأمّلته محاولة أن أكتشف شيئًا جديدًا في وجهه المجعّد كالورق، وبدلًا من أن أعرف شيئًا عنه عرفت أن حزنًا عميقًا استقرّ في قلبي، وحاولت أن أقنع نفسي أنني رجعت لأنقش صورته في ذاكرتي، وتخيّلت أنا النّاس في الماضي الذي لا أعرفه كانوا يودّعون أحبتهم بهذه الطريقة. لم أعرف شيئًا عنه، لكنني أيضًا لم أكن أعرف شيئًا عن نفسي سوى أنني سأموت مثله في يوم من الأيام، وسأسند نفسي بالطريقة نفسها تعبيرًا عن الفخر والشجاعة، وسأنتظر الموت وأنا أنظر إلى الأمام بفخر، وحين ينتصر الموت عليّ، سأبقى شامخة مثل نصب تذكاري صامت.

غادرته على مضض، وحين وصلت القرية سلقتُ اللحم.

لم أقصد الفراش لأنني لم أكن ناعسة، ولأنني كنتُ مضطرّةً للحفاظ على النّار مشتعلةً، والفجر على وشك أن ينبلج. كان النّوم إلزاميًّا في القفص، وبعد التحرر تبيّن لي أنه ضروري لراحة الفرد، وأنه يُستحسن الالتزام بنمط النّوم نفسه الذي يتّبعه الآخرون. لكنني الآن وحدي، ولا أحد يعتمد عليّ، ولن تزعج عاداتي أحدًا. أنا أثق أن جسدي سيطلب النّوم عندما يحتاج إليه، لذلك لم أجد سببًا للنوم ما لم أشعر بالرغبة فيه.

صرت الآن جاهزة للمغادرة. انتعلتُ حذائي وحملت حقيبتي ومضيت. لم أخمد النّار، ولم أغلق باب المنزل، ولم أرتب الأشياء القليلة التي تركتها خلفي، لأنه لم يكن مطلوبًا مني سوى أن أختار الطريق الذي سأسلكه.

مشيتُ صوب مشرق الشمس، لأنّ السماء كانت رائعة أمامي، ولم أرَ أيّ سحابة في الأفق، فأحببت مشاهدة النّهار وهو يكشف اللثام عن وجهه. سرت بهدوء ومن دون استعجال لأستطيع المتابعة لفترة طويلة على الوتيرة نفسها. حدّدتُ دربي بناءً على التضاريس التي رأيتها أمامي، وبدأت الرحلة التي نويت أن أستمرّ فيها طوال حياتي، وأنا لا أعرف بالضبط ما الذي أتوقّعه منها.

صعدت المرتفع الطويل نحو الشرق، واستدرتُ حين وصلت إلى قمته، فرأيت المنازل العشرة الموجودة في القرية والتي استمتعتُ ببنائها، والمقبرة التي دفنت فيها أنثيا خلف أكبر المنازل. الآن، والآن فقط، أستطيع القول إنّ ذلك الشعور الذي كنتُ أكنّه لها، وتلك الثقة التي تراكمت بيننا ببطء، والتفضيل المستمرّ لرفقتها على أي شيءٍ آخر، وربمّا السعادة التي شعرت بها في كلّ مرّةٍ رأيتها فيها بعد رحلة استكشافية، هو ما تسمّيه النّساء الحبّ، والآن، لم يبقَ لي أحدٌ لأحبّه.

في البدء، رحتُ أحسب المسافة التي أقطعها؛ كانت نبضات قلبي هي وحدة الوقت، وخطواتي وحدة المسافة. قيل لي إنّ متوسّط طول الخطوة هو سبعون سنتيمترًا، وإنّ المتر يتألّف من مئة سنتيمتر. لطالما تحدّثت النّساء عن الأطوال أو المسافات مستخدمات الأمتار أو الكيلومترات كوحدات للقياس، لذلك ملتُ إلى استخدام المفاهيم نفسها، ولكنني سرعان ما أدركت أنّ ذلك لا طائل منه: فلهذه المصطلحات معنى بالنّسبة إليهنّ، ولكنها لا تعني لي شيئًا. لم أعد بحاجة إلى استخدام لغةٍ مشتركة، فالمدّة التي أقضيها في المشي كانت مقياسًا بحدّ ذاتها. ولم أعد بحاجة إلى تكبّد عناء تحويل خطواتي إلى كيلومترات؛ فأنا أحدّد المسافات من خلال ساعات المشي، وكنت دائمًا أعتمد على ثقتي بساعتي الداخليّة.

في اليوم الأوّل قرّرت أن أحسب عدد الخطوات التي قطعتها في ساعة واحدة وأن أختار وحدة تعادل الكيلومتر، ومن أجل ذلك سرت بوتيرةٍ منتظمة جدًا. لم تكن الأرض كثيرة التلال، بل تنوّعت تضاريسها بين منحدرات بسيطةٍ وأخرى معتدلة الانحدار، الأمر الذي لم يعقْ سيري ولم يؤثّر في سرعتي. بعد خمس ساعات استرحت، وحينها أحصيت سبعةً وثلاثين ألفًا وسبعمئة واثنتين وأربعين خطوة.

أجريت عملية القسمة التي صارت الآن أسهل بعد أن علّمتني أنثيا طريقة القيام بها عن طريق كتابة الأرقام على التراب، لكنّها كانت تتطلّب مني تركيزًا كبيرًا، وكانت نتيجتها أنّ سرعتي هي سبعة آلاف ومئةٌ وخمسون خطوة في الساعة. قرّرت التّحقُّق من النّتيجة من خلال عدّ الخطوات كلّ ساعة بمفردها، ثمّ كلّ عشر دقائق، وبحلول المساء، تبيّن لي أنني أمشي بمعدّل مئةٍ وتسع عشرة خطوة إلى مئةٍ واثنتين وعشرين خطوةً في الدقيقة.

في الوقت نفسه، حاولت أن أُقدّر مُسبقًا المسافة التي تفصلني عن نقطة معيّنة، وبذلك أكوّن تصوّرًا عن هذه المسافة، لكنّ المشهد الرتيب لم يساعدني. لذا، كنتُ أعتمد في أحيان كثيرة على شُجيرة، أو صخرة صغيرة، أو على أيّ مَعْلَمٍ صغير آخر. في أحيان أخرى لم أعرف إن كانت الأدغال التي أسير بجوارها هي التي حدّدتُها قبل عشر أو خمس عشرة دقيقة أم لا، لكنني رحت أقيس المسافات التي قطعتها، وشعرت أنني اكتسبتُ القدرة على احتساب المسافة، كما اكتسبتُ القدرة على احتساب الوقت سابقًا.

في اليوم الأوّل من المشي، وعلى الرغم من أنني لم أنمْ جيدًا في الليل، مشيتُ لعشر ساعات متواصلة، بوتيرةٍ ثابتة، ولمسافة طويلة، وعقدت العزم على التوقّف حين أشعر بأنّ التعب يبطئ سرعتي، ولكنني تساءلت بعدها: ما الذي سيدفعني إلى التوقّف؟ هل هو الجوع أو النّوم أو الملل؟ أعني ما الذي سيدفعني في الحقيقة إلى اتّخاذ القرارات وأنا وحيدةٌ تمامًا. في النّهاية، توقّفت حين شعرت بالجوع، لأنني أردتُ أن أنشئ عدّادًا داخليًا للمسافة. كانت خطّتي وإصراري على تنفيذ ما خطّطت له في ظلّ الظروف المناسبة هما ما حكم قراراتي. هكذا جلست في المكان الذي شعرت فيه بتباطؤ خطواتي، فجمعت قليلًا من الأغصان والفروع من أقرب الشُّجيرات وأشعلتُ نارًا، ولكنني حين وضعت حقيبتي على الأرض، شعرت بالإرهاق الشديد، وقرّرت أن آكل اللحم المسلوق من دون أن أُسخّنه. مع أنّ اللحم البارد لم يكن وجبةً شهيةً جدًّا، إلّا أنه كان غنيًا بالتوابل، وهذا ما أسعدني. إنّ ما أشعر به من حرية كاملة الآن، أظهر لي كم كنتُ مستاءة من اضطراري للاستسلام لإرادة النّساء الأخريات في الاستقرار، وابتسمت لنفسي، وأنا أفكّر في الرحلة العظيمة التي تنتظرني.

سوّيت الأرض، وتمدّدت فوق بطّانيّة طويتها عند الوسط لتصبح أكثر

سُمكًا، فنمت مباشرة بمجرد أن غطّيت نفسي بالبطّانيّة الأخرى. بعد ستّ ساعات، استيقظت وأنا أتضوّر جوعًا، فأكلت مرّة أخرى، وعاودت النّوم حتى أشرقت الشمس.

قبل أن أعاود المسير، أهلّتُ قليلًا من التراب في الحفرة التي لبّيتُ فيها نداء الطبيعة. لم يمضِ وقت طويل حتّى لاحظت أنّ جسمي متصلّبٌ، وأنني أشعر بالألم في كاحلي وفخذي وظهري. أنا واثقة من أنّه لم يسبق لي أن مشيت لوقت طويل كما مشيت بالأمس، لكنني لا أعرف ماذا أفعل لأستعيد عافيتي. هل يجب أن أنتظر وأرتاح؟ أم أستأنف المشي على أمل أن يؤدّي التمرين إلى استرخاء عضلاتي؟ لم أتقبّل فكرة قضاء يومٍ كامل أجلس فيه وسط ذلك السهل الممل، فتغلّب عليّ نفاد الصبر. لكنني حسمت أمري بأنني لن أُحسّن عدّاد المسافة قبل أن أتاكّد من أن سرعتي صارت منتظمة.

بحلول العصر، صارت التموّجات الطويلة في الطريق أكثر وضوحًا، وقدّرت أن طول كلّ موجة يصل إلى عشرة آلاف خطوة، ولم يكن فيها ما يستحقّ التمعّن أو الوصف، ومع ذلك لم أستطع إخفاء حماستي لفكرة أنها ستكون مقدّمةً لمنطقة جبلية. كنت أرغب في المشي بوتيرة أسرع، وهذا لم يكن متاحًا؛ فعلى الرغم من أنّ آلامي وأوجاعي لم تتفاقم، إلّا أنها لم تختفِ، وعرفت أنه لا يجدر بي أن أتهوّر فأفقد القدرة على المشي كلّيًا، أضف إلى ذلك أنني تعبت في وقت أبكر مما تعبت في اليوم السابق، ولم أشأ أن أرهق نفسي.

كنتُ أعرف أنّ الإنسان لا يبني قدرته على التحمّل من خلال دفع نفسه إلى ما هو أبعد من قدراته، فقرّرتُ التوقف قبل الساعة السادسة مساء، وأشعلت النّار وأكلت بقدر ما استطعت. وقبل أن أنام فركت قدميّ

بالدهن لأنّ جلدهما كان متهيّجًا.

وجدت الدهن يعلو إحدى العلب التي أطلقت النّساء على محتوياتها اسم طاجن الفاصولياء واللحم، فأزلته قبل أن أسخّن المكونات، ولاحظت أنّ وجود هذا الدهن على يديّ، يخفّف من تهيّج بشرتي، وهذا ما حملني على دهنه على قدميّ، كما وضعت قليلًا منه على وجهي. لم أنمْ بالسرعة التي نمتُ بها ليلة أمس. لذا، شاهدت غروب الشمس وكذلك ظهور أولى النّجوم في السماء الشاحبة الصافية.

في منتصف اليوم الثالث، لمحت كوخًا على المنحدر التالي، وهذا ما لم أتصوّر العثور عليه بهذه السرعة. توقّفت قليلًا، وجلست على العشب الجافّ المتناثر كي أتأمّل هدفي من بعيد. كنتُ أعرف ما سأجده هناك: إنه موكب اليأس الأبديّ؛ في الأعلى، سأجد القفل الصدئ والمصابيح المضاءة بشكل دائم. وفي الأسفل سيكون الملجأ مقفلًا، وسيكون قاطنو القفص جثثًا. سأنزل وأنظر إلى كلّ شيءٍ عن كثب. هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقدّمه للضحايا، بعد ذلك سأغلق الباب الرئيس، وأغادر.

في الحقيقة، لم أكن أعرف ما الذي آمل العثور عليه ذات يوم؛ هل كنت آمل العثور على قفص مفتوح؟ أم على آثار مجموعة من الرجال أو النّساء الذين نجوا واستقروا في الخارج كما استقرّتْ مجموعتي؟ لكنني وبصفتي آخر النّاجيات أشكّ في أنّ هناك من عاش أكثر مما عاشت رفيقاتي في المجموعة. تعوّدت التفكير في الأمر من كلّ جوانبه، فالتفكير هو وسيلتي الوحيدة للترفيه.

حين تابعتُ المسير، كانت الشمس في طريقها إلى الغروب، وتبيّن لي أنني استفدت كثيرًا من تلك الاستراحة البسيطة؛ فقد اختفت آلامي،

وخمّنت أنّ ذلك الملجأ سيكون على بعد نصف ساعة، وسررت حين تبيّن لي أنّ تخميني صحيح، فقد وصلت إليه في ثمانٍ وعشرين دقيقة. وضعت حقيبتي في الكوخ، ونزلت الدرج على مهل.

لم أشمّ أي رائحة، لكنني بقيتُ أتنفّس بحذر. قارنَتْ نساء مجموعتي بين أنواع الرائحة الكريهة، فوصفنَها بأنها رائحة مجارير أو رائحة مياه آسنة أو بالوعات، لكنّ كلّ هذه الأوصاف لم تعنِ لي شيئًا، لأنني لا أعرف سوى رائحة الجثث.

في الأسفل، وبعد الممرّ الضيّق، كشف الباب المفتوح عن التصميم المعتاد للملاجئ: غرفة الحرّاس والخزائن الخلفية والأبواب المزدوجة الكبيرة وكرسيّ مقلوب وقدر سقطت على الأرض وانسكبت محتوياتها، ثمّ جفّت تاركةً بقعةً بنّية. كان هذا الاضطراب الطفيف نادرًا، فأثار فضولي. لكن قبل التفكير في أي شيء، يجب أن أرى القفص، فأنا ومجموعتي كنّا نعتقد أنّ رؤية القفص واجبة علينا، حتّى في الوقت الذي صرنا فيه متأكّدات من أننا لن نجد بابًا مفتوحًا، ومع ذلك أردنا أن نُقدّم احترامنا للموتى، ولتلك الجثث التي عاشت في القفص، وهي متراكمةٌ بعضها فوق بعض بشكل عشوائيّ، حيث تقيم إلى الأبد في رعب وصمت.

كانت ساكنات القفص نساءً، أمضيت وقتًا طويلًا وأنا أنظر إليهنّ، ثم جلتُ حول القفص وتيقّنت من الأمر: ما من شيء جديد في هذا القفص يختلف عن الأقفاص الأخرى؛ لا تزال السكاكين والشوك والأطباق في القفص، وهذا دليل على أنهنّ كنّ يتناولن الطّعام عندما انطلقت صافرة الإنذار. وجدت سوطًا ملقى على أرضية المنطقة التي يفترض أنّ الحرّاس كانوا يسيرون فيها ذهابًا وأيابًا. ربمّا لأن أحدهم كان متوتّرًا أكثر من المعتاد فأسقط سوطه، وربما هو الشخص الذي اصطدم بالكرسي أثناء

فراره. كان السوط يستند إلى الحائط، بعيدًا عن متناول السجينات اللواتي حاولنَ حتّى النّهاية الإمساك به. سقطت إحداهنّ على القضبان، وذراعها لا تزال ممدودة، وقد تغلّب عليها الموت وهي تحاول الإمساك به.

لم تحتوِ غرفة الحرّاس سوى على الأغراض المعتادة: عدد من الكراسي وطاولة وخزائن ولا شيء سوى ذلك. في كثير من الأحيان، بدا أمر محتويات غرف الحرّاس غريبًا بالنّسبة إلى أنثيا لكنني لم أفهم ما الغريب فيه، فأنا لم أكن أمتلك شيئًا، ولذلك لم أستطع تخيّل الأشياء التي أخبرتني عنها: الكتب والرسائل والسجائر وأوراق اللعب وشفرات الحلاقة. سافرت وأنا أحمل معي بطّانيّتين ومجرفة صغيرة وفتّاحة علب وأعواد ثقاب وطعامًا، لذلك لم يفاجئني ألّا يحمل الحرّاس غير ملابسهم وأسلحتهم فقط.

أعدت الكرسي إلى وضعيّته الطبيعيّة، وجلست عليه وأنا أشعر بالحزن، فأنا لم أرغب في النّظر إلى النّساء الميتات، لكنني أجبرت نفسي على ذلك، بيد أن نظرتي لم تفارق تلك المرأة التي تمدّ ذراعها. لم أنظر إليهنّ كما يجب، فشعرت بنفسي غير متعاطفة. وبما أنه ليس لديّ مَنْ أكذب عليه، فاكتشفت أنّ المرء قد يكذب على نفسه، وبدا هذا الأمر غريبًا جدًّا. هل كنتُ أفتقد الرفقة أكثر مما ظننت، فابتدعت من نفسي ما يمكن وصفه بشخص آخر كي يشهد على سلوكي ويراقبني؟ أو ربمّا كي أخدعه؟ شغلتني هذه الفكرة طويلًا، لكنني لم أجد طريقةً لتطويرها أبعد من ذلك، فقد كنت سجينةً في الخارج وسط هذه الأرض الفارغة، كما كنت سجينة في القفص خلال سنواتي الأولى.

تخلّيت عن هذه الفكرة العقيمة التي قدتُ أفكاري إليها بسرعة واستأنفتُ سلسلة أفكاري المعتادة، والتي كانت تركّز دائمًا على

التخطيط والتقييم والتنظيم. ثمّ ذهبت لتفقّد مخزن الطعام، فهو الوحيد الذي يختلف من ملجأ إلى آخر؛ فالمخازن كانت مزوّدة بكمّيّات كبيرة من الموادّ نفسها، ولكن يبدو أنّ كمّية الاستهلاك كانت منوطة بالحرّاس أنفسهم. في الثلاجة، وجدت قطعًا كبيرةً من اللحم البقريّ الذي ينبغي تذويبه حتى أستطيع تقطيعه.

لم أجد لحمًا مقدّدًا أو لحم ضأن، وتفاجأتُ حين عثرت في الخزانة على عدد من علب الحليب المجفّف. فقد مرّت ثلاث سنوات على الأقلّ منذ المرّة الأخيرة التي تناولت فيها حليبًا، وكنت أعرف أنه مكوّنٌ مغذٍ للغاية، ومن شأنه أن يساعد في بناء قوّتي. كذلك وجدت عُلبًا أخرى تحتوي على مساحيق مختلفة.

في ذلك الوقت، كانت مهارتي في القراءة سيئةً جدًّا، ووجدت صعوبةً في قراءة الأحرف على الملصقات، وعندما تمكّنت من ذلك، حيّرتني كلمة برتقال. بالطبع، سمعت النّساء يتحدّثن عن البرتقال، كما استحضرتْ ذاكرتي أنهنّ تحدّثن عن مسحوق البرتقال. لذلك أذبتُ قليلًا منه بالماء وتذوّقته، وأنا أشعر بالفضول، لكنني وجدته مرًّا قليلًا ويحتاج إلى تحلية. ولأنّ أنثيا أخبرتني عن أهمّية الفيتامينات، تناولت تلك المساحيق كي أُعزّز حميتي الغذائيّة.

قصدت الملجأ مرات عدّة لأحضر اللحم والمساحيق وفراشًا وكرسيًا، ثمّ طهوت وجبةً دسمةً، وفكّرت في نثر مسحوق الحليب فوق خليط اللحوم والخضار. بعد ذلك، نمت لفترةٍ طويلة، وعندما استيقظت، لم أجد ما أقوم به، فشعرت بخيبة أمل لا أعرف لها سببًا، ربمّا لأنني منّيت النّفس بالعثور على أشياء مختلفة في هذا الملجأ، وكأنني نسيت أنها جميعًا متماثلة؛ ففي المرّة التالية سأجد الباب مغلقًا أيضًا، ومع أنني

لا أُرجّح العثور على مزيد من الحليب هناك، ربمّا سأجد بعض الأشياء الجديدة. تحدّثت النّساء عن الشوكولاتة وعن الخبز والجبن أيضًا، لكنني كنت أبحث عن شيءٍ آخر، فحدّثت نفسي وأنا أنتظر معرفة ماهيته بأنني متواضعةٌ إلى حدّ عدم التفكير به قبل العثور عليه. وليس عليّ الآن سوى أن أستمتع باللحوم الحمراء اللذيذة التي سأشويها على نار الأغصان، وكذلك بالحليب الذي شربت منه.

كانت الساعة قرابة الثامنة صباحًا، وشعرت أنني بحال جيد جدًا، فنزلت الملجأ لأُحضر عددًا من العلب بدلًا من تلك التي استهلكتُها في الأيام القليلة الماضية، ولأبحث عن خيوط، وهو ما نسيت القيام به في اليوم السابق. وعندما حانت لحظة الرحيل، كانت حقيبة ظهري أثقل بكثير مما كانت عليه في لحظة الوصول، لكنّها لم تكن ثقيلة جدًا ربمّا لأنني صرت أقوى. أردتُ أن آخذ الفراش معي، لأنّ النّوم عليه أفضل بكثير من النّوم على الأرض، ولكنني ذكّرت نفسي بأنه سيكون هناك متّسع من الوقت للتفكير في أمر الفراش بعد أيام عدّة حين أصل إلى الملجأ التالي، لأنني قد تكيّفت تمامًا مع حياتي الجديدة، ولم أعد بحاجة إلى أيّ فراش.

لم أترك العلامات المعتادة على الأرض هناك، فأنا لم أعد أتوقّع وجود ناجين آخرين. لكنني رميت فراشًا أمام الكوخ، كي أتعرّف إلى آثاري إذا عدتُ من هذا الطريق مرة أخرى.

أعتقد أنني أنجزت مسحًا دقيقًا للملجأ الأوّل، وهذا مجرّد اعتقاد، إذ ليس بمقدوري الجزم في ذلك. أنا متأكّدةٌ من أنه المكان الذي وجدتُ فيه الحليب، ولكن في أي ملجأ وجدتُ الشاي؟ هل هو الملجأ الخامس؟ أم العاشر؟ فكلّ الملاجئ كانت متشابهة بالجثث الأربعين المبعثرة في كلّ منها على الأرض، لكنني وجدت في أحد الملاجئ ثماني وثلاثين جثة،

ووجدت في ملجأ آخر كلّ النّساء راقدات بهدوء، وكأنهنّ تقبّلن مصيرهنّ، وقرّرن انتظاره في صمت، ووجدت في ملجأ آخر المفاتيح على الأرض على بُعد مترين من القضبان، ففكرت في فظاعة رؤيتها من دون القدرة على الوصول إليها. في بعض الملاجئ، وجدت صنبور مياه في القفص، وكان يصدر صوت تنقيط أذهلني في البداية. لكن، ومع تكرار ما لقيته، فقدتُ أيّ أمل بالعثور على باب مفتوح في الملاجئ، في حين وجدت فيها كلّها مخازن للطعام، وإنارة.

تقدّمتُ صوب الشرق، وأنا أمرّ بملجأ تلو الآخر، لا أحمل سوى مؤونتي من دون فراشٍ. ومع أن حذائي اهترأ إلّا أنني لم أنزعج، فقرّرت البحث عن أحذية تُناسب مقاس قدمي. ثمّ حل الموسم الذي تكون فيه السماء غائمةً دائمًا ويهطل فيه رذاذ ناعم. لا يسعني أن أصف سعادتي بالعثور على غطاءٍ مقاومٍ للماء في إحدى غرف الحراسة؛ وجدته مطويًا على الطاولة، بجانب كدسة من البطّانيّات الجديدة التي لم تُستعمل، ففكّرت مرّة أخرى كم هو نادر العثور على أشياء غير عادية في هذه الملاجئ، وكأنّ قانونًا ينصّ على أن تكون جميعها شبه متطابقة. في تلك اللحظة، كنت على وشك الانغماس في تكهّناتي المعتادة حول الحرّاس ومعنى سجننا، فانتابتني موجة من السخرية، ورغبة بتحويل الأفكار الأسطورية إلى أشياء أخرى. لكنني عدت واستدركت: لماذا أفعل ذلك؟ هل أحاول أن أشغل عقلي بهذه الطريقة؟

بعد هروبنا، تعوّدت دوروثي أن تقول: «دعونا ننظّم حياتنا، دعونا لا نُشتّت تفكيرنا»، ولكنني في الواقع، أستطيع استخدام أفكاري كما يحلو لي، وكانت فكرة تشتيتها سخيفة. إذ إنّ بقائي على قيد الحياة مضمونٌ، فأنا لن أستطيع أبدًا أن أستهلك كلّ الطعام المتاح، كما لن يتسبّب الطقس السّيّئ النّادر في إصابتي بالمرض قطّ. لذا، فأنا أستطيع السماح

لأفكاري بأن تجول كما تشاء، فلا يهمّ أن تكون جميع الطرق التي تسلكها مسدودة، وكلّ ما كان عليّ فعله هو أن أضع حدًّا لها.

بمرور الوقت، تكوّنت لديّ قناعة راسخة بأنني لن أستطيع معرفة الغاية من أسرنا من خلال الأشياء المهجورة، ولم يعلّمني ذلك السوط الملقى على الأرض شيئًا مفيدًا، فقد رأيت أسواطًا مثله في جميع الملاجئ، وحتّى في أماكن الحراسة.

حتّى في أماكن الحراسة! لم يسبق لي أن فكّرت في هذا الأمر بمثل هذا الوضوح. ظلّت تلك الكلمات تطاردني، إلى حدّ أنها راحت تزعجني، وعندها بدأت فكرة تتشكّل رويدًا رويدًا: لقد قدّرْنا أنّ الحرّاس لا يريدون أن يقدّموا لنا أي أدلّة حول أسباب أسرنا وإبقائنا على قيد الحياة، وكنّا على يقينٍ بأنهم يعرفون. لكن، ماذا لو كانوا يجهلون ذلك مثلنا؟ ماذا لو كانوا مجبرين على القيام بعملٍ من دون أن يُسمح لهم بمعرفة الهدف منه؟ ماذا لو كان وضع الأشياء نفسها في جميع الملاجئ يعني أنّ المسؤولين أرادوا إخفاء جميع المعلومات عنهم وعنّا أيضًا؟

أذهلتني هذه الفرضية، فتراقصت طربًا، وضحكت. كنت أعرف أنني لم أفعل شيئًا سوى إضافة أسئلة جديدة إلى الأسئلة السابقة. لكن في العالم العبثي الذي عشت فيه، وما زلت أعيش، كلّ ما هو جديد يحمل معه سعادة خاصة.

سأكون المالكة الوحيدة لهذا الهنا، هذا ما قلته لأنثيا قبل وقتٍ قصير من موتها، لكنني كنتُ أعرف أنّ الحجارة والمخازن المبرّدة ليست سوى كنز تافه، ولذلك انطلقت بنية الاكتشاف: ربمّا أكتشف محطة توليد الكهرباء التي تحدّثت عنها النّساء دائمًا، أو المكان الذي تصدر منه الأوامر التي تحكم حياتنا، أو أيّ شيء جديد. إنّ فكرة عدم معرفة الحرّاس بشيء

كانت فكرة جديدة، ولم يكن هناك ما هو أثمن منها بالنّسبة إليّ.

وددت أن أحتفل. منذ أن بدأت رحلتي عشتُ كما يحلو لي؛ فكنت أمشي وآكل وأنام عندما أريد. لم أستطع اختراع أيّ شيءٍ مميّز، لكنني في ذلك المساء، أشعلتُ النّار وشويت اللحم بسعادة، ومنّيت نفسي بأحلامٍ سعيدة، ولا أعرف إذا ما حصلتُ عليها بالفعل. كلّ ليلة كنت أحلم أنني بصحبة عددٍ كبير من الأشخاص، وعندما أستيقظ، أتذكّر أنني كنت أضحك وألعب مع النّساء والرجال، لكنني لا أتذكّر أمورًا محدّدة، وهذا ما كنت أستغربه؛ فأنا في يقظتي لا أنسى شيئًا.

بعد أن أقنعت نفسي بأنّ الحرّاس كانوا أيضًا ضحايا، صرت جاهزةً لاستقبال المفاجأة الغريبة التي كانت تنتظرني. لقد مضى عليّ عام وأنا أسير بمفردي، ودائمًا في اتجاه مشرق الشمس. تغيّرت المناظر الطبيعية التي أمرّ بها قليلًا، فتحوّلت التموّجات الطويلة إلى تلال تسلّقتُ كلّ واحدة منها مفعمة بالأمل، وأصبحت الأنهار أكثر عمقًا بحيث أستطيع السباحة فيها وهذا ما أشعرني بسعادة غامرة، ووقعت عيناي على أنواع جديدة من الأشجار في الغابات الأكثر كثافة.

كنت أتفحّص الشجيرات بعناية، وأنا أسترجع حديث النّساء عن التوت البري والفراولة والتوت الأسود والعنّاب؛ ثمارٌ قلن إنّ طعمها لذيذ، لكنني لم أرَ ثمارًا. ذات مرّة عثرت على ما اعتقدتُ أنه فطر، لكنني لم أقطفه لأنني تذكّرت أنهنّ قلن إنّ هناك أنواعًا سامة من الفطر، فلم أشأ المخاطرة، وحين غادرت إحدى هذه الغابات، فوجئت بأرضٍ منبسطة.

امتدّ وادٍ طويل أمامي، وادٍ تغطيه النّباتات المعتادة المتفرقة والحجارة المتناثرة، لكنني تمكّنت على الفور من ملاحظة شريطٍ مختلف يمتدّ في الأرض حيث العشب أقلّ كثافةً. كان تقريبًا خاليًا من الحجارة،

ويشكّل مسارًا مستقيمًا نحو قمّة التلّ التالي. تذكّرت ما قالته النّساء عن الدّروب: هل هذا درب؟ نزلت إليه، وقرّرت أن أتبعه وإن لم يكن يتّجه نحو الشرق الذي اخترته اتجاهًا لتجنّب الالتفاف في دوائر. مشيت لمدّة يومٍ ونصف اليوم قبل أن أصل إلى قمّة التل المنخفض، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت الحافلة.

الآن أقول الحافلة، لكنني بالطبع، لم أكن وقتها أعرف ما الذي كنت أنظر إليه.

في البداية، لمحت شيئًا قدّرت أنني أحتاج إلى المشي لنصف ساعة حتّى أصل إليه، وكلّ ما استطعت رؤيته كان شكلًا مستطيلًا وسط السهل. فأنا بطبيعة الحال، لم يسبق لي أن رأيت حافلة، واستقيت كل معارفي من خلال ما سمعت النّساء يتحدّثن عنه، لكنّ أيًّا منهنّ لم تقدّم لي وصفًا دقيقًا للأشياء التي كنّ يعتبرنها بديهية، وكلّ ما كنت أعرفه عن الحافلة هو أنها مركبة يمكنها نقل عددٍ كبيرٍ من الأشخاص.

تسارعت نبضات قلبي وأنا أركض بسرعةٍ كبيرةٍ فلم يستغرقني الوصول إلى الأسفل سوى عشر دقائق، مع أنني تعثّرت مرّاتٍ كثيرة، لأنني لم أستطع أن أرفع عينيّ عنها؛ إنها حافلةٌ ذات هيكل ضخم وصدئ، يبلغ طولها عشر خطوات وارتفاعها ضعف طولي، ترتكز على عجلاتٍ خالية من الهواء، وتغطّي النّوافذ جانبيها. بعد أن اجتزت نصف المسافة التي تفصلني عنها، لمحت الأشخاص الجالسين فيها. للوهلة الأولى تسمّرت في مكاني، لكنني سرعان ما استجمعت قواي، وتابعت الركض، وحين وصلت إليها أفلتُّ حقيبتي ووقفت ثابتةً في مكاني لأستوعب ما أراه. وجدت بابًا ذا مقبض، وحين حاولت تحريك المقبض، خرج من مكانه واستقر في يدي، وكان زجاج نافذته محطّمًا، فمددت يدي وفتحت الباب لتسقط

مفصلاته فورًا، بعد ذلك صعدت الدرجات ودخلت الحافلة.

جعل مرور السّنوات جثث الملاجئ تبدو وكأنها محنّطة، إلّا أن مرور السّنوات على جثث الحافلة حوّلها إلى هياكل عظمية، ترتدي الزي المألوف جدًّا، وتحمل الأسلحة، وتضع الأقنعة الغريبة التي تخفي عظام الوجوه. كان الأشخاص جالسين بشكل طبيعي قبل أن يموتوا وكأنّ الموت حلّ عليهم من دون سابق إنذار، فانقلبوا أمواتًا من دون أن يشعروا على الإطلاق بنبضات قلوبهم الأخيرة، وتحوّلوا إلى هذا الجمود الذي لم يزعجهم فيه شيء طوال سنوات.

كان السائق جالسًا في مقعده، ولا تزال يداه ممسكتين بالمقود.

عندما دخلت الحافلة، أثرتُ سحابةً خفيفةً من الغبار استقرّت حولي وأنا أقف مذهولة. شرعت بشكلٍ تلقائي بما واظبتُ على فعله طوال سنوات، وصار أمرًا بديهيًا: بدأت بالعدّ، فأحصيت اثنين وعشرين راكبًا، يجلسون على جانبي الممرّ الرئيس، وهذا يعني أنّ هناك ثلاثًا وعشرين جثة في الحافلة، وكان بحوزة كلّ واحد من الركاب حقيبة أدوات يسندها إلى ركبتيه أو يضعها على الأرض بين قدميه، وحين تفحّصتُ ملامح الركاب فحصًا دقيقًا اكتشفت بشكلٍ لا يصدّق غياب أيّ إشارة إلى الذُّعر، أو دليل يوحي بأنهم كانوا يخافون من خطر ما؛ ببساطة توقّفت حافلتهم وسط السهل، وماتوا جميعًا.

وقفتُ لفترة طويلة وأنا أجول بعينيّ في الأرجاء، وأتحت لفضولي الجامح أن يُشبع نفسه بالسرعة التي تناسبه، وأنا أعرف أنه لن يتوصّل إلى نتيجة. سأكون محظوظةً جدًّا إذا تكرّم عليّ هذا العالم الغريب الذي أعيش فيه بأن أضيف أسئلة أخرى إلى قائمة الأسئلة التي لم أجد لها إجاباتٍ حتّى الآن.

إنها الساعة الخامسة، وقد بدأت الشمس تغرب قبل أن أتحرّك.

تمثّل اهتمامي الأوّل في حقائب الأدوات؛ لقد دخلت أكثر من مئة ملجأ، لكنني لم أرَ مثل هذه الحقائب المصنوعة من القماش الخشن والمتين، الذي خيطت عليه أحزمة وسحّابات معدنية. التقطت حقيبة، وشعرت بنفاد الصبر والتوتر وأنا أخرجها. نبض قلبي بشدّة، فحاولت أن أتمالك نفسي بالقول إنني لن أجد فيها شيئًا غير عاديّ، لكنني لم أصدّق مزاعمي، وارتعشت أصابعي عندما فككتُ العُقد.

وجدت في الأعلى ثوبًا مطويًا بعناية، لم يسبق لي أن رأيت مثله له كمّان طويلان، وياقة صلبة، بالإضافة إلى حزام. لم يكن مصنوعًا من القماش الذي أعرفه، بل من قماش سميك ومرن في الوقت نفسه، وفيه طياتٌ وجيوب ودرزاتٌ مسطّحة -استخرجت هذه الكلمة بسهولةٍ من ذاكرتي- بالإضافة إلى أجزاء مبطّنة، ولمّا كنت قد تعوّدت استخدام القطن الخفيف الذي يتطاير مع أقلّ نسمة، فكّرت في أنّ ارتداء مثل هذا الثوب لن يكون مريحًا.

ربما هذه سترة، لكن لم يسبق لي أن رأيت رجلًا يرتدي سترة في الملاجئ. وجدت أشياء متعددة تحت السترة تلك، أوّلها حزمةٌ صغيرةٌ مصنوعة من الورق السميك. بالتأكيد لم أعرف وقتها أنها ورق، فأنا لم يسبق لي أن رأيت ورقًا، لكنني لن أخوض في الصعوبات التي أواجهها في تحديد كلّ شيءٍ من هذه الأشياء وتسميته، لأنّ هذا لن يعدو عن كونه تكرارًا مملًا جدًّا.

فككتُ الحزمة بعناية وكانت هشّةً وعلى وشك أن تتفتت، ولم تحتوِ إلّا على غبار بنّي اللون، عديم الرائحة والمذاق، قد يكون نوعًا من الطعام الذي جفّ. ثمّ أخرجت من حقيبة جلديّة ناعمة صغيرة أداةً غريبة، كان

عليّ أن أفحصها عن كثب لأجد شفرة رفيعة جدًا محصورةً بين قطعتين معدنيّتين، وقد جمع مقبض يسهل الإمساك به بين القطعتين المعدنيتين والشفرة. اكتشفتُ أنّه لا يمكن استخدامها للقطع إلّا إذا أزلت الشفرة من بين القطعتين، واستغرقني الأمر وقتًا طويلًا لأحزر أنها شفرة حلاقة.

أما ثالث الأشياء التي عثرت عليها فكان قنينةً زجاجية وضعتها جانبًا لأنني كنت مفتونة أكثر بمستطيلين أبيضين كبيرين مطويين بعناية ومصنوعين من قماش سميك وناعم، اعتقدت أنهما منشفتان مصنوعتان من ذلك النّوع من القماش الذي افتقدَتْه النّساء بشدّة والذي تعوّدت العيش من دونه، بيد أنني فكّرت في استخدامهما لأصنع لنفسي بديلًا عن فستاني الممزّق. كذلك وجدت ملابس داخلية، وتذكّرت لاحقًا أنها تسمّى سراويل داخلية حين تكون خاصّة بالرجال، ووجدت أسفلها كتابًا.

علّمتني أنثيا حروف الأبجدية وأساسيات القراءة من خلال رسم الحروف على الرمال، لكنها ضجرتْ من تعليمي بمرور الوقت، لأنها لم تمتلك وسيلةً لترى نتيجة هذا التعليم، بينما كنتُ ألحّ عليها بذلك؛ لأنه لم يكن أمامي سوى القليل لأتعلّمه، ولم أجد ضيرًا في عدم استيعاب كلّ شيء. احتفظت في رأسي بكلماتٍ عن أشياء لم تسبق لي رؤيتها، ناهيك عن لمسها، كما أفعل الآن.

تعرّفت إلى الكتاب على الفور، وغمرتني الدهشة. وشعرت بالدّوار وكنتُ سأنهار لو أنني واقفة، وأنا أحمل بين يديّ أثمن الكنوز، والينبوع الذي سأنهل منه معرفة ذلك العالم الذي لن أصل إليه أبدًا. وكعادتي عندما تتغلّب عليّ العاطفة أبدأ بالعدّ.

كان العنوان المكتوب بخطٍّ كبير، مكوّنًا من سبعة عشر حرفًا مقسّمةٍ إلى ثلاث كلمات. ألقيت عليها نظرة سريعة من دون أن أحاول فكّ

شيفرتها، فقد شعرت بمشاعر متناقضة من الإثارة ونفاد الصبر والتعب، كوّنت جميعها مزيجًا سيّئًا جعلني أشعر بتوتر وتشوش ذهني، فلم أعد أعرف ماذا أفعل؟ هل أشبع فضولي وأبحث في الحقائب؟ أو أبدأ باكتشاف موضوع الكتاب؟ وكان عليّ أن أبذل جهدًا هائلًا لأضبط نفسي.

صارت الشمس منخفضة جدًا، ولن يمرّ وقت طويل قبل أن تصير الرؤية غير واضحة، فقرّرت ترك اكتشاف الكتاب إلى وقتٍ لاحق. لكنّ حماستي الزائدة شتّتت تركيزي، فأسقطتُ الزجاجة التي كانت في حضني. ومن حسن الحظّ أنها سقطت على السترة ولم تنكسر، فاستطعت الإمساك بها قبل أن تتدحرج صوب الحجارة.

هذا الحادث الصغير ساعد على تهدئتي، فوضعت الكتاب جانبًا، وعدت إلى الحقيبة، لكنني شعرت بخيبة أمل، فأنا لم أجد فيها سوى بطّانيّة مثل تلك الموجودة في الملاجئ. لذلك التقطت الزجاجة التي لم تكن كبيرة، ربمّا بسعة نصف لتر، وكانت مليئةً بسائلٍ عديم اللون يشبه الماء، ومختومة بسدّادة من الفلّين.

تفحّصت السدادة مطوّلًا، وأجّلت البحث عن طريقة لفتحها لأن طاقتي كانت مستنزفة؛ فالحياة المنتظمة التي أعيشها، وأنا أسير لمدّةٍ تتراوح بين ثماني ساعات إلى عشر كل يوم في البرية، لم تؤهّلني لمثل هذا الاضطراب العاطفيّ المفاجئ. رحتُ أرتجف من شدة التعب، ولم أمتلك طاقة لأعد شيئًا لآكله. أخرجت البطّانيّة من الكيس، وفرشتها على الأرض لتهويتها، ثم لففت نفسي ببطّانيّتي، ولم أدرك أنني نمت إلّا حين استيقظت فجأة ووجدت أنّ الساعة صارت الثالثة صباحًا، فأشعلت نارًا وسخّنت قليلًا من الطعام، وعدت إلى الحافلة مع شروق الشمس.

في البداية، أخرجت حقائب الأدوات كلّها، ووضعتها في صفٍّ على بعد أمتارٍ قليلة من الهيكل الصدئ، ثمّ كرّرت الأمر نفسه مع الجثث التي تحوّلت إلى هياكل عظمية، وكانت في غاية الخفّة. كنت مهتمّةً بالملابس بشكلٍ خاص، وتساءلت إذا كان البنطال القطنيّ الخفيف والقميص ذو الكتفين، اللّذان رأيت حرّاس الملجأ يرتدون مثلهما، سيكونان أكثر راحة من فستاني. كان أحد الرجال الموتى قصيرًا ونحيفًا، فقرّرت الاحتفاظ بملابسه لأُجرّبها بعد غسلها. بعد ذلك كوّمت الأسلحة في كومتين: السّياط التي لن تُستخدم مرّةً أخرى، والمسدّسات الكبيرة التي لم يسبق أن استُخدمت في الملجأ، ولكن الحرّاس كثيرًا ما هدّدوا باللجوء إلى استخدامها. شعرت برغبةٍ في تجربة أحد المسدسات، فتناولت أحدها وصوّبته وضغطت على الزناد، لكن شيئًا لم يحدث، وقتها حدّثت نفسي أنه لم يكن ملقّمًا. لكنني تذكّرت في وقت لاحق أنّ لهذه المسدسات مزلاج أمان، وفكّرت في أنه كان مغلقًا، لكن، أيًّا يكن الأمر، لم أكن أعرف طريقة تحريره.

بدأت البحث في جميع الحقائب، ولم أُفاجأ حين وجدت الأشياء نفسها في كلّ حقيبة: سترة، وسروالين داخليين، وعلبتي طعام واحدة منهما محفوظة بشكل أفضل من الأخرى، وتحتوي على رقائق صغيرة بيضاء تفتّتت حين لمستها، فافترضت أنها كانت خبزًا؛ ذلك الطعام اليوميّ الذي ما تناولته قطّ، كما وجدت بطّانيّة وشفرة حلاقة وكتابًا. ولم أكن بحاجة إلى فكّ شيفرة العنوان لأدرك أنّ جميع الكتب متماثلة. ركنت إلى الأمر، خوفًا من أن أتعرّض مرّةً أخرى للاضطراب الذي هزمني ليلة أمس. وعندما انتهيت من فرز كلّ شيء، تساءلت لماذا لم نعثر على الخبز في الملاجئ؟ وحتّى الآن لم أعثر على إجابة.

بحلول منتصف النّهار، كان كلّ شيءٍ على ما يُرام: ثلاثةٌ وعشرون

هيكلًا عظميًا ملقاة جانبًا، القمصان والسراويل الداخلية مرتبةٌ في أكوام، والأقنعة والأسلحة في ثلاث أكوام منفصلة. تفحّصت الأقنعة عن قرب، وتذكّرت القصص التي روتها النّساء عن أنّها ربمّا كانت أقنعة غاز. فكّرت في السبب الذي أدى إلى مقتل هؤلاء الرجال، لأنه من المؤكد أنه لم يكن الغاز الذي كانوا محصنين منه بواسطة الأقنعة، والذي لم يقتل أحدًا على كلّ حال؛ فقد هربتُ مع مجموعتي بعد دقائق فقط من توقّف صفارة الإنذار، ولم نمت بسبب الغاز.

وقفتُ، ومطّطت ظهري الذي آلمني بسبب الانحناء لفترة طويلة، وقضيت وقتًا طويلًا في تفحّص ممتلكاتي قبل تسخين وجبتي؛ فجأة صرت مالكةً حصرية لعددٍ كبير من السلع، بعد أن تعوّدت ألّا أمتلك شيئًا.

شعرتُ بالإرهاق، فأكلتُ وأنا أنظر إلى مجموعتي من الهياكل العظمية التي كان أصحابها يتلقون الأوامر وينفّذونها من دون أن يعرفوا الهدف منها. ربمّا لم تكن لديهم فكرةٌ عن هويّاتنا أكثر مما لدينا عن هويّاتهم، ثمّ فاجأهم الموت وهم يجلسون في الحافلة. لكن، هل كانوا يعرفون المكان الذي يتوجّهون إليه؟ بعد انطلاق صفارة الإنذار، لم نجد أثرًا للحرّاس، وتخيّلنا أنهم نُقلوا جميعًا إلى مكانٍ آخر، فلماذا لا يزال هؤلاء الحرّاس هنا؟ التفسيرات المحتملة التي توصّلت إليها بعد ذلك بوقتٍ طويل هي أنهم كانوا في رحلة روتينية بين ملجأين، أو كانوا في طريقهم للنوم، أو ربمّا كانوا وافدين جددًا نُقلوا إلى موقعهم الجديد وهم غافلون عن الخطر. تشير أقنعة الغاز التي يضعونها إلى أنّ هذه الأرض لم تكن منطقة آمنة، ولكن أيًّا يكن سبب موتهم فهو لم يكن متوقّعًا. كان سجننا هو السجن الوحيد الذي انطلقت فيه صفّارة الإنذار لحظة فتح باب القفص، وهذا ما أنقذنا. وكانوا الحرّاس الوحيدين الذين انكشفوا في تلك اللّحظة، وهذا ما تسبّب بموتهم.

شغلني هذا التناظر وقتًا طويلًا، فقد وجدت فيه، لسببٍ ما، نوعًا من الجمال الغامض. هل يملك شخصٌ ما، في مكانٍ ما، تفسيرًا لكلّ هذا؟ وهل هذه الأمور لا تزال مستمرة؟ وهل هناك مكانٌ لا تزال فيه ملاجئ على سطح هذا الكوكب الذي لن أرى سوى جزءٍ صغير منه مهما تطل رحلتي؟ ملاجئ خضع فيها الرجال والنّساء للسياط، وتناولوا وجباتهم وناموا في أوقاتٍ عشوائية، وبدأت فتاة متمرّدةٌ في حساب نبضات قلبها. هل كنت الوحيدة؟ هل كان للكوكب الذي أجول فيه ألف كوكبٍ شقيق منتشرة في هذه السّماء المرصّعة بالنّجوم؟ هل حصل الأمر نفسه على الكواكب التي أنظر إليها ليلًا، وأنا أنتظر أن يغلبني النّوم؟ وهل كان المشهد نفسه يحدث هناك؟

قرّرت أن أدفن الهياكل العظمية، لأنني أردت أن أُظهر أنه مهما يحدث لنا، فنحن ننتمي إلى النّوع نفسه، النّوع الذي يكرّم الموتى من خلال دفنهم، فحفرت ثلاثة وعشرين قبرًا غير عميق ووضعت فيها الهياكل العظمية، ثم أهلت التراب عليها وكوّمت فوق كل منها كومةً صغيرةً أخرى من التراب وضعت عليها قناعًا وسلاحًا. رتّبتُ الجثث في دائرة لسبب لا أعرفه، لكنني ظننتُ أنّه الخيار الأمثل: الرؤوس نحو مركز الدائرة والأقدام نحو محيطها. استغرقني دفن الهياكل العظمية ثلاثة أيام، لأن الأرض كانت جافّة. أتعبني حفر القبور ودفن الجثث، لذلك ركنت إلى محاولة فكّ رموز كتبي خلال فترات الاستراحة.

حمل الحرّاس جميعهم الكتاب نفسه: دليل البستنة المكثّف، الذي يوضّح طريقة الزراعة والحراثة والتقليم والعزق وإزالة الأعشاب الضارّة، والخطوات المطلوبة في كلّ موسم، والمزروعات الأنسب في كلّ مكان. قرأت الكتاب بأكمله بعناية، وصرت خبيرةً في تطعيم الورود، وهذا ما أضحكني. كانت الرسوم التوضيحية كثيرة فأوضحت لي شكل المعزقة،

وبصلة التوليب، وأشياء كثيرة أخرى لم أرَها ولن أراها أبدًا. لذلك لم أكتسب من قراءة الكتب وتكرارها غير معرفةٍ عديمة الفائدة، لكنني حصلت على المتعة، وشعرت بأنني أزيّن عقلي بالأفكار، وهذا ما جعلني أفكّر في المجوهرات، تلك الأشياء التي كانت النّساء يتزيّنّ بها في تلك الأيام التي كان فيها للجمال هدف.

في اليوم الخامس، أنهيت مهمتي على خير ما يرام، فاخترت بنطالين وقميصين وأزواجًا من السراويل الداخلية، وأخذت أكبر عدد ممكن من المناشف، وجمعت البقية، وطويتها بعناية مع البطّانيّات، ووضعتها كلّها فوق مقاعد الحافلة. أعدت حزم حقيبتي، التي قلّ وزنها قليلًا لأنني أكلت محتويات معظم العلب، وعندها رأيت الزجاجة التي كنت قد نسيت أمرها تمامًا. تُرى هل أصبحت ثريةً لدرجة أنني أستطيع إهمال بعض ممتلكاتي؟!

كنت مضطرّةً إلى المشي مجدّدًا لأنّ مخزوني من الماء أوشك على النّفاد، وكان عليّ العثور على نهرٍ أو ملجأ قريبٍ من أجل إعادة تجديد المخزون، لكنني خصصت وقتًا قصيرًا لمعرفة محتوى تلك الزجاجات. ولأنني لا أملك أيّ أداةٍ لفتحها، بدأت باستخراج الفلين بطرف سكّيني. كان الأمر صعبًا واستغرقني وقتًا طويلًا، بيد أنني استطعت في النّهاية سكب قليل من السائل في كوبي.

لم تكن رائحة السائل مألوفة. ومع ذلك، غمّست إصبعي فيه ولعقته، لكنّ الطعم لم يكن مستساغًا. أخذت رشفةً صغيرة، وابتلعتها بحذر، فأحرقتْ حلقي حتّى كدت أسعل؛ كان كحولًا كما توقعت. في البدء، لم أسْتسغ مذاقه، ثمّ تذكّرت أنّ له خصائص طبيّة؛ فقد استُخدم في الماضي بشكلٍ خاصٍّ لتنظيف الجروح، وتخدير الحواسّ عندما يعاني شخصٌ ما

ألمًا شديدًا. لم يسبق لي أن جُرحتُ، بل خدشْت ساقي عندما مررت قرب الشجيرات الشائكة، ولكنني لم أُصَب بأيّ مرضٍ خطير وقتها. ومع ذلك، يبدو أنّ احتساء زجاجةٍ واحدة كان كافيًا لأعرف أنني لا أريد مزيدًا من هذا السائل، لذلك أعدت الزجاجات الأخرى إلى الحافلة.

قبل أن أغادر، نظرت إلى المشهد الذي أُخلّفه ورائي: الحافلة الصدئة وسط السهل، والتي كانت تتفكّك ببطءٍ بمرور الوقت وهي في مكانها. القبور التي حفرتها على شكل دائرة وزينتها بالأقنعة والأسلحة. الصمت الذي لا يزعجه إلّا هرير الريح المستمرّ. بدا لي الأمر كله غريبًا وشريرًا ومؤثّرًا بشكلٍ لا يصدّق، فشعرت بعبءٍ أعجز عن تفسيره، وأنا أحيا وسط هذا العالم لأكون وحدي الشاهدة فيه وعليه. ليس لديّ ما أفعله سوى مواصلة رحلتي، ولستُ متأكدة من شيء سوى أنني سأموت في يومٍ ما، كما مات هؤلاء الحرّاس.

هكذا سرت في ذلك الدرب، الذي لا يبدو أنّ شخصًا سار عليه منذ عشرين عامًا، وقد نما الغطاء النّباتيّ المتناثر في بعض الأماكن حتّى أخفاه، فاضطررت إلى تسلّق تلّ صغير لرؤية الشريط العاري الذي قادني صوب الجنوب الغربي. تساءلت: هل سيؤدّي إلى شيءٍ ما؟ وبدا سؤالي هذا منطقيًا، إن كان هناك أيّ منطقٍ في هذا العالم.

في تلك الحافلة، بقي مقعدان شاغران؛ هل كان السائق في طريقه لاصطحاب حارسين آخرين، أو ربمّا ثلاثة وكان يُفترض بأحدهم أن يظلّ واقفًا؟ أم أنه كان يقود الآخرين إلى وجهتهم النّهائية؟

مشيت لثلاثة أيام بمعدّل عشر ساعاتٍ في اليوم. عاودت المشي بهذه الوتيرة المتسارعة لأنّ صبري أوشك أن ينفد، فقد مكثتُ في مكان واحد لفترة طويلة، وكانت إمداداتي على وشك النّفاد عندما

رأيت ملجأ. دخلت من دون أن أرفع سقف توقعاتي، وأنا واثقة من أنني لن أجد سوى المصابيح المضاءة والأبواب الرئيسة المفتوحة والقفص المغلق. لكنّ السعادة غمرتني حين وجدت في الثلاجة قطعة صغيرة من لحم الضأن، أدركت أن طبخها سيكون سريعًا، وأنني سأسكت جوعي قريبًا. بيد أنني لم ألقِ نظرة على القفص ومَنْ فيه، فترك هذا التصرف الأرعن أثرًا في نفسي، فعاهدتها على العودة وتقديم احترامي في اليوم التالي.

في تلك الليلة، حلمت أنني كنت جالسة في الحافلة مع حرّاس أحياء. لم أتمكّن من تمييز وجوههم بسبب الأقنعة، لكنّني سمعتهم يتحدّثون، ولم يسبق لي أن سمعت صوت رجل إلّا في الأحلام. كانت الحافلة تتحرّك، وكنت في وضعٍ طبيعيّ تمامًا، فلم أسأل إلى أين أنا ذاهبة؟ أو ما الذي أفعله بين الحرّاس؟ ومع أن الرحلة طالت إلّا أنني شعرت بالراحة وأنا محاطةٌ بالرجال. فجأة، استعدتُ تلك الإثارة الرائعة الذي كنت أختلقها في القصص، وأحتفظ بها لنفسي.

أيقظتني تلك الإثارة، فوجدت نفسي وحيدة، مستلقية أسفل بطّانيّتي وسط السّهل، على بعد خطوات قليلة من الملجأ. شعرت بحزنٍ شديدٍ حين فكّرت بأولئك الرجال، وكيف يثير التقرّب منهم مثل تلك الإثارة المرغوبة، التي لم أعرفها للأسف إلّا صدفةً في أحلامي. للحظات تساءلت عن جدوى إصراري على الحياة، وفكّرت في كلّ النّساء اللواتي قتلهنّ اليأس قبل أن يبلغن سنّ الشيخوخة، وفي لورا التي سئمت من إبقاء روحها مقيّدةً بجسدها. شعرت بنوعٍ من الإغراء الغامض، وبرغبة ملحّة في الاعتراف بالهزيمة، وهذا ما أرعبني.

نهضت وخطوت خطواتٍ قليلة. كان الجو صافيًا، والسماء شاسعة،

وأمامي مجموعة من التلال، وآلافٌ من الكيلومترات لأجتازها، وهذا ما أجّج فضولي بعد أن همد قليلًا.

في اليوم التالي، نزلت الدّرج وجلست أمام القفص. كان هذا الملجأ واحدًا من الملاجئ القليلة التي حافظ قاطنوها على كرامتهم حتّى النّهاية؛ فلم تتكوم الجثث بشكل مروّع، بل كانت مستلقية، كل واحدة على فراش، وكأنها نائمة. ربمّا امتلك أحد الرجال شخصية طاغية فاستطاع أن يقنع زملاءه المسجونين أنّ الصراخ والمقاومة لن يجديا نفعًا، وأنّ عليهم أن يتقبّلوا مصيرهم ولا يخوضوا صراعًا عقيمًا. كان الوضع في هذا القفص مقبولًا بل جيّدًا طبعًا إذا استثنينا الجثث المنتشرة في كل مكان. هذا الوضع قادني إلى سؤال آخر وهو: هل يمكن إحداث الفوضى إن كانت الموارد غير موجودة؟ ولكن هذا السؤال مثل الأسئلة التي سبقته ظلّ من دون إجابة.

شعرت بشيء من السكينة وأنا أنظر إلى تلك الجثث: لقد مات هؤلاء الرجال بهدوء وسيبقون على هذا الحال، وهذا ما قادني إلى التفكير في الطريقة التي سأموت بها؟ هل سأموت ليلًا وأنا نائمة، وأبقى ممدّدة في هذا السهل، وأبقى مكشوفة لهذه النسمات اللطيفة المستمرة؟ أم سأمرض وأعاني الألم؟ تذكّرت الأسلحة، وتذكّرت مزلاج الأمان، فلمت نفسي لأنني لم أتابع محاولاتي لتحريره، فقد ينتهي بي الأمر متمنية الموت! كنت أستطيع العودة إلى الحافلة، لكنني تردّدت كثيرًا في الرجوع لأن هناك أراضي كثيرة تنتظر أن أكتشفها. لا أزال صغيرةً وصحّتي جيّدة، ولا يزال الوقت متاحًا لي للتفكير في هذا النّوع من الاحتياطات. وبالإضافة إلى ذلك، كنت أتوقّع تحقيق اكتشافات جديدة؛ فلا شك في أن هذا السهل يحتوي أشياء أخرى غير الملاجئ والأقفاص.

ملأت إحدى قدور الطبخ الكبيرة بالماء، وغليتُ الغسيل طويلًا، وحين بدا نظيفًا، نشرته على العشب كي تجفّفه أشعة الشمس، فاستهلكت عمليتا الغسيل والتجفيف يومي بأكمله. عاودت السير، وبعد أن صار معي كتابٌ وصرت أستطيع تعلّم القراءة، شعرت بالأسف لعدم وجود قلم رصاص، أو أيّ شيءٍ آخر أكتب به، كي أدوّن تفاصيل رحلتي. رحتُ في المساء، وقبيل النّوم، أتدرّب على كتابة الرسائل على التراب، وعلى نسخ الجمل والكلمات. وتعرّفت بسرعة على الكلمات التي كنت أستخدمها في أثناء الكلام، وفكّرت في طريقة كتابة الكلمات التي لم تكن مكتوبة في الكتاب. أوّل كلمةٍ حاولت تهجئتها كانت « كابينة» وكنت أعرف الأحرف الأولى من فعل كان، وأعرف ظرف المكان بين أيضًا، وهكذا تعرّفت على الكلمة من خلال دمج المقطعين.

في بعض الأحيان، وخلال انشغالي بهذه الطريقة في تفكيك الكلمات، كنت أنطق تلقائيًا بالكلمات التي أحاول كتابتها، وكنت أتعجّب من صوتي الذي صار خشنًا، فتساءلت: هل نسيت طريقة التحدّث لأنني ما عدت أتحدّث؟ أقلقني الأمر قليلًا، ثمّ هززت كتفيّ وتقبّلته. فما الضير في نسياني طريقة التحدث تمامًا؟ فأنا لن أتحدّث إلى أي شخصٍ مرّةً أخرى! ومع ذلك، شعرت للحظة بالحنين.

لم يتكرّر ذلك الحلم الرائع. في بعض الأحيان كنت أواجه الحقيقة الراسخة وهي أنني وحيدة، وأنني سأبقى وحيدة حتى أموت، وأنّ لا متعة في متناول يدي سوى تلك الرغبة المتمثّلة في إشباع الفضول.

تنقّلت من ملجأ إلى آخر من دون أن ألحظ اختلافات تُذكر بينها، ومثل الملاجئ كانت الفصول على هذا الكوكب. عاد الشتاء، وانخفضت درجات الحرارة انخفاضًا طفيفًا، وهطل المطر ليلًا، فصرت أنام ملفوفةً

بالغطاء المقاوم للماء، ثمّ أنطلق متأخّرة في الصباح، لأن عليّ الانتظار حتى يجفّ. ارتديت البنطال والسترة، وأنا أنتظر تحسّن الطقس، وصنعت فستانًا من المناشف في الأوقات التي لم أكن أقرأ فيها.

صارت الأرض أكثر خضرة والجداول أكثر عمقًا، وفقدتُ الدرب، وغدا الاستمرار في المشي أكثر صعوبةً. في البداية، حدّثت نفسي بأنني ارتكبت خطأً ما، من دون شكّ، وأنني خلطت بين الدرب وبين التكوين الطبيعيّ للأرض. وعلى الرغم من كرهي الشديد لفكرة الرجوع إلى الوراء، إلّا أنني فعلت ذلك بحثًا عن الدرب، واعتقدت أنني وجدته مرّةً أخرى على قمّة التلّ، ومن هناك مسحت الريف بدقّة. بدا لي أنّ الاتجاه الذي أتيت منه هو الاتجاه الصحيح، لذلك عدت وسلكت الدرب نفسه، وأنا آمل أن يكون سبب ضياعي هو فقدان التركيز. انتظرت هبوط الشمس في المساء، ليؤكّد على معالم المشهد الطبيعيّ، فرأيت الشريط الرفيع الممتدّ إلى قمّة التلّ المقابل. في فجر اليوم التالي، عثرت على مزيد من الأدلّة عليه، لكنني فقدت كلّ العلامات بعد المشي لمدّة ساعة، فقرّرت أن أغطّي منطقةً نصف دائرية واسعة، يبلغ شعاعها خمسة آلاف خطوة. فعلت ذلك خلال ثلاثة أيام، ومشيت ذهابًا وإيابًا، وفي النّهاية، استسلمت لحقيقة أنّ الدرب انتهى عند هذا الحدّ.

شعرت بمرارة خيبة الأمل؛ فقد تمنيت أن يقودني الدرب إلى مكانٍ ما، وتناسيت عدم وجود شيءٍ منطقيّ في تلك البرّية. هل يبني النّاس الدروب كي تختفي فجأة؟ هذا ما أكّدته لنفسي بعد هذه التّجربة: نعم، لقد بنى هؤلاء النّاس الدروب لتختفي فجأة. شعرت بالرغبة في الجلوس على الأرض والبكاء، لكن لحسن الحظ، كان غضبي أقوى ودفعني إلى الاستمرار، واختيار اتجاه جديد. في البداية، اخترت الشرق ثم جعلني الدرب انحرف نحو الجنوب الغربي، والآن قرّرت أن أتّجه جنوبًا.

أوشكت طاقتي على النّضوب، بعد أن تحوّل الدرب والحافلة، اللّذان منحاني كثيرًا من الأمل، إلى لُغزين لا حلّ لهما، مثل كلّ شيء آخر. وبين الفينة والأخرى كنت أقول لنفسي إنّ ما حقّقته بعد عامين من المشي أمر لا يُذكر. لكنني استعدت مرونتي الطبيعيّة مجدّدًا بشكلٍ تدريجيّ، وأنا أشقّ طريقي من قمّة تلّ إلى أخرى.

خطر لي أن أنظّم مساري بشكل أكثر ذكاءً؛ فمن خلال السير بشكلٍ مستقيم، كنت أستكشف منطقة ضيّقة جدًّا، وربما كنت أفقد أمورًا أكثر، إثارة إلى اليسار أو اليمين. أعطتني التجربة عديمة الجدوى، التي قمت بها عبر المسح نصف الدائري، فكرةً جديدة: سأمشي في أقواس واسعة متعاكسة، تفصل بينها ساعتان أو ثلاث ساعات، اعتمادًا على حدسي وعلى جاذبية التضاريس. بالطبع، سيكون ذلك أصعب بكثير من المضي قدمًا بشكلٍ مستقيم، حيث لا أفعل شيئًا سوى اختيار المعالم والسير نحوها.

كنت أعرف أنني إذا اتّبعت مسار الشمس، فسوف أدور في مكاني. أجريت حسابات عديدة وتجارب معقّدة على الأرض، فقد كنت بحاجةٍ إلى اتّباع مسار الشمس لفترة، ثم أُغيّر الاتّجاه في منتصف النّهار. في تلك الفترة، لم يكن لديّ أي وسيلة لرسم خريطة لرحلتي، لكنني كنت كلّ مساء أرسمها على الأرض وأطيل النّظر إليها لأتأكّد من حفظها واتّباعها خلال النّهار، وكثيرًا ما رحت أتساءل إن كانت الملاجئ منتشرةً بشكلٍ عشوائيّ، أو إن كانت مواقعها محددة بخطة مسبقة.

في رحلتنا الاستكشافية الأولى، مشينا لمدة ستة وعشرين يومًا قبل أن نعثر على الملجأ الأوّل. ولكنني في مرّة من المرّات وجدت واحدًا بعد السير لمدّة أسبوعٍ تقريبًا، حيث تمكّنت من تجديد مواردي منه.

في البدء، مشيت في دروبٍ عدّة نصف دائرية، وبعد أن تأكّدت

من قدرتي على توجيه نفسي، رحت أسير في خطوطٍ متعرّجة على طول الأقواس. وبعد أسابيع، استطعت أن أرتّب الملاجئ في مجموعات من خمسة، واحدٌ في كلّ زاوية من زوايا المستطيل وواحدٌ في المركز.

بطبيعة الحال، فاتتني بعض الملاجئ حين كنت أسير في خطٍّ مستقيم، وسرعان ما صرتُ قادرةً عند وصولي إلى ملجأ ما، أن أحدّد الطريق الذي يجب أن أسير فيه للعثور على الملجأ التالي، وصرتُ قادرة على التوجّه إلى الملاجئ أو تجنّبها تبعًا لرغبتي. لكنني لم أرد يومًا أن أتجنّبها، حتّى لو لم أكن بحاجة إلى طعام، لأنني أردتُ النّزول إليها وتقديم احترامي للموتى، ولم أصادف باب قفص مفتوحًا.

كانت الصدفة التي أدّت إلى إطلاق صفارة الإنذار، في اللحظة التي كان فيها الحارس يضع مفتاحه في القفل فريدةً من نوعها، وكنتُ أحيانًا أتعجّب من مصيري: فقد كنت الطفلة الوحيدة بين النّساء، وكنّا الأسيرات الوحيدات الباقيات على قيد الحياة بين مجموع الأسرى الذكور والإناث.

هذه السيطرة الجديدة على الطريق بدّدت مزاجي الكئيب، فقد استطعت، على الرغم من كلّ شيء أن أكتشف شيئًا جديدًا، فلماذا سأسمح للاكتئاب بأن يحكم سيطرته عليّ؟ وأنا لا أشك في أنه سيكون هناك مزيد من الاكتشافات. وها أنا أصل إلى اكتشافٍ آخر!

حدث الأمر في نهاية اليوم، وكنت متعبةً وأبحث عن قطعة أرضٍ ملائمةٍ لألقي رحالي فيها. فبعد أن أمطرت لياليٍ متتالية، بدت السماء صافيةً ذلك المساء. اعتمدت على الطقس الصحو كي لا أتناول طعامي المعلّب باردًا كما فعلتُ في الأيام السابقة عندما لم أتمكّن من إشعال النّار، لكنني كنت بحاجة إلى بستان كثيف الأشجار كي أقطع ما يكفيني من الأغصان. نظرت حولي بحرص، لكنني ركّزت نظري على هدفٍ محدّد،

الأمر الذي كاد يحرمني رؤية كدسة الحجارة الموضوعة جانبًا. للوهلة الأوّلى لم أُعِر الأمر أهمّيّة وكنت على وشك أن أمضي في سبيلي، عندما شعرت بشيء غير عاديّ جعلني أتوقّف.

استدرت، ورأيت الكدسة البارزة بشكل نافر مقابل رتابة السهل. كان عرضها مترين ويصل ارتفاعها إلى ركبتي تقريبًا، وكان هذا مشهدًا جديدًا لم أرَ مثله؛ فكلّ ما كنت أصادفه لم يتجاوز عددًا من الحجارة الكبيرة المتجاورة، أمّا ما وجدته هنا فلا يمكن أن يكون طبيعيًا، ولذلك تخفّفت من حقيبتي، ووضعتها على الأرض ببطء والتقطت أنفاسي.

خفت من تحريك الحجارة، وكان عليّ أن أنتبه كثيرًا، فالحجارة كبيرةٌ نوعًا ما، ولم أتمكّن من رفع أكثر من حجرٍ واحدٍ في كلّ مرّة. وأدركت احتمال أن أخدش راحتي خلال هذا العمل، لذلك مزّقت شريطًا من البطّانيّة ولففته حول يدي، وهذا ما جعل عملي أبطأ، لكنني شعرت بنوع غريب من الراحة.

كنت خائفةً من خيبة الأمل، ومن احتمال ألّا أجد، بعد كلّ هذا الجهد، غير عددٍ قليلٍ من الحشرات المحبّة للظلّ، لكنّ الكومة بدت مُصطنعة، ولم أشك في ذلك، فتساءلت: إذا لم تكن تخفي شيئًا بالفعل، فلِمَ تجشّم مَنْ كوّمها كلّ هذا الجهد؟ هذا الجواب الجديد الذي يمكن أن أحصل عليه في هذا الحال، سيكون كنزًا لا قيمة له بدأ يرهقني. فقد صار هذا العالم مثل أحجية الصور المقتطعة، وليس لديّ سوى عددٍ قليلٍ من القطع التي لا تتوافق بعضها مع بعض... ذات مرّة، شرحت لي أنثيا عن تلك الأحجية فشعرت في ذلك الوقت أنها قد تكون ممتعة.

ركّزت على إزالة الحجارة بالتّرتيب من أعلى الكدسة لأتجنب انزلاقها. كان العمل بطيئًا، واستغرقني أكثر من ساعة للوصول إلى الطبقة الأخيرة

منها، التي كانت أصغر بكثير وعلى شكل دائرة. أخذت المجرفة التي أستخدمها كلّ مساء لتسوية الأرض، وشرعت بإزالة الحصى بعناية. كنت أجثو على ركبتيّ، وسرعان ما اصطدمت المجرفة بسطح معدني.

سرت القشعريرة في جسدي، وأشعرتني بالدُّوار، فوقفت ساكنة للحظات كي أستعيد أنفاسي، وأنا مذهولة وخائفة إلى حدٍّ ما.

وضعت المجرفة جانبًا، وشددت ضماد يدي من جديد كي أزيل الحجارة الأخيرة، فتساقطت قطرات العرق من جبهتي لكنني واصلت العمل ببطءٍ ومنهجية. بعد ثلاث دقائق، توضّح كل شيء أمامي: كان هناك غطاء معدني مستدير، قطره متر، ذو مقبض صدئ عند طرفه، فالتقطتُ مفكّ البراغي لتحريره ورفعه.

هل كان عليّ أن أرفع هذا الغطاء الثقيل؟ كنت مرتبكةً وشعرت باليأس، وقلت لنفسي إنني سأعجز عن ذلك. لكن حين حاولت سحب المقبض، شعرت بشيءٍ يتحرّك، فسحبته مرّةً أخرى، ووجدت أنّ الغطاء يدور بصعوبة حول محور أفقي، ويُحدث صوت كشطٍ. لم أكن بحاجة إلى قوّةٍ أكثر مما أملك، لأرفع الغطاء الفولاذي ذا الحافة، فأرى على عمق نصف متر، حافةً صغيرةً يمكنني الوقوف عليها.

نزلت بحذرٍ شديد، ووضعت يدي على الحافة، وعندما استقرّت قدمي، تبيّن لي أنني أقف على أعلى درجةٍ من درج حلزوني معتمٍ وضيّقٍ للغاية. في ذلك الوقت، لم أكن قد اختبرت الظّلام في الأماكن المغلقة، لأن الضوء لم ينطفئ أبدًا في الملجأ. لكنّ النّساء تحدّثن عن مفاتيح الإنارة، فتحسّست بأصابعي الجدار بحثًا عنها وعلى الرغم من أنهنّ لم يقدّمن لي وصفًا دقيقًا، إلّا أنني تصوّرت أنها نتوءاتٌ صغيرةٌ موضوعة بجانب الأبواب.

بدأت أتلمّس طريقي إلى أسفل الدرج، وعندما وصلت إلى الدرجة الثالثة شعرت بشيء صغير وناعمٍ له كبسة زرّ، ضغطت عليه وحينها انبهرت من الضوء الذي غمر المكان عند قدمي. كان الجدار رماديًا وخشنًا مثل جدران الملاجئ، لكنّ الأدراج هناك لم تكن حلزونية أبدًا كما هي هنا، ولم يكن بالإمكان التحكّم في الضوء.

في البداية، نزلت بسرعة، لكنني بدأت أشعر بالدّوار عندما وصلت إلى الدرجة العاشرة، لذلك توقّفت، وأجبرت نفسي رغم نفاد صبري، على الانتظار بضع دقائق حتّى يزول الدّوار. لكنّه عاد حالما عاودت التحرك. في وقتٍ لاحق، صرت أصعد وأهبط هذا الدرج الحلزونيّ بسهولة، لكن في تلك المرّة الأولى، ومع أن الفضول غمرني حتّى أذنيّ، اضطررت للتّوقّف مرّات عدّة، وعددتُ ثمانين درجةً معدنية قبل أن أصل. حين بلغت الأسفل، رأيت ممرًا صُنعت أرضيته من المادة الخشنة نفسها التي تُصنع منها الجدران، عرضه ستّ خطوات أو سبع، وطوله اثنتا عشرة خطوة، وتصطفّ على جانبيه من الأعلى إلى الأسفل رفوفٌ محمّلةٌ بالعلب والزجاجات والأغلفة من كلّ الأنواع. وكان مغلقًا في النّهاية ببابٍ مصنوعٍ من مادّة غريبة جدًا، لم يسبق لي أن رأيتها.

فُتح الباب بسهولة كاشفًا عن غرفةٍ مربّعة كبيرة. لم تكن رمادية وكئيبة مثل الملاجئ، بل كانت جدرانها مغطاة بالكامل بخشبٍ جميل داكن ولامع. وكانت الأرضية ناعمة، فأدركت أنني، وللمرّة الأولى، في حياتي، أمشي على سجادة. وانبعث من المصابيح الموجودة في نقاطٍ مختلفة من الغرفة وهج دافئ، فانعكس مشرقًا على طاولة كبيرة، حيث رأيت كراسي واسعة ومنخفضة عرفتها مباشرة على أنها من النّوع الذي يسمّى الكراسي ذات الأذرع. أعجبت بها كثيرًا، فلم يسبق لي أن رأيت شيئًا بمثل هذا الجمال، لأنني أصلًا لم أرَ شيئًا جميلًا من صنع الإنسان.

رأيت جمال السّماء، والأشكال المتغيّرة للسُّحب، ورذاذ المطر، والنّجوم التي تتحرّك ببطءٍ، وبعض الزهور. لكنني لم أرَ أثاثًا، ولوحات معلّقة على جدران، ومزهرياتٍ، ومنحوتاتٍ صغيرة. لا ينبغي لي أن أصف هذه الأشياء بدقة شديدة، لأنني في تلك اللحظة الأولى لم أرَ سوى تفاعل الخطوط والأشكال والألوان المتناغمة، وكأنّها تكوينات لا يمكن سبر أغوارها، غمرتني كلّيًا، ودمعت عيناي بسبب الشعور بالهدوء والسكينة اللذين ذكّراني بغناء النّساء، حين كان يتردّد صداه في السهل. كانت الألوان متناسبة بشكلٍ جميلٍ ومتناغمة مع حجم الغرفة وأبعادها.

لم يبارحني الدّوار الذي رافق نزولي، فجلست على الأرضية خوفًا من السقوط، وبعد دقائق، فكّرت أنه سيكون ملائمًا أن أغمض عينيّ، لكنّ الدوار لم يختفِ، بل ازداد سوءًا. أسندت رأسي إلى ذراعيّ اللتين جمعتهما على كتفيّ، وتنفّست بعمقٍ، وفعلت شيئًا لم أفعله منذ سنوات؛ شرعت أعدّ نبضات قلبي. يبدو أنّ اللجوء إلى هذه العادة القديمة جدًا كان له أثرٌ مهدّئ. ومع ذلك، مرّت أكثر من ساعة قبل أن أبدأ باستكشاف مملكتي الجديدة بهدوء. حاولت مرات عدّة أن أرفع رأسي وأفتح عينيّ، لكنّ فيض مشاعري الثائرة كان يهزمني مباشرة، فاضطررت إلى التكوّر مرّةً أخرى والانتظار بصبرٍ حتّى تهدأ العاصفة.

كنت أواجه الماضي الإنسانيّ في مكان صُمّم لمتعة الشخص الذي سيعيش فيه، وكان مختلفًا تمامًا عن الملاجئ، التي لم أعرف سواها، ولم أعرف فيها غير الأدوات التي تلبّي الاحتياجات الأساسية، والسياط وفُرُش القش التي كنا نُكدّسها يوميًا حتّى نتمكّن من التحرّك، إلّا أن هذا المكان السرّيّ تحت الأرض كان بيتًا.

تركتُ الأثاث بالطريقة التي وُضع فيها، وفي كلّ مرّة استخدمت فيها

شيئًا ما أعدته إلى مكانه. كانت هناك ثلاثة كراسٍ عند كل جانب من جانبي الطاولة، حيث يوجد مصباح ذو غطاء أصفر جميل، وطبقٌ كبيرٌ من الزجاج الشفاف وبعيدًا عن الطاولة، هناك ثلاثة كراسٍ بذراعين حول طاولة أخرى منخفضة، وسريرٌ كبير مُدد فوقه غطاءٌ ملوّنٌ وزعت عليه وسائد.

في الوقت الذي جالت فيه عيناي في الأرجاء رأيت إلى يميني، ما سأعرف لاحقًا أنه مطبخ، وجدت فيه حوضًا وموقدًا وخزانة تحتوي على قدور وأطباق خزفية بيض عليها نقش زهورٍ زرق، بالإضافة إلى صنبورين أحدهما للمياه الساخنة والآخر للمياه الباردة، لم يُشبه الباب الخشبي جهة اليسار أيّ باب سبق لي أن رأيته فقد كان مطليًا باللون الأبيض. حين فتحته دخلت غرفةً أصغر بكثير، فيها مرحاضٌ، ومغسلة وحوض استحمام.

بعد أن فتّشت كل شيء، جلست على أحد الكراسي، ثم جرّبت الجلوس على الكرسي ذي الذراعين، وشرعت أضحك، وظللت على هذا الحال لساعتين قبل أن تتحول دهشتي فرحًا.

كثيرة هي الأشياء التي كان عليّ تفحّصها، وكان استيعاب كلّ ذلك أمرًا مثيرًا للغاية لدرجة أنني لم أدرك، إلّا بعد حين، أنّ إحدى التزيينات الموجودة على الحائط كانت رفًّا مُحمّلًا بالكتب، فعاودني الدّوار، ووقفت في الغرفة أنظر إلى الكتب لوقتٍ شعرت أنه طويلٌ جدًّا.

لقد أعدتُ قراءة دليل البستنة مرّات ومرّات، وحفظته عن ظهر قلب. شعرتُ بعينيّ تتّسعان أمام هذه الهدية غير المتوقعة، ولكي أتغلّب على الصدمة، بدأت كالعادة بالعد: هناك تسعة عشر كتابًا، ثمانية منها سميكةٌ جدًا، بعرض ثلاثة أصابع تقريبًا. اقتربت منها ولاحظت أن عناوينها مطبوعةٌ على الأغلفة، فشعرت في البداية بالخوف الشديد لدرجة أنني

حاولت تهجئتها وظننت أنني نسيت القراءة. رفعت يدي وأخذت كتابًا، فاندهشت من ثقل وزنه، ثمّ جلست ووضعته أمامي، وقرأت عنوانه: أطروحة أوليّة في الملاحة الفضائية. بعد أن فتحته، لاحظت أن صفحاته مليئة بالكلمات والإشارات الغريبة التي تعرّفتُ من خلالها إلى الرموز القليلة التي علّمتني إياها أنثيا: زائد، ناقص، ضرب، قسمة، يساوي.

أعتقد أنّ الإرهاق وحده هو ما جعلني حكيمةً بما يكفي للتوقّف عن القراءة في ذلك المساء. بعد ذلك، اكتشفت أنّ الكتب الأخرى كانت عبارة عن دراساتٍ أكثر عمقًا في الموضوع نفسه. قرأتها جميعًا، قرأت كلّ كلمة، ولم أفهم شيئًا. هل أفهم مسرحيات شكسبير بشكلٍ أفضل، أو قصّة دونكيشوت، أو ما يجري في روايات دوستويفسكي؟ لا أعتقد ذلك. فقد كانت تعرض لتجارب لم أختبرها، وأنا أظن أنني أجيد التعامل مع الأمور التي أستطيع لمسها. صحيح أنني احتجت إلى ساعاتٍ لأعرف طريقة استخدام المفتاح المعدني وفتح زجاجةٍ من النّبيذ، لكنني نجحت في النّهاية. أما المشاعر فبقيت لغزًا بالنّسبة إليّ، ربمّا لأنّ الأحاسيس المرتبطة بها كانت غريبة عني، أو لأنها تنفّرني كما يفعل الاتصال الجسدي، الذي يبدو مهمًّا جدًّا في الحبّ. كلّما فكّرت في موت أنثيا والجهد الذي بذلتُه كي أحتضنها، تنهمر الدموع من عينيّ، فأحاول تخيّل أنني أشعر بالدفء.

لا تزال أمور كثيرة مما أخبرتني به النّساء تشعرني بالحيرة، فأنا أعرف أن هناك شيئًا كان يُسمّى المال، وأن كلّ شيء يجب شراؤه. أخبرنني أنهن يستغربن من الحصول على كلّ شيء مجانًا في هذه الملاجئ، فهنّ لم يحتجنَ إلّا إلى التوجّه إلى المخازن الباردة ليحصلنَ على أي شيءٍ من دون دفع ثمنه. لكنّ كلّ هذا ظلّ كلامًا مجرّدًا إلى حدٍّ ما بالنّسبة إليّ، فلم أفهم لماذا يقتل النّاس من أجل المال كما جرى مع راسكولنيكوف العجوز المسكين. قد تقول إنني قتلت، وبالتالي لا يفترض بي أن أجهل

السبب، لكنني لم أقتل إلّا بدافع الشفقة ولأخفّف معاناة رفيقاتي، وكان لديّ انطباعٌ دائمٌ بأنهنّ ممتنّات لي، ولكن ربمّا لا يجدر بي أن أكون متأكّدةً تمامًا من ذلك.

إنّ جهلي بالمشاعر الإنسانية كبيرٌ جدًّا لدرجة أنني ربمّا لم ألحظ إن كنّ يكرهنني ولم يكنّ ممتنّات لي، وربما قادني جهلي هذا إلى عدم معرفة لماذا يعدّ ارتداء الملابس المستعملة أمرًا مهينًا، فأنا نادرًا ما أرتدي أي شيء آخر! في هذا السياق، لا أجد ضيرًا في القول إنني أحببت أغاني روز وتوقّعت أنني كنت سأرغب بسماع الموسيقى أكثر من قراءة الأدب، لو أنني وجدت أقراص تسجيل في هذا المكان، بالإضافة إلى المعدّات اللازمة لتشغيلها. فأنا لم أجد شيئًا يشير إلى ذلك حتّى الآن.

مضت خمس ساعات منذ اللحظة التي شعرت فيها بالتعب في الأعلى وقررت التوقف لأنني جائعة، ولاحظت كدسة الحجارة. فتحتُ إحدى العلب، وأكلت محتوياتها باردة، وافترضت أنّ الموقد سيعمل بشكلٍ مثالي، كما عملت المصابيح، لكنني لم أكن مستعدّةً لصدمةٍ إضافية، فأنا مرهقةٌ ولا أرغب في التجربة. فتحت بطّانيّتي ووضعتها على السجّادة، وأجّلت استخدام السرير إلى وقتٍ لاحق. بعد عاصفة المشاعر التي وجدت نفسي وسطها، ظننت أنني سأنام لساعاتٍ طويلة، لكنّ الإثارة كانت شديدة، فاستيقظت بعد ثلاث ساعات، وأنا أتضوّر جوعًا. توجّهت إلى المطبخ وغليت قليلًا من الماء في قدرٍ صغيرة جدًا. كان باب الثلاجة إلى يمين الحوض، وحين فتحته دُهشت من أنه يقود إلى غرفة أكبر من تلك الموجودة في الملاجئ، وكانت مكدّسة حتّى سقفها بشتّى أنواع اللحوم والخضار والفاكهة.

كان هناك لاصقة على كلّ كيس توضّح المحتويات بعناية. وكنت

أعرف بعض الأطعمة لأنني سمعت عنها، لكنني لم أعثر عليها في الملاجئ، مثل الدجاج ولحم الغزال وبالإضافة إلى البيض المطحون، والطماطم، والبقدونس، والجبن ومئات من الأطباق الشهية الأخرى التي تناولتها بعد أن تذوّقتُ طعمها الشهيّ. لا يمكنني أن أصف سعادتي حين عثرت على الخُبز، فقرّرت أن أحتفل. دهنت دجاجةً بالأعشاب والطماطم، وأخرجت شرائح من السمك والبطاطا بالإضافة إلى خبز مدهون بالزبدة والمربى، ووضعتها جميعًا في المطبخ لإذابة الجليد عنها. في وقت لاحق، تعلّمتُ استخدام نوع من الأفران يُسخّن الطعام في غضون ثوانٍ، أمّا وقتها فانتظرت ساعات عدّة لإتمام هذه المهمّة، لكن بسبب انشغالي لم أشعر بطول الوقت.

أخذت حمّامًا ساخنًا، وشعرت للمرّة الأولى بالرفاهية التي افتقدتها النّساء، ثمّ أصبح الأمر عاديًا في المرّات التالية، ولكنني لم أكتشف متعة الغمر في الماء الساخن إلّا بعد عودتي من الرحلات الاستكشافية. ذات يوم وجدت قطعًا من الصابون. بالتأكيد، كان كلّ شيءٍ جديدًا بالنّسبة إليّ، ففكّرت مطولًا في طريقة استعمالها، إذ حيّرني شكلها، وأذهلتني رائحتها، فأنا لم أكن أعرف غير روائح الأعشاب والزهور البرية القليلة ورائحة الأرض بعد المطر.

تذوّقت الصابون وعرفت على الفور أنه غير مخصّص للأكل، ثمّ تذكّرت كلام النّساء عنه ففركته على يدي، لكنّ ذلك لم يكن مفيدًا من دون أن أبلّلهما أولًا. ببساطة، لم أكن أعرف طريقة استخدام قطع الصابون، وحين عرفت استخدمته لغسل شعري، الذي أصبح بعد أن جفّ خفيفًا جدًّا ومنسابًا يؤطّر وجهي بلطفٍ شديد.

كانت المرآة من أروع الاكتشافات. لم يسبق لي أن رأيت وجهي،

وحين أخبرتني أنثيا أنني جميلة، لم يعنِ لي قولها شيئًا وقتها كما لم يعنِ لي الآن، ومع ذلك شعرت بالانبهار، وأمضيت ساعاتٍ أطيل النّظر إلى صورتي، فأنا لم أعرف ملامح وجهي، ولا كيف تبدو ابتسامتي، ولا نظرتي الجادّة أو القلقة، فنظرت مليًا وأنا أقول: «هذه أنا».

حتّى الآن، أحبّ أن أنظر إلى المرآة. وخلال سنوات، راقبت ظهور التجاعيد فوق حاجبيّ، وكيف بدأ خداي يتهدلان، وكيف شحبت شفتاي. هذه أنا بالتأكيد، وأنا أشعر بنوعٍ من الإعجاب بصورتي المنعكسة في المرآة.

ربّما كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمري عندما خرجنا. وبمّا أن لورا ماتت بعد ثلاثةٍ وعشرين عامًا، وقد أمضيت في رحلتي عامين قبل أن أستقر في هذا المكان الذي أسمّيه البيت، فهذا يعني أنني تجاوزت الأربعين بقليل.

كان ذلك قبل اثنين وعشرين عامًا، ومع أنني امرأةٌ عجوز الآن، إلّا أنني لا أزال أحبّ النّظر إلى وجهي، من دون أن أعرف إذا كان جميلًا أم قبيحًا؟ لكنّه الوجه الإنساني الوحيد الذي أراه، ولذلك أبتسم له وأتقبّل ابتسامته الودّيّة.

حين فتحتُ خزائن الحمّام، ولم أجد سوى كدسة من المناشف، فافترضت أنهم كانوا بانتظار أمتعة النّزيل الذي لم يصل، لذا لم يضعوا شيئًا قبل وصوله، وكنت سأشكرهم إن فعلوا لأن ما سيضعونه كان سيخبرني شيئًا عنه.

عدت إلى المطبخ، وأعددت قهوة بيضاء، ووضعت قليلًا من مسحوق البيض في الماء لتحضير العجّة وفق التعليمات الموجودة على العبوة. ثم سحبت أغطية السرير، وأسندت رأسي إلى الوسادة للمرّة الأولى في حياتي، وأعجبني ذلك كثيرًا.

في اليوم التالي، بدأتُ عملية جرد الممرّ الذي احتوى على أدواتٍ مختلفةٍ وعددٍ من الأشياء التي لم أعرف كيف تُستخدم. ربمّا كانت أدواتٍ كهربائية، كاملة أو بحاجة إلى التجميع. سمعت النّساء يتحدّثن عن أجهزة الراديو، وأجهزة التلفاز، والهواتف، والدرّاجات النّارية، والسيارات. وجعلتني الكتب المتعلّقة بالملاحة الفضائية أتساءل عما إذا كانت معدّات المختبرات هي التي أخطأت غايتها وأرسلتنا إلى هنا. لم أجد تعليمات مكتوبة فوق أي جهاز باستثناء فرن إذابة الجليد الموجود في المطبخ، والتي تعلّمت من خلالها طريقة استخدامه.

تجوّلت حول المعدّات الموجودة في الممرّ لسنوات عدّة، وكنت في كلّ مرّة ألتقطها ثمّ أعيدها، لأنني كنت أعرف جيدًا أنّ إصراري لن يعوّض المعلومات التي تنقصني. حتّى الآن لا أزال أنظر إليها والأمل يحدوني في أن أعرف يومًا طريقة استخدامها، فأنا أيضًا لم أكن أحسن القراءة عندما وجدت دليل البستنة، لكنني استطعت فكّ شيفراته.

أنا أستطيع العدّ جيدًا، وأستطيع الجمع والطرح بسهولة، ولكنني لا أزال أجد صعوبةً في الضرب والقسمة، وهذا ما عزته أنثيا إلى أنني لم أتعلّم جداول الضرب إلّا عندما كبرت، وأنا التي كان يُفترض بي أن أتعلّمها في الصغر كي تُحفر في ذاكرتي. باستثناء تلك المهارات الحسابية، فأنا لا أعرف شيئًا، وتلك الأشياء الموجودة في الممر هي نتاج تكنولوجي لحضارة متطوّرة لا أعرف شيئًا عنها.

علّمتني النّساء ما عرفنه، على قلّته، فهنّ نسينَ أشياء كثيرة، أضف إلى أنهنّ كنّ يفتقرنَ إلى الأدوات اللّازمة كي يسمحنَ لي بمعاينة الأشياء وتطبيق ما أتعلّمه. فأنا أعرف أنّ النّاس أتقنوا الحياكة، وأنّ بمقدورنا صنع إبر الحياكة عن طريق تنعيم الأغصان المستقيمة جدًّا، لكنّنا لم

نملك قماشًا ولا خيوطًا. شخصيًا كنتُ أخيط عندما أعثر على الخيوط، وكان العثور عليها نادرًا، حتّى أنني لم أعثر عليها هنا أيضًا، لذلك اكتفيت بارتداء الملابس التي أحملها معي.

أغلى شيء وجدته في البيت هو الورق، حيث وجدت رُزمًا منه، وعلبةً من أقلام الرصاص، وبذلك تعلّمت أخيرًا الكتابة، وقد ساعدتني الكتب، حتّى تلك التي تعرض مواد تتعلق بروّاد الفضاء؛ فعلى الرغم من أنني لم أكن أفهم الرياضيات، لكنّ تلك الكتب احتوت فصولًا طويلة من الشروحات، التي تعلّمت من خلالها طرق صياغة الجمل والتهجئة والقواعد، وأمضيت وقتًا طويلًا في دراسة الرسوم البيانية غير المفهومة المصاحبة للنصوص. لقد واظبت على نسخها، وهذا ما علّمني الرسم بدقّة، والحفاظ على النّسب الصحيحة، وهو ما مكّنني في وقت لاحق من رسم خرائط لرحلاتي.

قرّرتُ أن يكون هذا المكان بيتي، وطرحت على نفسي مئات الأسئلة حول الغرض من إنشائه، وحصر العلامة التي تدلّ على وجوده بمجرّد كدسة من الحجارة يسهل أن يُغفلها المار بجوارها. وتساءلت إن كانت كدسة الحجارة هذه قد وُضِعت بقصد إخفاء البيت، أم بقصد الإشارة إليه؟

يحتوي هذا المكان على مؤنٍ أكثر مما رأيت في الملاجئ، وسيكون بمقدوري العيش فيه إلى الأبد، فهو مكانٌ فخمٌ بالنّسبة إليّ، وهذا يشير بوضوح إلى أنني لا أملك فكرةً واضحةً عن الرفاهية.

رأيت في السقف شبكات تكييف الهواء نفسها الموجودة في الملاجئ الأخرى. وحين كنتُ أحافظ على الهدوء التامّ، كنتُ أسمع الهمهمة نفسها التي تشير إلى أنّ كلّ شيءٍ يعمل بانتظام. كان السرير كبيرًا جدًا، ويمكن

لعدد من الأشخاص أن يناموا عليه، وكانت الطاولة تتيح لستة أشخاص أن يجلسوا حولها. وعثرت في المطبخ على أربع مجموعاتٍ من الأكواب، كلّ واحدةٍ مؤلفة من عشرة أكواب، بالإضافة إلى أنواعٍ مختلفةٍ من الأطباق. هل يحتاج شخصٌ واحدٌ إلى كلّ هذا؟ أسفت جدًّا لعدم وجود ملابس، ليس لأنني كنت سأرتديها، بل لأنني كنت سأعرف من خلالها الكثير، فلم تعلّمني الكتب غير الكتابة والقراءة.

هل كان هذا البيت يخصّ زعيمًا لعصابةٍ من الخارجين على القانون؟

لا شكّ في أنني لا أعرف تفسيرًا لأمور كثيرة قد تكون واضحةً تمامًا للنساء اللواتي عشتُ معهنّ، لأنهنّ رأينَ العالم وأنا لم أره.

توقّفت عن طرح الأسئلة التي لا معنى لها، ورحت أتفحّص كلّ شيءٍ، لكنني لم أستطع معرفة أي معلومة عن مالك بيتي الغائب أكثر مما عرفته لدى وصولي. لم أعد أفكّر فيه، فمهما أعدّ من خطط بشأن هذا البيت، تفشل، وأصبح بيته ملكًا لي الآن، وليس بمقدورنا، لا هو ولا أنا، أن نفعل شيئًا حيال ذلك.

بعد شهرين، عاودت الاكتشاف، وقمت بأكثر من خمسين رحلة استكشافية، إمّا مشيًا في خطوطٍ مستقيمةٍ، وإما في أنصاف دوائر متّحدة المركز، لكنني لم أعثر سوى على الملاجئ المغلقة. إن كان ثمّة أماكن أخرى مثل ذلك المكان الذي جعلته بيتًا لي، فأنا لم أرَها، مع أنني لم أتجاهل معاينة الأرض، والبحث بصبرٍ عن كدسة أخرى من الحجارة. لم أفهم شيئًا عن العالم الذي أعيش فيه؛ فمهما تتقاطع المعلومات التي كنت أحصل عليها أينما أتوجّه، تكن النّتيجة النّهائية لا شيء.

في رحلتي الأخيرة، وفي الوقت الذي كنتُ أقف فيه على قمّة تلّ، قبل أن أتابع السير على طول الطريق إلى أسفل السهل الجديد، رأيتُ

ملجأً بعيدًا. شعرتُ باليأس يُسيطر عليّ، وحدّثت نفسي بأنني سأرى درجًا آخر وغرفة حراسة وقفصًا وأربعين جثّةً. جلست أرضًا... وأدركت في تلك اللحظة أنني اكتفيت.

كان الأمل هو ما أبقاني حيّةً طوال السّنوات العشرين التي أمضيتها وحدي، ولكنه فارقني فجأة. تخيّلت لألف مرة ملجأ يكون قفصه مفتوحًا، ينال المسجونون فيه الحرية وقد أثملهم الفرح؛ يرتعشون حين يرون السّماء والسهول، ويحلمون بمدن يسكنها منقذون. لكنهم لا يكونون أكثر حظًا منّا فلا يعثرون سوى على حرية جوفاء. تخيّلتهم ينظرون إليّ ويستجدون تفسيرًا، لكنّ تفسيراتي لن تروق لهم فيقولون هل هذا كلّ ما لديك؟ هيّا اتركينا لمصيرنا فالموت أفضل من هذا اليأس.

أطرقت برأسي، وعدت إلى بيتي.

على الرّغم من اليّأس الذي تملّكني، شرعت في كتابة هذه العمل: يبدو أنّ أملي الذي تضاءل لم يضمحلّ تمامًا؛ صحيح أنني لم أعد أمتلك من القوة ما يتيح لي مواصلة رحلاتي الاستكشافية، لكن ربمّا يكون الملجأ المسكون هو أول ملجأ أو ثاني ملجأ في الغرب، بينما أسير أنا إلى جهة الشرق. لا أحد يعرف ما الذي تُخبّئه الأيام، فربما ذات يوم، يصل رجل- أو امرأة- وقد بلغ من العمر عتيًّا، ويرى الغطاء المعدني، وبعد أن يشعر بالدهشة، يحدوه الأمل وهو ينزل عبر الدرج الحلزوني. حينها سيجد كدسة أوراقي على الطاولة ويقرأها. وأخيرًا، سيتلقّى أحدهم رسالة كتبها شخص آخر.

ربّما، في هذه اللّحظة وأنا منهكة في آخر أيامي، يجوب شخص آخر السهول، كما سبق لي أن جبتها، متنقلًا من ملجأ إلى آخر، يحمل حقيبة على ظهره، ويبحث عن أجوبة لآلاف الأسئلة التي تقضّ مضجعه.

لقد صار الألم مبرّحًا، ولم تعد لديّ طاقة على تحمّله، ولن يمضي وقت طويل قبل أن أوجّه الطعنة القاتلة إلى قلبي، تلك الطعنة التي ناشدتني رفيقاتي في طلبها. في الليل، وبين الحين والآخر، كنت أصعد إلى الأعلى، وأجلس وحيدة وأستمع.

في الآونة الأخيرة، فكّرت في أن أصرخ بأعلى صوتي: «مرحبًا، هل من أحد هنا؟». لكنّ الوهن الذي أصاب جسدي لم يستثنِ صوتي. اكتفيت بالجلوس والاستماع، فلم أسمع سوى حفيف الأوراق وصوت النّسمات وهي تداعب الأعشاب. ذات يوم، جمعت عددًا كبيرًا من الأغصان وعملت طوال اللّيل على إشعال نارٍ كبيرة يمكن أن تُرى من مسافة بعيدة.

كنت واثقة من أنّ أحدًا لن يراها، كما كنتُ واثقة من أنّ هناك كثيرًا من الملاجئ، وربما كانت أبواب عدد منها مفتوحة في اللحظة التي دوّت فيها الصافرة. لكن السؤال الذي ظلّ يلحّ عليّ: هل ماتوا جميعًا؟ وإن ماتوا فما هو سبب موتهم؟

أمضيت الليل وأنا أفكّر في تلك الفتاة التي امتلكت قدرًا من الجرأة، أتاح لها التحديق إلى الحارس الشاب. والتي تمرّدت على الحاضر مع أنه ليس هناك مستقبل. والتي لم تجد صعوبة في صعود مئة درجة، ولكنها علقت في شبكة من الأوهام وسط سهل مقفر لا حدود له، تحت سماءٍ تكون رمادية معظم الوقت أو زرقاء شاحبة، حتّى تخالها تحتضر. لكنّ السّماء لن تموت، بل أنا من سأموت، وكنت أموت بالفعل في هذا المكان، وأقول لنفسي إنني وحيدةٌ تمامًا في هذه الأرض التي لم يعد فيها سجّانون... ولا سجناء. لم أعرف سببًا لمجيئي إلى هذا العالم، أنا التي توصف بأنها سيدة الصمت، وصاحبة الملاجئ، ورفيقة الجثث. أنا التي مشت آلاف الساعات، والتي ستخطو خطواتها العشر الأخيرة قريبًا

لتضع هذه الأوراق على الطاولة وتستلقي بعدها على فراش الموت، امرأةً عجوزًا هزيلةً لا تستطيع أن تغمض عينيها. قريبًا سأموت من دون أن أغمضهما وأنا أنظر صوب الباب.

أمضيت حياتي كلّها وأنا أؤدي مهام لا طائل منها ولا جدوى، فلم تجد السعادة إلى قلبي مسرى. لم يبقَ لديّ سوى قطرات قليلة من الدّم، هي الشيء الوحيد الذي يمكنني تقديمه للقدر الذي اختارني، قبل أن أرى فجر الشتاء الشاحب وأعود للنوم. لعلّ الألم يتيح لي أن أستريح قليلًا على هذا السرير الكبير الذي يتسع لعدة أشخاص.

لم تُطفأ المصابيح. في بعض الأحيان أتمنى أن تتوقّف عن العمل، وأن يحدث شيء ما. لطالما تساءلت النّساء عن مصدر الطاقة التي تنير هذه المصابيح وتُشغّل الثلاجات، ولكنني لم أفهم يومًا تفسيراتهنّ الغامضة عن حتمية وجود محطّاتٍ لتوليد الطاقة وأبراج وأسلاك توصيل، ولم أرَ شيئًا يتوافق مع هذه الأوصاف! لم أرَ غير السهل والأقفاص وهذا الملجأ الذي أختتم فيه أيامي.

منذ فترةٍ طويلة، توقّفتُ عن محاولة تخيّل أشياء لا أعرفها بعد أن أمضيت وقتًا طويلًا في دراسة الأشياء الموجودة على الرفوف في الممرّ، من دون أن أعرف عنها شيئًا؛ فهل هي أسلحة؟ أم وسائل اتّصالٍ قادرةٌ على وصلي بالإنسانية؟ لكنّ حالتها سيئةٌ جدًّا. كما توقّفت عن قراءة وإعادة قراءة الكتب والأبحاث المتعلّقة بالسفر عبر الفضاء.

طوال السّنوات التي أمضيتها في المشي والاستكشاف لم أجد إلّا قليلًا من الأشياء: عثرت على حافلة، وبعدها فقدت الدرب وانتهى بي المطاف هنا. وأيًّا يكن الأمر، سأموت في النّهاية كما يموت من يعيشون حياةً طبيعية. وعاجلًا أو آجلًا، ومثل الجميع سأجد نفسي في فجر آخر يوم لي.

في الوقت الذي كانت فيه رفيقاتي على قيد الحياة، أخبرنَني أنهنّ يشعرن بالشفقة عليّ؛ فأنا لم أشهد الحياة الطبيعية مثلهنّ. وقتها شعرت بالغيرة منهنّ، ولكنني الآن لا أرى سببًا لذلك، فقد متن، وأنا أوشك على أن ألحق بهنّ. فلا معنى للعيش بعد أن تفقد معنى الحياة. لو لم أمرض، كنت سأتابع رحلاتي الاستكشافية وأتابع المشي، لأنّ لا شيء لديّ لأفعله.

أعرف، حتّى عندما أتظاهر بالعكس، أنني الشخص الحيّ الوحيد على هذا الكوكب الذي يخلو من الفصول تقريبًا. أنا الوحيدة القادرة على القول إنّ الزمن موجود، لكنّ هذا الزمن مرّ في غفلة مني. رأيت النّساء الأخريات يكبرن، والآن أنا أتوجّه إلى المرآة وأنظر إلى نفسي، وأعتقد أنني لم أتعوّد على وجود تلك الخطوط على خدّيّ وحول عينيّ، لكنني لا أذكر وجهي قبل التجاعيد.

شرحت لي النّساء ما هي الصُّور، لكن لا صور لي، وكلّ ما أعرفه عن الوقت هو أنّ الأيام تتوالى. أنام حين أشعر بالتعب، وآكل حين أشعر بالجوع. وبالطبع، أحسب كلّ شيء. كلّما حسبت ثلاثين يومًا أعرف أنّ شهرًا قد انقضى، لكن ما أعرفه يبقى كلماتٍ مجرّدة، لا تمنحني الوقت حقًا. ربمّا لا يشعر المرء بمرور الوقت عندما يكون بمفرده! لا يمكن الشعور بالوقت إلّا من خلال رؤية أثره على الآخرين. ولأن جميع النّساء قد متنَ، فلم يعد له أثر سوى على النّباتات الهزيلة التي تنمو بين الحجارة، وتنتج في بعض الأحيان، ما يكفي من الزهور لتكوين بذرةٍ ستسقط على مسافةٍ قريبة. لأنّ الريح لم تكن قويّة بما فيه الكفاية لحملها إلى مكانٍ أبعد لتنبت فيه.

إنّ تناوب الليل والنّهار هو مجرّد ظاهرة فيزيائية، ولا وجود للزمن ما

لم يوجد النّاس. في الحقيقة كيف يمكنني أن أعتبر نفسي إنسانًا، وأنا لم أعرف غير تسعةٍ وثلاثين شخصًا، وكلهنّ نساء؟

أعتقد أنّ للوقت علاقة بمدّة الحمل، ونموّ الأطفال، وكلّ تلك الأمور التي لم أختبرها. إذا تحدّث أحدٌ إليّ، سيكون هناك وقت، وسينحصر هذا الوقت بين بداية ما قاله ونهايته، وبين اللحظة التي أجيب فيها وردّه على إجابتي. لذا، يمكنني القول بثقة إنّ أقصر محادثة تُنتج وقتًا. ربمّا حاولت خلق الوقت من خلال كتابة هذه الصفحات؛ فالوقت يبدأ مع بداية الكتابة، ويستمر وأنا أملأ الصفحات بالكلمات، وينتهي حين أجمعها معًا. لكنني رغم ذلك لا أثبت وجودي في ذلك الوقت الذي خلقته، لأنّ أحدًا لا يقرأ هذه الصفحات؛ فأنا أكتبها لقارئ مجهول ربمّا لن يأتي أبدًا. ولست متأكّدةً من أنّ البشرية قد نجت من ذلك الحدث الغامض الذي حكم حياتي. فإذا جاء ذلك الشخص، وقرأها، سأنتج وقتًا في ذهنه، وستجد أفكاري موطنًا لها في نفسه. وهكذا أختلط وإياه فنُشكّل شيئًا حيًّا. لن أكون أنا، لأنني سأكون ميتة. ولن يبقى ذلك الشخص كما كان قبل القراءة، لأنّ قصّتي، التي سكنت عقله، ستصبح بعد ذلك جزءًا من تفكيره.

لن أضمحلّ بعد أن أموت، إلّا إذا لم يصل أحدٌ إلى هنا. فحتّى مع مرور الزمن، ومرور آلاف السّنوات، وزوال هذا الكوكب، الذي لم أعد أعتقد أنّه الأرض، إذا بقيت هذه الأوراق، المكتوب عليها بخطّ يدي، موجودةً على هذه الطاولة. ثمّة احتمالٌ بأن أُصبح حقيقةً في ذهن شخصٍ ما، ولكن إذا لم يصل أحد سيُمحى كلّ شيء، وستحترق الشموس، وأختفي مثل الكون.

لا أُرجّح أن يأتي أحد، لكنني سأترك الباب مفتوحًا، وسأترك قصّتي على الطاولة، حيث سيتراكم الغبار تدريجيًا. وذات يوم، ستُدمّر الكوارث

الطبيعية هذا الكوكب، وسينهار البيت على كدسة الأوراق هذه، فتتناثر بين الركام، وتضيع هباء ولن تُقرأ أبدًا.

منذ ثلاثة أشهر، حين كنت ألبّي نداء الطبيعة حصل شيء غريب؛ اكتشفت أنني مريضةٌ. فقد شعرتُ بشيء دافئ يتدفّق عبر مهبلي، ذلك الجزء الصامت من جسدي الذي لم أفكّر في وجوده. وحين انحنيت رأيت خثرةً سوداء كبيرة تتخلّلها خيوطٌ صُفر. وقبل أن تتاح لي الفرصة للذعر، تدفّق الدّم غزيرًا، وكان الألم حادًّا جدًّا فغبتُ عن الوعي.

حين استيقظتُ، وجدت نفسي مستلقية على الأرض وقد سكن الألم، فلم أجد صعوبة في النّهوض مع أنني شعرت بدوار خفيف ربمّا بسبب النّزيف، لكنّه سرعان ما زال. اغتسلت، ثمّ نظّفت الأرضية الملطّخة بالدماء، وتذكّرت ما علّمتني إياه أنثيا من أنّ تناول قطعةٍ مشويةٍ من اللحم الأحمر يعوّض خسارة الدم.

تحدّثت النّساء عن انقطاع الطمث، لكنّ ذلك لم يحدث لي، فأنا لم أصل إلى سنّ البلوغ مطلقًا. مع ذلك، ليس هناك سببٌ لافتراض أنني لا أملك رحمًا أو مبيضين، حتّى لو لم تتطوّر هذه الأعضاء بشكلٍ طبيعيّ. شعرت بالحيرة، وحدّثت نفسي أن لا داعي للقلق وحاولت نسيان الأمر. لكنني لم أكن ماهرةً جدًّا في هذا النّوع من النّشاط العقلي، وحتّى لو كنت كذلك، فهذا لم يكن ليخدمني لفترة طويلة.

في اليوم التالي، تكرّر الأمر نفسه وكانت أعراضي مشابهةً لأعراض ماري جين التي- وفق أنثيا- أصيبت بسرطان الأعضاء التناسلية، والتي شنقت نفسها بين القضبان عندما لم تعد تستطيع تحمّل الألم.

لم يكن أمامي خيارٌ آخر، مع انعدام فرصة تلقّي أيّ معاملة مختلفة. أخبرتني أنثيا أنّ الأطبّاء يجرون عمليات جراحية لإنقاذ المصابين،

ويحقنون المرضى بالمورفين لتخفيف الألم. ربمّا كانت هناك أدويةٌ مناسبةٌ في الممرّ، لكنني لا أعرفها، ولم أجد على الرفوف شيئًا يشبه تلك الزجاجات التي كان الحرّاس يأخذون منها حبوبًا بيضًا أحيانًا، عندما يصاب أحدهم بارتفاعٍ في الحرارة.

منذ البداية، كان الألم شديدًا وبسرعة صار أكثر تواترًا، وكنت أعاني أكثر من نصف الوقت. وهذا ما حرمني من كلّ متعة، حتّى من فترات الراحة في السهل لأنني صرت ضعيفة وغير قادرة على التحرك.

لم أعد أقوى على صعود الدّرج دفعةً واحدة، وكنت أشعر بالبرد عندما أصل إلى أعلاه، وصرت أطلب الراحة بعد أن أمشي لربع ساعة.

لم أعد آكل كثيرًا، فكلما أجبرتُ نفسي على الأكل شعرت بالغثيان، ولم يكن هذا في صالحي.

أنا أعرف أنّ نهايتي تدنو.

أنا وحيدة، ومع ذلك لم أفقد الأمل بأن يزورني شخص ما. لكنني سرت طويلًا عبر السهل وفي جميع اتّجاهاته، لذا لم أعد أصدّق أنّ ذلك ممكنٌ... لن يأتي أحد... لا يوجد شيءٌ سوى الجثث... كيف استطاع والد الأمير هاملت، وهو ميتٌ، أن يظهر وأن يتحدّث إليه؟ فالموتى لا يستطيعون التحرّك، لأنهم يتحلّلون ويتحوّلون في النّهاية إلى عظام تتفتّت عند أدنى لمسة. رأيت المئات من الموتى، ولكن أيًّا منهم لم يأتِ ليتحدّث إليّ في منتصف الليل، وإن أتى أيّ منهم كنتُ سأشعر بالسعادة!

في الليالي الصافية، كنت أجلس أحيانًا تحت السّماء وأتأمّل النّجوم، وأقول بصوتي المزعج: «أيها الرب... أنا وحيدة، إن تكرّمت عليّ بإشارة فهذا سيجعلني في غاية السعادة».

لست هرمة جدًّا؛ فلو افترضنا أنني غادرت الملجأ في سنّ الخامسة

عشرة تقريبًا، فأنا الآن لم أتجاوز الستّين بكثير. قالت النّساء إنّ متوسّط العمر المتوقّع في العالم يزيد على السبعين، لكنّ ذلك يتطلّب رعايةً طبّية، وأن تأتيني الدورة الشهرية وأن أُنجب أطفالًا. لكنني لم أختبر الدورة الشهرية ولم أنجب أطفالًا. ولو حصل ذلك ما كانت رحمي عديمة الفائدة ستصاب بالمرض.

زادت معاناتي من النّزيف، وبدا أنّ رحمي تتفكّك. كانت معرفتي تفوق أملي باختفاء المرض يومًا ما واستعادة صحّتي. منذ فترة، بدأت أسعل، وأعاني من آلام في الصدر. أخبرتني أنثيا عن معنى الورم الخبيث، وكنت أعرف أنني قريبًا سأرتاح من هذا الألم... لكنني لن أنتظر... سأريح نفسي بعد قليل، لأنني أوشكت على إنهاء القصّة. بعد وضع نقطة النّهاية، لن يوقفني شيءٌ عن التنفيذ بعد أن أدركت حالتي المرضية، ورحت أفكّر في الطرائق الممكنة للانتحار.

لا أريد أن أشنق نفسي وأتدلّى من طرف حبلٍ إلى الأبد. أريد أن أستلقي بكرامة، مثل ذلك الرجل الذي وجدته جالسًا بين الفُرش. أريد أن أنظر إلى الأمام مباشرة. لكن، إذا كان الألم شديدًا جدًا، فإنني سأخاطر بالقيام بعملٍ غير سارّ.

لا أظن أنّ لديّ ما يكفي من الوقت أو القوّة للذهاب إلى الحافلة، وجلب أحد الأسلحة التي وضعتها على القبور. لذلك شحذْتُ السكين جيدًا، لدرجة أنه سيجرح إصبعي إن لمسته. كانت الشفرة رفيعةً ومسطّحةً وقوية، وأنا أعرف أين أغرسها حتّى تمرّ مباشرةً بين ضلعين، وتخترق قلبي وتوقفه.

حين يتركني الألم بسلام، أشك في أنني سأنفّذ ما خطّطت له، وعندما يهيج تتلاشى شكوكي. سأجلس على السرير، وأرتّب الوسائد والبطّانيّات حولي، حتّى أدعم جسدي بشكل جيد، وسيكون كلّ شيءٍ نظيفًا ومرتّبًا

تمامًا. آمل ألّا أنزف كثيرًا، وهو ما أعرف أنه ممكن. ربمّا لن يأتي أحدٌ أبدًا، وربمّا في يومٍ من الأيام، سيصل إنسانٌ إلى أسفل الدرج وسيذهل كما ذُهلت منذ فترة طويلة، ويرى الغرفة المغطّاة بألواح الخشب الداكن والسرير المرتّب بعناية، ويرى امرأة عجوزًا تجلس منتصبة، وتبدو مسالمة وقد غُرس سكين في قلبها.

من الغريب أن أموت بسبب مرضٍ في الرحم، أنا التي لم أعرف الرجال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنا التي لم أعرف الرجال

أيّها القارئ العزيز،

وأنتَ تقرأ قصّتي ستشعر بمأساتي وربّما ستكتئب. لكنني ما كتبتُ قصّتي إلّا لتكون لكَ بذرة أمل تعينكَ على مآسي الحياة، أنا التي أخذتُ نصيبي كاملًا من المعاناة.

أرجو أن تجد في قصّتي السلوان والرضى والسعادة، فحياتكَ، وإن كانت بائسة فهي جلّ ما تمنيتُ أن أحظى به.

وأنتَ تقرأ قصتي فكّر في كلّ ما افتقدتُه وفي كلّ ما تمتلكه. وتذكّر أنني، بالرغم ممّا مررتُ به، تبيّن لي أنني أحببتُ، وأنني شعرت بالمعاناة، وأنني إنسانة. وقبل أن أنسى دعني أقلْ إننا كنّا تسعًا وثلاثين امرأة وطفلة... وبنا بدأت الحكاية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار جلسة للنشر والتوزيع